صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم جامع بين المأثور والمعقول

مستمد من أوثق كتب التفسير

الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط، وغيرها

بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

طبعة منقحة ومصححة

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بمكة المكرمة ـ جامعة الملك عبد العزيز

الجزء الثالث

دار الصابوني

سورة يس

بين يدي السورة
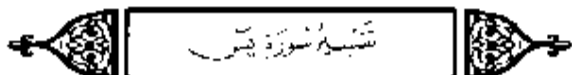
* سورة يس مكية وقد تناولت مواضيع أساسية ثلاثة هي: «الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين».
* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ، ثم تحدثت عن كفار قريش الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا رسول الله محمد بن عبد الله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.
* ثم ساقت قصة أهل القرية «أنطاكية» الذين كذبوا الرسل، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن في استخدام القصص للعظة والاعتبار.
* وذكرت موقف الداعية المؤمن «حبيب النجار» الذي نصح قومه فقتلوه، فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.
* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، بدءاً من مشهد الأرض الجرداء تدب فيها الحياة، ثم مشهد الليل يسلخ عنه النهار، فإذا هو ظلام دامس، ثم مشهد الشمس الساطعة تدور بقدر الله في فلك لا تتخطاه، ثم مشهد القمر يتدرج في منازله، ثم مشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا.
* وتحدثت عن القيامة وأهوالها، وعن نفخة البعث والنشور التي يخرج الناس فيها من القبور، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين والمجرمين في ذلك اليوم الرهيب حتى يستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.
* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن الموضوع الأساسي، وهو موضوع البعث والجزاء وأقامت الأدلة والبراهين على حدوثه.

التسمية: سميت السورة «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

فضلها: قال ﷺ: «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس، وددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي»(1).

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله ... ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من آية (1) إلى نهاية آية (32).

---

(1) أخرجه البزار.

اللغة: ﴿أَغْلَالًا﴾ جمع غُلّ وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تُشدّ به اليد مع العنق ﴿مُقْمَحُونَ﴾ رافعو الرؤوس مع غض البصر، قال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر يقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب [1]، قال بشر يصف سفينة:

ونحن على جوانبها قعودٌ ... نغضّ الطرف كالإبل القماح [2]

﴿سَدًّا﴾ السدّ: الحاجز والمانع بين الشيئين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ عززه: قوّاه وشدّ من أزره ﴿تَطَيَّرْنَا﴾ تشاءمنا، والتطير: التشاؤم، وأصله من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به ﴿خَامِدُونَ﴾ ميتون لا حراك بهم كما تخمد النار.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

التفسير: ﴿يس﴾ الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه مصوغ من جنس هذه الحروف الهجائية التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكنّ نظمه البديع المعجز آيةٌ على كونه من عند الله [3] وقال ابن عباس: معنى «يس» يا إنسان في لغة طيء

---

(1) انظر القاموس المحيط مادة قمح. (2) تفسير الطبري (١٥/٨)

(3) انظر تفصيل البحث حول الحروف المقطعة في أوائل سورة البقرة من هذا التفسير

وقيل: هو اسم من أسماء النبي ﷺ بدليل قوله بعده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقيل: معناه: يا سيد البشر، قاله أبو بكر الوراق[1] ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ قسمٌ من الله تعالى بالقرآن، والحكيم معناه المحكم، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه تناقض ولا بطلان. قال القرطبي: أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل[2] وقال أبو السعود: أي المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظمه المعجز، المنطوي على بدائع الحكم[3] والخلاصة فقد أقسم تعالى بهذا الكتاب المحكم - المعجز في نظمه، والبديع في معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة - على أن محمداً رسوله، وفي هذا القسم من التعظيم والتفخيم لشأن الرسول ما فيه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم، أي: إنك يا محمد لمن المرسلين من رب العالمين لهداية الخلق، قال ابن عباس: قالت كفار قريش: لستَ يا محمد مرسلاً، وما أرسلك الله إلينا، فأقسم الله بالقرآن العظيم المحكم أن محمداً ﷺ من المرسلين[4] ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي على طريق ونهج مستقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، المعبّر عنه بالإيمان والتوحيد، قال الطبري: أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام كما قال قتادة[5]، والتنكير للتفخيم والتعظيم[6] ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي هذا القرآن الهادي المنير تنزيلٌ من رب العزة جل وعلا، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي لتنذر يا محمد بهذا القرآن العرب، الذين ما جاءهم رسولٌ ولا كتاب، لتطاول زمن الفترة عليهم والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك غافلون عن الهدى والإيمان، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأوثان. ثم بيّن تعالى استحقاقهم للعذاب بإصرارهم على الكفر والتكذيب فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد وجب عذاب النار على أكثر هؤلاء المشركين بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم بالتذكير والإنذار، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئتهم به يا محمد. ثم بيّن تعالى سبب تركهم الإيمان فقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ تمثيلٌ وتصوير لحال المشركين في ضلالهم بحال الذي جُعل في يده غلٌّ وجمعت يده إلى عنقه، [illegible] فصار رأسه لا يخفضه، [illegible]. وهذا تمثيل والمراد أنهم لا يُذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له[7] قال ابن كثير: ومعنى الآية إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كمن جُعل في عنقه غلٌّ، وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه[8] فارتفع رأسه فصار مقمحاً.

---

(١) القرطبي ١٥/٤ (٢) القرطبي ١٥/٤٦

(٣) تفسير أبي السعود ٤/٤٤٧.

(٤) تفسير القرطبي ١٥/٧ وقد نقله القرطبي عن الثعلبي.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/٩٧ (٦) الانتصاف على الكشاف ٤/٣

(٧) تفسير الخازن ٣/٢٦٨.

(٨) الأذقان: جمع الذقن، والذقن مجمع اللحيين

والمُقمح هو الرافع رأسه ، واكتفى بذكر الغُلّ في العنق عن ذكر اليدين ، لأن الغُلّ إنما يُعرف فيما جمع اليدين مع العنق (١). وقال أبو السعود: مثّل حالهم بحال الذين غُلّت أعناقهم ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم ، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رءوسهم ، غاضون أبصارهم ، بحيث لا يكادون يرون الحق ، أو ينظرون إلى جهته (٢) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال أبو السعود: وهذا تتمة للتمثيل وتكميل له ، أي: وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً ، ومن ورائهم سداً كذلك ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً لأنهم أصبحوا محصورين بين سدّين هائلين ، وهذا بيان لكمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات ، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات (٣). قال المفسرون: وهذا كله تمثيل لسدّ طرق الإيمان عليهم بمن سُدّت عليه الطرق فهو لا يهتدي لمقصوده (٤). ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أي يستوي عندهم إنذارك يا محمد وتخويفك لهم وعدمه ، لأن من ختم على عقله ظلام الضلال ، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان ، لا تنفعه المواعظ والتذكير ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك لا يؤمنون ، لأن الإنذار لا ينفع القلوب الميتة ، إنما يوقظ القلب الحي المستعد لتلقي الإيمان ، وهذا تسلية له ﷺ وكشف لحقيقة ما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن وعمل بما فيه ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي وخاف الله دون أن يراه. قال أبو حيان: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي المتصف بالرحمة ، والرحمة تدعو إلى الرجاء ، لكنه مع علمه برحمته يخشاه جل وعلا ، خوفاً من أن يسلبه ما أنعم به عليه ، ومعنى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر (٥) ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ لما انتفع بالإنذار كان جديراً بالبشارة ، أي فبشره يا محمد بمغفرة عظيمة من الله لذنوبه ، وأجر كريم في الآخرة في جنات النعيم. قال ابن كثير: الأجر الكريم هو الكثير الواسع الحسن الجميل ، وذلك إنما يكون في الجنة (٦). ولما ذكر تعالى أمر الرسالة ذكر بعدها أمر البعث والنشور فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي نحييهم من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ قال الطبري: أي ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر ، ومن صالح الأعمال وسيئها ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ أي وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد (٧) ، وفي الحديث عن جابر قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد ، والبقاع خالية ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا بني سلمة دياركم تُكتب آثاركم ، دياركم تُكتب آثاركم» فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا (٨) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي وكل

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٥٣).
(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٨).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٤٩).
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣١٩).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٢٥).
(٦) مختصر ابن كثير (٣/ ١٥٣).
(٧) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٩).
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه.

شيء من الأشياء أو أمر من الأمور جمعناه وضبطناه في كتاب مسطور هو صحائف الأعمال كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، وقال مجاهد وقتادة: هو اللوح المحفوظ[1] وقال أبو حيان: «ويكتب ما قدموه أي ونحصي، فيه تنبيه على إحاطة علمه جل وعلا بأعمالهم بالكتابة التي تضبط بها الأشياء»[2]. ثم ذكر تعالى للمشركين قصة أهل القرية الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله بصيحة من السماء فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك الذين كذبوك قصة أصحاب القرية «أنطاكية» التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين جاءهم رسلنا الذين أرسلناهم لهدايتهم. قال القرطبي: وهذه القرية هي «أنطاكية» في قول جميع المفسرين أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم «صادق» و«مصدوق» و«شمعون» أمر ﷺ بإنذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله، وقيل: هم رسل عيسى[3] ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي حين بعثنا إليهم رسولين فبادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي ليس لكم فضل علينا وما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟ ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشد الانتقام. قال ابن جزي: أكدوا الخبر هنا باللام ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه إخبار مجرد[4] ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغاً واضحاً جلياً لا غموض فيه، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاوة، قال أبو حيان: وفي هذا وعيد لهم، ووصف البلاغ بـ﴿الْمُبِينُ﴾ لأنه الواضح بالآيات الشاهدة بصحة الإرسال، كما روي في هذه القصة من المعجزات الدالة على صدق الرسل، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت[5] ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي قال لهم أهل القرية: إنا تشاءمنا بكم وبدعوتكم الجديدة لنا إلى الإيمان، وترك عبادة الأوثان. قال المفسرون: ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت منه طبيعتهم المعوجة، فتشاءموا بمن دعاهم إليه كأنهم قالوا: أصابنا الشؤم مما تدعونا إليه[6]، ثم توعدوا

---

(١) والأرجح ما ذكرناه أنه صحائف الأعمال، وهو اختيار ابن كثير.

(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٢٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ١٤) وما ذكره من أنهم رسل عيسى فيه نظر، لأن قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله. كذا في التسهيل.

(٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٦١). (٥) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٢٧).

(٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/ ١٢٥).

الرسل بقولهم. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ أي والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم، ودعوتكم لنا إلى التوحيد، ورفض ديننا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لنرجمنكم بالحجارة حتى تموتوا، ولنقتلنكم شرَّ قتلة ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قالت الرسل لهم: ليس شؤمكم بسببنا، وإنما شؤمكم بسبب كفركم، وعصيانكم، وسوء أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؟ شرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه، أي إن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم إلى توحيد الله، تشاءمتم بنا وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والإجرام، وهو توبيخ لهم مع الزجر والتقريع ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يعدو ويسرع في مشيه وهو "حبيب النجار" قال ابن كثير: إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه، وهو "حبيب النجار" كان يعمل الحرير وهو الحبّاك، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه [1] وقال القرطبي: كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه، فما استجابوا له، فلما أبصر الرسل ودعوه إلى عبادة الله قال: هل من آية؟ قالوا: نعم، نحن ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك! فقال: إن هذا لعجيب، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟! قالوا: نعم ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، فلما همَّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعاً وقال ما قصه القرآن [2]: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي اتبعوا الرسل الكرام الداعين إلى توحيد الله، وإنما قال ﴿يَا قَوْمِ﴾ تأليفاً لقلوبهم واستمالة لها لقبول النصيحة، ثم كرر القول تأكيداً وبياناً للسبب فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين، الذين لا يسألونكم أجرة على الإيمان، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تلطفٌ في الإرشاد لهم كأنه ينصح نفسه، ويختار لهم ما يختار لنفسه، وفيه نوع تقريع على ترك عبادة خالقهم، والمعنى: أيُّ شيء يمنعني من أن أعبد خالقي الذي أبدع خلقي؟ وإليه مرجعكم بعد الموت فيجازي كلاً بعمله؟ ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ استفهام إنكاري أي كيف أتخذ من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئاً؟ ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي هي في المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن ينزل بي شيئاً من الضر والأذى وشفعت لي لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على إنقاذي، فكيف وهي أحجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع؟ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إني إن عبدت غير الله واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي. وبعد النصح والتذكير أعلن إسلامه،

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير (٣/١٥٩) والقول بأن اسم الرجل "حبيب النجار" مروي عن ابن عباس.
(2) تفسير القرطبي (١٥/١٨) وهذه رواية وهب ذكرها القرطبي.

سبحانه فقال: ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أي ألم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، ويعلموا أن هؤلاء المهلكين لا عودة لهم إلى الدنيا بعد هلاكهم[1]؟ ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ أي وإن جميع الأمم الغابرة والآتية ستحضر للحساب والجزاء يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين، فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها؟ قال أبو حيان: وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً أن الله تعالى لا يترك المهلكين بل بعد الهلاك جمعٌ وحساب، وثواب وعقاب[2].

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بأكثر من مؤكد لأن المخاطب منكر مثل ﴿إنك لمن المرسلين﴾ ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ فقد أكد كل منهما بـ «إنَّ» و«اللام» ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

٢- الاستعارة التمثيلية ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً..﴾ الآية، شبه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضه ولا التفاتاً، وبمن سُدَّت الطرق في وجهه فلم يهتد لمقصوده، وذلك بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣- الطباق بين ﴿ما بين أيديهم.. وما خلفهم﴾

٤- طباق السلب ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾.

٥- الجناس الناقص ﴿[illegible]﴾ لتغير بعض الحروف.

٦- الإطناب بتكرار الفعل ﴿اتبعوا المرسلين.. اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾.

٧- الاستفهام للتوبيخ ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾؟!

٨- الحذف لدلالة السياق عليه ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي فلما أظهر إيمانه قتلوه فقيل له: ادخل الجنة.

٩- جناس الاشتقاق بين ﴿تطيرنا.. وطائركم﴾ وبين ﴿أرسلنا.. والمرسلون﴾.

١٠- مراعاة الفواصل، وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير مشهور.

تنبيه: من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسرها؛ لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار، ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله، ولا اسم الرسل الكرام، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

□ □ □

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٦٢.
(٢) البحر المحيط ٧/٣٣٣.

قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ إلى ... ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٥٨)

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة أهل القرية، وإهلاك الله لهم بالصيحة بسبب تكذيبهم المرسلين، ذكر هنا الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية في إخراج الزروع والثمار، وتعاقب الليل والنهار، وفي الشمس والقمر يجريان بقدرة الواحد القهار، ثم ذكر شبهات المشركين حول البعث، وردَّ عليها بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة.

اللغة: ﴿آيَةٌ﴾ علامة لأنها دالة على وجود الله، قال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله في كل تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

﴿الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف والأنواع ﴿نَسْلَخُ﴾ السلخ: الكشط والنزع، قال تعالى ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ ويقال: سلخ الجزار جلد الشاة أي نزع الجلد عن اللحم فالسلخ جزء من الانسلاخ وهو الانفصال، و﴿الْعُرْجُونِ﴾: عود عذق النخلة الذي فيه عناقيد الرطب، قال الجوهري: هو أصل العذق الذي يعوجُّ وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً(١) ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء الموقر بالأشياء الثقيلة ﴿صَرِيخَ﴾ مغيث ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ يختصمون في أمورهم غافلين عما حولهم ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون في الخروج، يقال: نسل الذئب ونسل أي أسرع في المشي(٢).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)

---

(١) انظر القرطبي (١٥/٣١) والقاموس المحيط والصحاح.
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٤٠).

قدرتنا، الليلُ نزيل منه الضوء ونفصله عن النهار فإذا هم داخلون في الظلام، وفي الآية رمزٌ إلى أن الأصل هو الظلام، والنور عارض، فإذا غربت الشمس ينسلخ النهار من الليل وينكشف ويزول فيظهر الأصل وهو الظلمة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي وآية أخرى لهم: الشمس تسير بقدرة الله في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمنٍ تستقر فيه، ولوقت تنتهي إليه، وهو يوم القيامة حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم. قال ابن كثير: وفي قوله تعالى: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما - أن المراد: مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري أن النبي ﷺ قال: «يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: اللهُ ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش...» الحديث. والثاني: أن المراد بمستقرها: هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة، حيث يبطل سيرها وتسكن حركتها، وتُكوَّر، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وقرئ «لا مستقر لها» أي لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتر ولا تقف[1] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجري[2] والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي والقمر قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعداها، فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس. قال ابن كثير: جعل الله القمر لمعرفة الشهور، كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر: فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدَّره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم. قال مجاهد: أي العذق اليابس وهو عنقود الرطب إذا عتق ويبس وانحنى، ثم يبدأ جديداً في أول الشهر الآخر[3]. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٦).

(٢) يقول الشهيد سيد قطب في تفسيره الظلال: «والشمس تدور حول نفسها وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول: إنها ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ هذا المستقر الذي تنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.. وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم، وصدق الله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٣).

تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره؛ لأن ذلك يُخلّ بتلوين النبات وحساب الزمن. قال الطبري: أي لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوءها نوره فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلاً(1) ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء. قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء، ولو كانت ملصقة ما جرت(2) والغرضُ من الآية: بيانُ قدرة الله في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر - كما قال قتادة: لكلٍّ حدٌّ وعلمٌ لا يعدوه، ولا يقصر دونه - حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم فيجمع الله بين الشمس والقمر كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فيختل نظام الكون، وتقوم القيامة، وتنتهي حياة البشرية على سطح هذا الكوكب الأرضي(3) ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي وعلامة أخرى واضحة للناس على كمال قدرتنا أنا حملنا آباءهم الأقدمين - وهم ذرية آدم - في سفينة نوح عليه السلام التي أمره الله أن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين. قال في التسهيل: وإنما خصّ ذريتهم بالذكر؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة(4) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح السفن العظيمة التي يركبونها ويبلغون عليها أقصى البلدان، وإنما نسب الخلق إليه؛ لأنها بتعليم الله جلّ وعلا للإنسان. وقال ابن عباس: هي الإبل وسائر المركوبات، فهي في البر مثل السفن في البحر(5) ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ولو أردنا لأغرقناهم في البحر فلا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ولا أحد يستطيع أن ينقذهم من الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم، وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم. بيّن تعالى أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة، فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في

(1) تفسير الطبري (23/6) (2) تفسير القرطبي (15/33)

(3) يقول سيد قطب رحمه الله: «المسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة وقد قدّر الله خالق هذا الكون أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم لتحفظها بمعرفته من التصادم والتصدع، وحركة هذه الأجرام في الفضاء أشبه بحركة السفينة في الخضم الفسيح، فهي - مع ضخامتها - لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب»!!

(4) التسهيل في علوم التنزيل (3/164).

(5) تفسير القرطبي (15/34) وهناك قول آخر عن ابن عباس أن المراد بقوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ السفن أي خلق لهم سفناً أمثال سفينة نوح يركبونها وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾

مهبُّ الهواء، وإلاّ تداركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار يتركون هول البحر العصيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات، في هذا الخضم الهائل الذي تمسكه يد الرحمة ويعرفون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسبحان الله القدير الرحيم!! ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكّرهم تعالى بدلائل قدرته، وآثار رحمته، أخبر هنا عن تعاميهم عن الحق، بإعراضهم عن الهدى والإيمان، مع كثرة الآيات الواضحات، والشواهد الباهرات، والمعنى: وإذا قيل للمشركين: احذروا سخط الله وغضبه واعتبروا بما حلَّ بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما ينتظركم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا، وجواب الشرط محذوف تقديره: أعرضوا واستكبروا، ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قال القرطبي: والجواب محذوف والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أعرضوا، ودليله الآية التي بعدها ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ...﴾ فاكتفى بهذا عن ذلك[1] ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي وما تأتي هؤلاء المشركين علامة من العلامات الواضحة الدالة على صدق الرسول - كالمعجزات الباهرة التي أيده الله بها - إلا أعرضوا عنها على وجه التكذيب والاستهزاء. قال أبو السعود: وإضافة الآيات إلى اسم الرب جل وعلا لتفخيم شأنها، المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بالآيات إما الآيات التنزيلية التي من جملتها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه، أو الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات، التي من جملتها ما ذُكر من شئونه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية[2] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء الكفار بطريق النصيحة: أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله على الفقراء والمساكين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي قال الكفار للمؤمنين تهكمًا بهم: أننفق أموالنا على هؤلاء المساكين الذين أفقرهم الله؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله. قال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله لا نفعل، أيفقره الله ونطعمه نحن[3]؟ وغرضهم الرد على المؤمنين مكأنهم يقولون: لو كان الأمر كما تزعمون أن الله قادر، وأن الله رازق لأطعم هؤلاء الفقراء، فما بالكم تطلبون إطعامهم منا؟ وما علم هؤلاء السفهاء أن خزائن الأرزاق بيد الخلاق، وأنه تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعض الخلق ابتلاءً، ليَنظُر كيف عطفُ الغني، وكيف صبرُ الفقير، فقد منع الدنيا عن الفقير لا بخلاً، وأمر الغني بالإنفاق عليه لا حاجةً إلى ماله، ولكن للابتلاء، والله يفعل ما يشاء، لا اعتراض لأحد في مشيئته ولا في حكمه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا

---

(١) تفسير القرطبي ٢٦/١٥ (٢) تفسير أبي السعود ٢٥٤/٤
(٣) تفسير القرطبي ٣٧/١٥ قال القرطبي: وإنما أخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين

يَعْقِلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ثم أخبر عن إنكار المشركين للآخرة، واستبعادهم لقيام الساعة فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي متى يوم القيامة الذي توعدوننا به؟ ومتى هذا العذاب الذي تخوفوننا به إن كنتم صادقين في دعواكم أن هناك بعثاً ونشوراً وحساباً وعقاباً؟ قال تعالى رداً عليهم: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم مفاجأة من حيث لا يشعرون ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي وهم يتخاصمون في معاملاتهم وأسواقهم، فلا يشعرون إلا بالصيحة قد أخذتهم، فيموتون في أماكنهم قال ابن كثير: وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ إسرافيل في الصور والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض إلا حنى عنقه يتسمع الصوت من قبل السماء[1] فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي فلا يستطيع بعضهم أن يوصي بعضاً بأمر من الأمور ولا يستطيعون أن يرجعوا إلى أهليهم ومنازلهم؛ لأن الأمر أسرع من ذلك، وفي الحديث: «لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وهو يُليط حوضه - أي يصلحه بالطين - فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعمها»[2] ثم تكون هناك النفخة الثانية وهي «نفخة الصعق» التي يموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحيَّ القيوم، ثم تكون النفخة الثالثة وهي «نفخة البعث والنشور» التي يخرج الناسُ بها من القبور، وهي التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي ونفخ في الصور فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم يسرعون المشي. قال الطبري: ﴿يَنسِلُونَ﴾ يخرجون سراعاً، والنَّسَلان: الإسراع في المشي[3] ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ أي يقولون: يا هلاكنا من الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ قال ابن كثير: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد[4]، فإذا قالوا ذلك أجابتهم الملائكة أو المؤمنون ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، وصدق رسله الكرام فيما أخبرونا به عن الله ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي ما كان أمر بعثهم إلا صيحة واحدة يصيح بهم فيها إسرافيل فإذا هم جميع عندنا حاضرون. قال الصاوي: وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة والشعور المتمزقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء! ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[5]

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٥) وهذا الذي قاله ابن كثير هو اختيار الطبري وأن المراد بها نفخة الفزع، وقال القرطبي: هي نفخة الصَّعق التي يموت بها جميع الأحياء.

(٢) أخرجه البخاري. (٣) الطبري (٢٣/ ١٦).

(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ١٦٦). (٥) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢٨)

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - لا تُظلم نفس شيئًا، سواءٌ كانت هذه النفس برّة أو فاجرة، ولا يُحمَّل الإنسان وزر غيره وإنما يُجازى كلٌّ بعمله. قال أبو السعود: هذه حكاية لما سيقال لهم في الآخرة، حين يرون العذاب المُعدَّ لهم تحقيقًا للحق، وتقريعًا لهم[1]. ولما أخبر عن مآل المجرمين أخبر عن حال الأبرار المتقين فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي إن أصحاب الجنة في ذلك اليوم - يوم الجزاء - مشغولون بما هم فيه من اللذات والنعيم عن التفكير في أهل النار، يتفكهون ويتلذذون بالحور العين، وبالأكل والشرب والسماع للأوتار. قال أبو حيان: والظاهر أن الشغل هو النعيم الذي قد شغلهم عن كل ما يخطر بالبال. وقال ابن عباس: شُغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار عن أهاليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا[2] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، حيث لا شمس فيها ولا زمهرير، متكئون على السرر المزينة بالثياب والستور ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي لهم سلامٌ كريم من ربهم الرحيم، وفي الحديث «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة! فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»[3].

البَلَاغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ أي آية عظيمة باهرة على قدرة الله.

٢ - الطباق بين الموت والإحياء ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ وبين «الليل» و «النهار».

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ شبّه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار اسم السلخ للإزالة والإخراج واشتق منه (نسلخ) بمعنى نُخرج منه النهار بطريق الاستعارة التصريحية، وهذا من بديع الاستعارة، وبين الليل والنهار طباق.

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وجه الشبه مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، ولما لم يذكر وجه الشبه سمي مجملًا.

٥ - تقديم المسند إليه لتقوية الحكم النفي ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فإنه أبلغ من أن يقول: «لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر» وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أُريد

(١) أبو السعود (٤/١٥٧). (٢) البحر المحيط (٧/٣٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر. كذا في المختصر لابن كثير (٣/١٦٧)، ورواه ابن ماجه في سننه [illegible].

بهذا مثل قولك: «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك: «لا تكذب» فإنه أشدُّ لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن(١).

٦- تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بدل «يسبح»، فقد عبّر عن الشمس والقمر والكواكب بضمير جمع المذكر، والذي سوّغ ذلك وصفهم بالسباحة؛ لأنها من صفات العقلاء(٢).

٧- الاستعارة اللطيفة ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ المرقد هنا عبارة عن الممات، فشبهوا حال موتهم بحال نومهم؛ لأنها أشبه الأشياء بها وأبلغ من قوله: من بعثنا من مماتنا.

٨- الإيجاز بالحذف ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا ما وعدكم به الرحمن.

٩- الطباق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والاستفهام الذي يراد منه التهكم ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

١٠- السجع غير المتكلف في ختام الآيات الكريمة مثل ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ومثل ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ و﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وهو من المحسنات البديعية(٣).

٦ ٦ ٦

قال الله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ... إلى ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من آية (٥٩) إلى آية (٨٣) نهاية السورة.

المناسَبَة: لما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم في الجنة من النعيم المقيم، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار وما لهم من الخزي والدمار، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، وختم السورة الكريمة ببيان أدلة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء.

اللغَة: ﴿وَامْتَازُوا﴾ تميزوا وانفصلوا، والتمييز: التفريق بين أمرين ﴿جِبِلًّا﴾ (بكسر الجيم) خلقًا جمع جبلّة ومنه ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ مشتق من جبل الله الخلق أي خلقهم ﴿لَطَمَسْنَا﴾ الطمس: إذهاب الشيء وأثره جملة كأنه لم يوجد ﴿اصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا سعيرها ﴿مَسَخْنَاهُمْ﴾ المسخ: التحويل من صورة إلى صورة منكرة ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ التعمير: إطالة العمر حتى يبلغ سن الشيخوخة ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ التنكيس: قلب الشيء رأسًا على عقب، يقال: نكست الشيء ونكّسته إذا قلبته على رأسه ومنه ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ ﴿رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالي المفتت يقال: رمّ العظم أي بلي فهو رميم

---

(١) انظر حاشية الشيخ زاده على البيضاوي (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢٦).

(٣) ذكرنا بعض الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، حتى يتذوق الإنسان بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ما يعجز عن وصفه اللسان، فسبحان منزل القرآن!

﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي أفما كان لكم عقلٌ يردعكم عن طاعة الشيطان ومخالفة أمر ربكم؟ وهو توبيخ آخر للكفرة الفجار، ثم يبشرهم بما ينتظرهم من العذاب فقال: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي هذه نار جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها. قال الصاوي: هذا خطاب لهم وهم على شفير جهنم، والمقصود منه زيادة التبكيت والتقريع[1] ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا حرارتها وقاسوا أنواع عذابها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وهو أمر إهانة وتحقير مثل قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ ثم أخبر تعالى عن فضيحتهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد فقال: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ أي في هذا اليوم - يوم القيامة - نختم على أفواه الكفار ختماً يمنعها من الكلام ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي تنطق عليهم جوارحهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة. روى ابن جرير الطبري عن أبي موسى الأشعري أنه قال: "يُدعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول: أي ربِّ وعزتك لقد كتب عليّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك أي رب ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم على فيه وتكلمت أعضاؤه، ثم تلا ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾"[2] وفي الحديث "يقول العبد: يا ربِّ ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول العبد: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل"[3] ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾ أي لو نشاء لأعمينا أبصارهم فأبصروا طريقهم ذاهبين كما نشاء فكيف يبصرون حينئذٍ؟ قال ابن عباس: المعنى لو شاء لأعماهم عن الهدى فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق[4] وهو تهديد لقريش ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ أي لو نشاء لمسخناهم مسخاً يقعدهم في مكانهم ﴿فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾ أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يمضوا ولا أن يرجعوا، وهو تهديد آخر للكفرة المجرمين، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته على مسخ الكفار بتطويل الأعمار فقال: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾ أي ومن نُطِل عمره ننقلبه في أطوار منكسة في الخلق فيصير كالطفل لا يعلم شيئاً. قال قتادة: يصير إلى حالة الهرم الذي يشبه حالة الصبا، فطول العمر يصيِّر الشباب هرَماً، والقوة ضعفاً، والزيادة نقصاً ﴿أفلا يعقلون﴾؟ أي أفلا يعقلون أن من قدر على ذلك قادر على إعمائهم أو مسخهم؟ قال ابن جزي: والقصدُ من ذلك الاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار، كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم[5] ﴿وما علمناه

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٢٩. (٢) الطبري ٢٣/١٧

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم. (٤) تفسير القرطبي ١٥/٤٩

(٥) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٦٦

الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي وما علمنا محمداً الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعراً، قال القرطبي: هذا ردٌّ على الكفار في قولهم بأنه شاعر، وإن ما أتى به من قبيل الشعر فالرسول ليس بشاعر، والقرآن ليس بشعر، لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: «أعذبه أكذبه» فأين ذلك من القرآن العزيز الذي تنزَّه عن مماثلة كلام البشر!! وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه، وإنما الإِنصاف ما قاله الشافعي رحمه الله: «الشعر كلامٌ، والكلام منه حسنٌ، ومنه قبيح» ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي يتلوه محمد إلا عظة وتذكير من الله جل وعلا لعباده، وقرآن واضح ساطع لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي لينذر بهذا القرآن من كان حي القلب مستنير البصيرة، وهم المؤمنون، لأنهم المنتفعون به ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وتجب كلمة العذاب على الكافرين[1] لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يخاطبون به. قال البيضاوي: وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعارٌ بأنهم لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم - أمواتٌ في الحقيقة[2]. ثم ذكَّرهم تعالى بنعمه، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية ليستدلوا على وجوده جلَّ وعلا من آثاره فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ الهمزة للإِنكار والتعجب أي أولم ينظروا نظر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا من غير واسطة، ولا شريك ولا معين - حيث خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام وهي الإِبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟! ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي فهم متصرفون فيها كيف يشاؤون تصرف المالك بماله ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ قال ابن كثير: المعنى جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاءه صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخرها لعباده[3]!! ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإِبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ أي ولهم فيها منافع عديدة غير الأكل والركوب، كالجلود والأصواف والأوبار، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ والغرضُ من الآيات تعديدُ النعم وإقامةُ الحجة عليهم. ثم وبخهم وعنفهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع من الأوثان والأصنام وذلك نهاية الغي والضلال فقال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي وعبد المشركون آلهة من الأحجار رجاء أن تنصرهم وهي صماء بكماء، لا تسمع الدعاء ولا تستجيب للنداء ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تستطيع هذه الآلهة المزعومة نصرهم

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/٢٦٦). (٢) تفسير البيضاوي (٢/١٣٩).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/١٧٠).

بحالٍ من الأحوال، لا بشفاعة ولا بنصرة أو إعانة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وهؤلاء المشركون كالجند والخدم لأصنامهم في التعصب لهم، والذبّ عنهم، وفدائهم بالروح والمال، مع أنهم لا ينفعونهم أيَّ نفع: قال قتادة: المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شرّاً، إنما هي أصنام والمشركون كأنهم خدام[1]. وقال القرطبي: المعنى: إنهم قد رأوا هذه الآيات من قدرتنا ثم اتخذوا من دونه آلهة لا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، والكفار يمتعضون لهم ويدافعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم[2] ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، واتهامهم بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للنبي عليه السلام، وهنا تمَّ الكلام ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي نحن أعلم بما يخفونه في صدورهم، وما يظهرونه من أقوالهم وأفعالهم، فنجازيهم عليه، وكفى بربك أنه على كل شيء شهيد.. ثم أقام الدليل القاطع، والبرهان الساطع على البعث والنشور فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للتوبيخ والتقريع أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر نظر اعتبار، ويتفكر في قدرة الله فيعلم أنّا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة «المنيّ» الخارج من مخرج النجاسة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفيعجز الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أُخرى عند البعث؟ قال المفسرون: نزلت في «أبي بن خلف» جاء بعظم رميم، وفتّه في وجه النبي الكريم وقال ساخراً: أتزعم يا محمد أنَّ الله يُحييه بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له: نعم يبعثك ويدخلك النار[3] ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي وضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي وقال هذا الكافر: من يحيي العظام وهي بالية أشدَّ البلى، متفتتة متلاشية؟ قال الصاوي: أي أورد كلاماً عجيباً في الغرابة هو كالمثل، حيث قاس قدرتنا على قدرة الخلق[4] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل يا محمد تعريضاً وتبكيتاً لهذا الكافر وأمثاله: يحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق ويُبدع، فلا يصعب عليه

---

(١) وهذا القول هو الذي اختاره الطبري ورجحه، انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٠).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٥٦) بشيء من الاختصار.
(٣) قال في البحر: وقيل: إنها نزلت في العاص بن وائل، والأصح أنها في أبي بن خلف، وانظر سبب النزول المتقدم في هذا التفسير.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٢١).

٧- الاستعارة التمثيلية ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ الأنعام تُخلق ولا تُعمل، ولكنه شبه اختصاصه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرًا بيده ويصنعه بنفسه، واستعار لفظ العمل للخلق بطريق الاستعارة التمثيلية[١].

٨- صيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ .. ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

٩- الاستعارة التمثيلية ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ شبه سرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر مطاع من غير توقف ولا امتناع، فإن أراد شيئًا وجد من غير إبطاء ولا تأخير، وهو من لطائف الاستعارة[٢].

فائدة: الملكوت صيغة مبالغة من المُلْك، ومعناه الملك الواسع التام مثل الجبروت والرحموت للمبالغة.

تنبيه: قال العلامة ابن كثير: «ما ثبت عنه ﷺ أنه تمثل يوم الخندق بأبيات ابن رواحة «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» وما ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب على بغلته «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وقوله: «هل أنت إلا أصبع دميت: وفي سبيل الله ما لقيت» إلخ إنما وقع اتفاقًا من غير قصد إلى قول الشعر، بل جرى هذا على لسانه عفوًا وكل هذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[٣] اهـ. فتدبره فإنه نفيس.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يس»

(١) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/١٤٠).
(٢) انظر تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي (٦/١٩٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/١٧٦).

بين يدي السورة
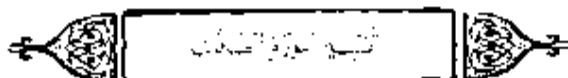
سورة الصافات من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، الوحي، البعث والجزاء» شأنها كشأن سائر السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار «الصافات» قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، «الزاجرات» السحاب يسوقونه حيث شاء الله، ثم تحدثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، إذ كان بعض أهل الجاهلية في اعتقادهم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن. وتحدثت السورة عن البعث والجزاء وإنكار المشركين له واستبعادهم الحياة مرة ثانية بعد أن يصبحوا عظامًا ورفاتًا.

* وتأكيدًا لعقيدة الإيمان بالبعث ذكرت السورة قصة «المؤمن والكافر» والحوار الذي دار بينهما في الدنيا، ثم النتيجة التي آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار.

* واستعرضت السورة الكريمة قصص بعض الأنبياء، بدءًا بنوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم قصة موسى وهارون، ثم إلياس ولوط، وذكرت بالتفصيل قصة «الإيمان والابتلاء» في حادثة الذبيح إسماعيل، وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم حين أمر بذبح ولده ثم جاء الفداء، تعليمًا للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين.

* وختمت السورة الكريمة ببيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين.

التسمية: سميت السورة «سورة الصافات» تذكيرًا للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا يفترون عن عبادة الله ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

قال الله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ... إلى ... لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٦١).

اللغة: «الزاجرات» الزجر: الدفع عن الشيء بقوة أو صياح، والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعي الغنم إذا صاح عليها فرجعت لصوته ﴿مَارِدٍ﴾ عات متمرد ﴿ثَاقِبٌ﴾ محرق شديد النفاذ ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع ﴿لَازِبٍ﴾ ملتصق بعضه ببعض ﴿مَعِينٍ﴾ شراب نابع من العيون ﴿غَوْلٌ﴾ الغول: كل ما يغتال العقل ويفسده، قال أبو عبيدة: الغول: ما يغتال العقل ويذهب به

التفسير: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته إظهاراً لعظم شأنها، وكبر فوائدها، وتنبيهاً للعباد على جلالة قدرها، والمعنى: أُقسم بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات أقدامها في الصلاة، أو أجنحتها في انتظار أمر الله. قال ابن مسعود: هم الملائكة تصفّ في السماء في العبادة والذكر صفوفاً، وفي الحديث «ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قلنا: وكيف يا رسول الله؟ قال: يُتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف»(١) أقسم تعالى بالملائكة تنبيهاً على جلالة قدرهم، وكثرة عبادتهم، فهم مع عظيم خلقهم ورفعة شأنهم لا ينفكون عن عبادة الله، يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة، مع الخشوع والخضوع للعزيز الجبار، الذي دانت له الخلائق، وخضعت لجلال هيبته الرقاب، بما فيهم حَمَلة العرش والملائكة الأطهار ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ أي الملائكة التي تزجر السحاب، يسوقونه إلى حيث شاء الله، من الزجر بمعنى السوق والحث ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ وصفٌ ثالثٌ للملائكة الأبرار، إشادةً بذكر محاسنهم ومناقبهم العالية؛ أي وأقسمُ بالملائكة التي تتلو آيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن إلهكم الذي تعبدونه - أيها الناس - إلهٌ واحدٌ لا شريك له. قال مقاتل: إن الكفار بمكة قالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ وكيف يسع هذا الخلق إله فرد؟ فأقسم الله بهؤلاء تشريفاً(٢). ثم بيَّن تعالى معنى وحدانيته وألوهيته فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هو تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما، وما بينهما من المخلوقات والموجودات، فإن وجودهما وانتظامهما على هذا النمط البديع من أوضح الدلائل على وجود الله ووحدانيته ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي وهو رب مشارق الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف. قال الطبري: واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالة الكلام عليه(٣) ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب بعد أن أخبر عن وحدانيته فقال ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ أي زينّا السماء القريبة منكم بالكواكب المنيرة المضيئة، التي تبدو وكأنها جواهر تتلألأ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ أي وللحفظ من كل شيطان عاتٍ متمرد، خارج عن طاعة الله. قال قتادة: خلقت النجوم لثلاث: رجوماً للشياطين، ونوراً يُهتدى بها، وزينةً للسماء الدنيا(٤). وقال أبو حيان: خصَّ السماء الدنيا بالذكر لأنها هي التي تُشاهد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين(٥) ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ أي لا يقدرون أن يستمعوا إلى الملائكة الذين هم في العالم العلوي، وقيل المعنى: لئلا يتسمعوا إلى الملأ الأعلى ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي ويُرجمون بالشهب من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أي طرداً لهم عن استماع الأخبار

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ولفظ تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٤).
(٤) تفسير القرطبي (١٥/ ٦٤).
(٥) البحر المحيط (٧/ ٣٥٢).

مقصودها الزجر، كزجر الإبل، والخيل عند السَّوْق"(1). ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا يوم الجزاء والحساب!! تقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه وتكذبون به. قال البيضاوي: "الفصلُ: القضاءُ والتفريق بين المحسن والمسيء"(2) ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه قال القرطبي: الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق(3) وقال ابن عباس: احشروا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه: المراد بهم أشباههم من العصاة(4) ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وما كانوا يعبدونه من الأوثان والأصنام، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي فعرّفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها، وفي لفظ "اهدوهم" تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أي احبسوهم عند الصراط لأنهم مسؤولون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلى قول أبي جهل يوم بدر: نحن جميع منتصر(5) وأصل ﴿تَنَاصَرُونَ﴾ تتناصرون حذفت إحدى التاءين تخفيفًا، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي بل هم اليوم أذلاء منقادون، عاجزون عن الانتصار، سواءٌ منهم العابدون والمعبودون ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون. قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال(6) ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحق، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى"(7) قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قِبل الدين والحق، تخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوة والقدرة كقول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ... تلقّاها عَرابةُ باليمينِ(8)

---

(1) تفسير القرطبي (١٥/٧٢). (2) تفسير البيضاوي (٦/١٢٨).

(3) تفسير القرطبي (١٥/٧٣) وعزاه إلى عمر بن الخطاب.

(4) نقلهما عنه صاحب البحر المحيط (٧/٣٥٦).

(5) تفسير القرطبي (١٥/٧٤). (6) تفسير أبي السعود (٤/٢٦٨).

(7) هذا القول حكاه ابن كثير عن السدي وهو الأظهر.

(8) تفسير الطبري (٢٣/٣٢).

وقيل المراد: تأتوننا بطريق الوسوسة عن يمين كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار (1) ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول لهم الرؤساء: لم نمنعكم نحن عن الضلال ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم. قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان (2) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها على متابعتنا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ أي فوجب علينا جميعًا وعيد الله لنا بالعذاب ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ أي فإنا لذائقون هذا العذاب لا محالة ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلى الغي لأننا كنا في غيٍّ وضلال. قال تعالى مخبرًا عن حالهم ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل هذا الفعل نفعل بهؤلاء الأشقياء المجرمين، ثم بين تعالى السبب فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي إذا قيل لهم: قولوا: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يتكبرون ويستعظمون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟ أي ويقولون عندما يُدعون إلى التوحيد: أنترك عبادة الأوثان لقول شاعر مجنون؟ يعنون بذلك رسول الله ﷺ، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون بل جاءهم محمد بالتوحيد والإسلام الذي هو الحقُّ الأبلج، وجاء بمثل ما جاء به الرسل قبله. قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، ثم خلطوا في كلامهم بقولهم "شاعر مجنون" فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونًا لا يصل إلى شيء من ذلك، فكلامهم تخليط وهذيان (3) ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذاب ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا تعاقبون إلا جزاء مثل عملكم. قال الصاوي: لأن الشر يكون جزاؤه بقدره، بخلاف الخير فجزاؤه بأضعاف مضاعفة (4). ولما ذكر شيئًا من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئًا من أحوال المؤمنين ونعيمهم، على طريقة القرآن في الموازنة بين الفريقين ترغيبًا وترهيبًا فقال ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الاستثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المُخلَصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. ثم أخبر عن جزائهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحًا ومساءً كما قال

---

(1) هذا المعنى ذكره في التسهيل، وهو معنى لطيف لكن ليس له ما يعضده من جهة اللغة.
(2) مختصر ابن كثير (٣/ ١٧٦).
(3) البحر المحيط (٧/ ٣٥٧).
(4) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٣٧).

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۝ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

التفسير: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي أنعيم الجنة خيرٌ ضيافةً وعطاءً أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ أيهما خيرٌ وأفضل؟ فالفواكه والثمار طعام أهل الجنة، وشجرة الزقوم طعام أهل النار، والغرض منه توبيخ الكفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أي إنا جعلنا شجرة الزقوم محنةً وابتلاءً لأهل الضلالة. قال المفسرون: لما سمع الكفارُ ذِكْرَ شجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تُحرق الشجر؟ وكان أبو جهل يقول لأصحابه: أتدرون ما الزقوم؟ إنه الزُّبد والتمر! ثم يأتيهم به ويقول: تزقَّموا، هذا الذي يخوفنا به محمد!! (١) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ثم هي متفرعة فيها ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي ثمرها وحملها كأنه رءوس الشياطين في تناهي القبح والبشاعة. قال ابن كثير: وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر (٢) ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي فإن هؤلاء الكفار لشدة جوعهم مضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلئ منها بطونهم، فهي طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة، وفي الحديث «لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟» (٣) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي ثم إن لهم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش لمزاجًا من ماء حار قد انتهت حرارته، يشاب به الطعام - أي يخلط - ليجمع لهم بين

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٤٦) (٢) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٣)

(٣) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

مرارة الزقوم، وحرارة الحميم؟ تغليظًا لعذابهم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي ثم مصيرهم ومرجعهم إلى دركات الجحيم. قال مقاتل: الحميم خارج الجحيم، فهم يوردون الحميم لشربه ثم يردون إلى الجحيم. وقال أبو السعود: الزقوم والحميم نُزُلٌ يقدَّم إليهم قبل دخولها[1] ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي وجدوهم على الضلالة فاقتدوا بهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي فهم يُسرعون في اتباع خطاهم من غير دليل ولا برهان. قال مجاهد: شبَّهه بالهرولة كمن يُسرع إسراعًا نحو الشيء. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ضلَّ قبل قومك أكثر الأمم الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي أرسلنا فيهم رسلاً كثيرين يخوفونهم من عذاب الله ولكنهم تمادوا في الغي والضلال ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين، ألم نهلكهم ونُصيِّرهم عبرة للعباد؟ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي لكن عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم تعالى لطاعته فإنهم نجوا من العذاب.. ثم شرع في بيان قصة نوح فقال ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد استغاث بنا نوح لما كذبه قومه فلنعم المجيبون نحن له، وصيغة الجمع ﴿الْمُجِيبُونَ﴾ للعظمة والكبرياء. قال الصاوي: ذكر تعالى في هذه السورة سبع قصص. قصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة موسى وهارون، وقصة إلياس، وقصة لوط، وقصة يونس، وكل ذلك تسلية له ﷺ وتحذيرًا لمن كفر من أمته[2] ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي ونجيناه ومن آمن معه - أهله وأتباعه - من الغرق. قال المفسرون: وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ أي وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد هلاك قومه. قال ابن عباس: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح[3] قال في التسهيل: وذلك لأنه لما غرق الناس في الطوفان، ونجا نوح ومن كان معه في السفينة، تناسل الخلق من أولاده الثلاثة سام، وحام، ويافث[4] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي تركنا عليه ثناءً حسنًا في كل أمة إلى يوم القيامة ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ أي سلام عاطر من الله تعالى والخلائق على نوح باقٍ على الدوام بدون انقطاع ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد، نُبقي له الذكر الجميل إلى آخر الدهر ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصًا في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين. قال في حاشية البيضاوي: علَّل هذه التكرمة السَّنية بكونه من أولي الإحسان، ثم علَّل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا؛ إظهارًا لجلالة قدر الإيمان وأصالة أمره، وجعل الدنيا معمورة من ذريته تبقية لذكره الجميل في ألسنة العالمين[5] ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أغرقنا الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح عن آخرهم، فلم تبق منهم عينٌ تطرف ولا ذكرٌ ولا أثر.. ثم شرع تعالى في بيان قصة إبراهيم فقال:

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٤).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٠).
(٣) تفسير البحر المحيط (٧/ ٣٦٤).
(٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٤).
(٥) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/ ١٥٧).

مسرعين كان بعضهم يدفع بعضًا فلما ذكروه قالوا: ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم موبخًا: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟ أي أتعبدون أصنامًا تنحتونها بأيديكم، وتصنعونها بأنفسكم؟ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي والله جل وعلا خلقكم وخلق عملكم، وكلُّ الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق، أليس لكم عقل أيها الناس؟ قال ابن جزي: ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿مَا﴾ مصدرية والمعنى: اللهُ خلقكم وأعمالكم. وهذه الآية عندهم قاعدةٌ في خلق أفعال العباد وذهب بعضهم إلى أن ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، والمعنى: خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام[1]. ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي ابنوا له مكانًا واضرموه نارًا ثم ألقوه في تلك النار العظيمة المستعرة. قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلى الغلبة بقوة البطش والشدة، وتشاوروا فيما بينهم ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصارًا لأصنامهم وآلهتهم ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه، فنجيناه من النار وجعلناها بردًا وسلامًا عليه، وجعلناهم الأذلين المقهورين؛ لأنه لم ينفذ فيه مكرهم، ولا كيدهم ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما نجاه الله من النار، وخلّصه من كيد الفجار، هجر قومه واعتزلهم، والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي. قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى أرض الشام[2] ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي ارزقني ولدًا من الصالحين يؤنسني في غربتي. قال ابن كثير: يريد أولادًا مطيعين يكونون عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم[3] ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلامٍ يكون حليمًا في كبره. قال أبو السعود: جمع الله فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنه يكون حليمًا؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، وأيُّ حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[4]! وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو إسماعيل؛ لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل[5] ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي فلما ترعرع وشبّ وبلغ السنّ الذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي إني أُمرت في المنام أن أذبحك. قال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحيٌ، وتلا الآية. وقال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظًا ورقودًا؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم[6] ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي فانظر في الأمر، ما رأيك فيه؟ قال ابن كثير:

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٣).
(٢) القرطبي (١٥/ ٩٧).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٦).
(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٣).
(٥) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا «النبوة والأنبياء» والأدلة على ذلك ص (١٤٣) وانظر ابن كثير (٣/ ١٨٦) ففيه بحث لطيف ونفيس.
(٦) القرطبي (١٥/ ١٠١).

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده، وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه[1]. فإن قيل: لمَ شاوره في أمرٍ هو حتمٌ من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكنْ ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطّن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابراً إن شاء الله! وهو جواب من أُوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي فلما استسلما - الأب والابن - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه. قال ابن عباس: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أكبّه على وجهه ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ هذه جواب «لمّا» والواو مقحمة أي ناديناه يا إبراهيم قد نفّذت ما أُمرت به، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، روي أنه أمرّ السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع. قال الصاوي: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبةٌ من قلبه بمحبة ولده، فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وقدّم محبته على محبة ولده، قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه قال الابن: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف ثيابك لئلا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحدّ شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون عليّ، وإذا أتيت أمي فاقرأها مني السلام، وإن رأيت أن تردّ قميصي عليها فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العونُ أنت يا بني على أمر الله[2] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لتفريج الكربة أي كما فرجنا شدتك كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي إن هذا لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وفديناه بكبشٍ عظيم من الجنة فداءً عنه قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً[3] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي سلام منا على إبراهيم عاطرٌ كريم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ كرّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء ثم علّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة هو إسحاق الذي سيكون نبياً. قال ابن عباس: بُشّر بنبوته حين وُلد، وحين نُبّئ[4]، وتكاد تكون الآية صريحةً في أن الذبيح هو «إسماعيل» لا «إسحاق» ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ أي ومن ذريتهما محسنٌ ومسيء. قال الطبري: المحسنُ هو المؤمن، والظالم لنفسه

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٦).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٣).
(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٧).
(٤) مختصر ابن كثير (٣/ ١٨٩).

هو الكفر[1]. وقال أبو حيان: وفي الآية وعيدٌ لليهود ومن كان من ذريتهما ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ، وفيها دليل على أن البرَّ قد يلد الفاجر ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة[2].

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الأسلوب التهكمي ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ التعبير بـ«خيرٌ» تهكم بهم.

٢- الجناس الناقص ﴿الْمُنذَرِينَ﴾ و﴿الْمُنذِرِينَ﴾ لأن المراد بالأول الرسل، وبالثاني الأمم.

٣- التشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ أي في الهول والشناعة، ويسمى تشبيهًا مرسلًا مجملًا.

٤- الاستعارة التبعية ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ شبَّه إقباله على ربه مخلصًا بقلبه بمن قدم على الملك بتحفة ثمينة جميلة ففاز بالرضى والقبول، ففيه استعارة تبعية.

٥- الطباق بين ﴿مُحْسِنٌ﴾ و﴿ظَالِمٌ﴾.

٦- الكناية اللطيفة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ كنّى به عن الثناء الحسن الجميل.

٧- مراعاة الفواصل مثل ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، وهو من خصائص القرآن وفيه من الروعة والجمال، وحسن الوقع على السمع ما يزيده روعةً وجمالاً.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إلى ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من آية (١١٤) إلى نهاية السورة (١٨٢).

المناسبة: لما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين.

اللغة: ﴿أَبَقَ﴾ هرب ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ قارع أي ضرب القرعة. قال المبرد: وأصله من السهام التي تُجال ﴿الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين، وأصله من الزلق، يقال: دَحضت حجته وأدحضها الله أي غُلب وهُزم قال الشاعر:

قتلنا المدحضين بكلِّ فجٍّ ... فقد قرَّت بقتلهم العيونُ

﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلام عليه ﴿الْعَرَاءِ﴾ الأرض الفيحاء لا شجر فيها ولا معلم، قال الفراء: العراء: المكان الخالي ﴿يَقْطِينٍ﴾ القرعُ المعروف والمسمّى بالدُّبّاء، قال الجوهري: اليقطين: ما لا ساق له كشجر القرع ونحوه[4] ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ الساحةُ: الفناء.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٧).
(٢) البحر المحيط (٧/ ٣٧٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ١١٣).
(٤) انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط.

شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، تلقّفتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: ههنا عبدٌ أبق من سيده، ولا بدَّ للنجاة بالسفينة من إلقائه في البحر لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فألقوه في البحر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولأصبح بطنه قبراً له حتى يوم البعث، ولكنه سبّح الله واستغفره وناداه وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب الله تضرعه ونداءه ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي فألقيناه من بطن الحوت على الساحل بالأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل، وهو سقيم مريض مما ناله من الكرب قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت: إني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً[1] فلذلك بقي سالماً لم يتضرر منه بشيء ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ أي وأنبتنا فوقه شجرة لتظلّه وتقيه حرّ الشمس، وهي شجرة القرع ذات الأوراق العريضة قال ابن جزي: وإنما خصَّ القرع بالذكر، لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب[2]، وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل قوته وعافيته رده الله إلى قومه وفيهم قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم وهم مائة ألف بل يزيدون. قال المفسرون: كانوا مائة وعشرين ألفاً، وقيل: وسبعين ألفاً، وهم أهل نينوى بجهة الموصل، و«أو» بمعنى «بل» أي بل يزيدون ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي أنذروا به فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. قال في التسهيل: روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم[3]. ولما انتهى من الحديث عن الرسل الكرام رجع إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة فقال ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أي اسأل يا محمد واستخبر كفار مكة - على سبيل التوبيخ والتقريع لهم - كيف زعموا أن الملائكة بنات الله، فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور؟ إنهم يكرهون البنات ولا يرضونهن لأنفسهم، فكيف يرضونها لله - عز وجل - ويختصون بالبنين؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ ترقٍّ آخر على جهلهم، استهزاءً بهم وتجهيلاً، أي بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثاً وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا مثل هذا البهتان؟ ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء المشركين من كذبهم وافترائهم ينسبون إلى الله الذرية والولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي وهم

(١) مختصر ابن كثير ٣/١٩٧ (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٧٦
(٣) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٧٧

كاذبون قطعًا في قولهم: الملائكة بناتُ الله. قال أبو السعود: والآية استئناف مسوقٌ لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح، من غير أن يكون لهم دليلٌ قطعًا[1] ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ؟ توبيخ وتقريع أي هل اختار جل وعلا البنات وفضلهن على البنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ؟ تسفيهٌ لهم وتجهيل أي أيُّ شيءٍ حصل لكم حتى حكمتم بهذا الحكم الجائر؟ كيف يختار لنفسه أخسَّ الجنسين على زعمكم؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟ أي أفليس لكم تمييز وإدراك تعرفون به خطأ هذا الكلام؟ قال أبو السعود: أي أفلا تتذكرون بطلان هذا ببديهة العقل، فإنه مركوزٌ في عقل كل ذكي وغبي[2] ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ توبيخ آخر أي أم لكم برهان بيّن وحجة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بنات له؟ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فأتوا بهذا الكتاب الذي يشهد بصحة دعواكم فيما تزعمون. والغرضُ تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون - في أقوالهم الباطلة - على دليل شرعي، ولا منطق عقلي.

وينتقل إلى أسطورة أخرى لفقها المشركون، حيث زعموا أن هناك صلة بين الله سبحانه وبين الجنّ، وأنه من التزاوج بين الله تعالى والجنة وُلدت الملائكة فقالوا: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجنّ قرابة ونسبًا، حيث قالوا: إنه نكح من الجنّ فولدت له الملائكة، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، ثم زعموا أن الملائكة إناث، وأنهن بنات الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي لقد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب. قال الصاوي: وهذا زيادة في تبكيتهم وتكذيبهم كأنه قيل: هؤلاء الذين عظمتموهم وجعلتموهم بنات الله - أعلمُ بحالكم وما يئول إليه أمركم[3] ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس الله عما يصفه به هؤلاء الظالمون ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع أي لكنْ عباد الله المخلصين فإنهم ينزهون الله تعالى عما يصفه به هؤلاء ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ۝ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي فإنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه من الأصنام والشياطين لستم بقادرين على أن تفتنوا أحدًا من عباد الله إلا من قضى الله عليه الشقاوة، وقدَّر أنه من أهل النار ويصلاها. ثم ذكر تعالى اعتراف الملائكة بالعبودية لله فقال ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي وما منا ملك إلا له مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها: فمنا الموكَّل بالأرزاق، ومنا الموكَّل بالأعمال، ومنا من ينزل بالوحي، ولكلٍّ منزلة من العبادة، والتقريب، والتشريف ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أي الواقفون في العبادة صفوفًا ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون لله سبحانه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه، نسبّح الله في كل وقت وحين. قال في التسهيل: وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة ردٌّ على من قال: إنهم بناتُ الله، وشركاء الله؛ لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله، والتنزيه له جل وعلا[4] ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۝ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الضمير لكفار قريش ﴿وَإِن﴾ هي

---

(١)، (٢) تفسير أبي السعود (٤/ ٢٧٨).

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٣٤٨). (٤) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٧).

المخففة من «إنَّ» الثقيلة أي وإن كان الحال والشأن أن كفار مكة كانوا - قبل أن ينزل عليهم القرآن - يقولون: لو نزل علينا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لكنا أعظم إيمانًا منهم، وأكثر عبادةً وإخلاصًا لله منهم، فلما جاءهم القرآن كفروا به، ولهذا قال: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي فكفروا وكذبوا بالقرآن أشرف الكتب السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعرفون عاقبة كفرهم بآيات الله، وهو وعيد وتهديد ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي سبق وعدنا وقضاؤنا لرسلنا الكرام ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ أي إنهم هم المنصورون على أعدائهم، والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي وإن جندنا المؤمنين لهم الغالبون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالحجة والبرهان، وفي الآخرة بدخول الجنان. قال المفسرون: نصرُ الله المؤمنين محقق، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المعارك، فإن القاعدة هي بالظفر والنصرة، وإنما يُغلبون في بعض الأحيان بسبب تقصير منهم أو ابتلاء ومحنة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي أعرض عنهم يا محمد إلى مدة يسيرة، إلى أن تؤمر بقتالهم ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي وأبصرهم حين ينزل بهم العذاب فسوف يبصرون عاقبة كفرهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ استفهام إنكاري للتهديد أي أيستعجلون بعذاب الله؟ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ استهزءوا وقالوا: متى هذا يكون؟ فنزلت الآية ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي لا يستعجلوا ذلك فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كرره تأكيدًا للتهديد وتسلية للرسول ﷺ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتقدس ذو العزة والجبروت عما يصفه به المشركون ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وسلامٌ منا على الرسل الكرام، والحمد لله في البدء والختام لله رب الخلائق أجمعين. نزّه تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به سبحانه فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالاً كثيرة شنيعة، وختم بتعميم السلام على الرسل الكرام وبحمده سبحانه، وهو تعليم للعباد.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «تدعون... وتذرون» وبين «البنات... والبنين».

٢ - تتابع التوبيخ وتكراره مثل ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾؟ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت.

٣ - التأكيد بعدة مؤكدات لتحقيق المعنى وتقريره مثل ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فقد أُكدت كل من الجملتين بإنّ واللام.

٤ - الاستعارة التصريحية ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ شبه خروجه بغير إذن ربه بإباق العبد من سيده.

٥ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الأصل «وتجعلون» والالتفات للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً للخطاب، فهم مبعدون من رحمة رب الأرباب.

• الاستعارة التمثيلية {فإذا نزل بساحتهم} مثّل العذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم فأناخ بفنائهم بغتة، ونصحهم بعض النصاح فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، حتى أناخ عليهم الجيش. قال الزمخشري: «وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يحس بها ويروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل»[1].

فائدة: روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون ۝ وسلام على المرسلين ۝ والحمد لله رب العالمين ۝}»[2].

تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات.

***

---

(1) الكشاف ٤/٦٢.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً، وروي مرفوعاً عن علي رضي الله عنه.

العجيب، وقوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ما لها من فترة وراحة وإفاقة[1] ﴿قِطَّنَا﴾ القِطُّ: الحظُّ والنصيب ﴿الْأَيْدِ﴾ القوة في العبادة والطاعة ﴿تَسَوَّرُوا﴾ تسوّر الحائط: علا أعلاه وتسلقه والسور: الحائط ﴿تُشْطِطْ﴾ قال علماء اللغة: الشَّطط: مجاوزة الحد وتخطي الحق، يقال: شطَّ في الحكم أي جار فيه ولم يعدل، والأصل فيه: البعدُ، من شطَّت الدار بمعنى بعدت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ② كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ④ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ⑦ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ⑧ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ⑩ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ⑪ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ⑫ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ⑬ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ⑭ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ⑮ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ⑯ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ⑰ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ⑱ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ⑲ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ⑳ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ㉑ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ㉒ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ㉓ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ㉔ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ㉕ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ㉖﴾

التفسير: ﴿ص﴾ تقدم الكلام على الحروف الهجائية، وبينا أن فيها الإشارة إلى إعجاز القرآن[2] ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ قسمٌ أقسم به الباري جل وعلا أي والقرآن ذي الشرف الرفيع وذي الشأن والمكانة، وجواب القسم محذوف تقديره: إن هذا القرآن لمعجز وإن محمدًا لصادق. قال ابن عباس: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف[3] ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي بل الكافرون في حمية وتكبر عن الإيمان، وفي خلاف وعداوة للرسول عليه السلام. قال البيضاوي: أي ما كفر من كفر بالقرآن لخلل وجده فيه بل الذين كفروا به ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلاف لله ولرسوله، ولذلك كفروا به[4] ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كم أهلكنا قبل أهل

---

(1) انظر الصحاح للجوهري.
(2) انظر أول سورة البقرة من هذا التفسير.
(3) مختصر ابن كثير (١٩٠/٣).
(4) تفسير البيضاوي (١٤٦/٢).

مكة من أمم كثيرة من القرون الخالية لتكبرهم عن الحق ومعاداتهم لرسلهم. قال أبو السعود: والآية وعيد لأهل مكة على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين ﴿فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي فاستغاثوا واستجاروا عند نزول العذاب طلبًا للنجاة وليس الحينُ حين فرارٍ ومهربٍ ونجاة. قال ابن جزي: المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك، إذ ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص أي مفر ونجاة، من ناص ينوص إذا فرّ، و«لات» بمعنى ليس وأصلها «لا» النافية زيدت عليها علامة التأنيث ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي وعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ واستبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي وقال كفار مكة: إن محمدًا ساحرٌ فيما يأتي به من المعجزات ﴿كَذَّابٌ﴾ أي مبالغ في الكذب في دعوى أنه رسول الله، وإنما وضع الاسم الظاهر ﴿الْكَافِرُونَ﴾ مكان الضمير «وقالوا» غضبًا عليهم، وذمًا لهم وتسجيلاً لجريمة الكفر عليهم، فإن هذا الاتهام لا يقوله إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ؟ أي أزعم أن الربَّ المعبود واحد لا إله إلا هو؟! ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي إنَّ هذا الذي يقوله محمد - أن الإِله واحد - شيء بليغٌ في العجب. قال ابن كثير: أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأُشربته قلوبهم فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع الأوثان وإفراد الإِله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال المفسرون: إن قريشًا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب: كُفَّ ابن أخيك عنا، فإنه يعيب ديننا، ويذم آلهتنا، ويسفّه أحلامنا، فدعاه أبو طالب وكلَّمه في ذلك، فقال ﷺ: «يا عم، إنما أريد منهم كلمةً واحدة، يملكون بها العجم وتدين لهم بها العرب» فقال أبو جهل والمشركون: نعم نعطيكها وعشر كلمات معها! فقال قولوا: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ويقولون أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! فنزلت الآيات ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ أي وانطلق أشراف قريش ورؤساء الضلالة فيهم، وخرجوا من عند الرسول ﷺ يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تطيعوا محمدًا فيما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي إن هذا أمرٌ مدبَّر، يريد من ورائه محمد أن يصرفكم عن دين آبائكم ليكون له العزة والسيادة عليكم، فاحذروا أن تطيعوه ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا القول في ملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، فكيف يزعم محمد أن الله واحد؟ قال ابن عباس: يعنون

أبو السعود (٤/ ٢٨٦). — التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ١٧٩).

مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٧).

انظر تفسير الطبري (٢٣/ ٧٩) والبحر المحيط (٧/ ٣٨١).

هذا معنى ما قاله ابن جرير وهو الأظهر، وهناك أقوال أخرى تنظر في تفسير أبي السعود (٤/ ٢٨٢).

بالملة الآخرة دين النصرانية، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي ما هذا الذي يدعيه محمد إلا كذب وافتراء، ثم أنكروا اختصاصه -عليه السلام- بالوحي من بينهم فقالوا: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ ؟ والاستفهام للإنكار أي هل نزّل القرآن على محمد دوننا، مع أن فينا من هو أكثر منه مالاً وأعلى رياسة؟! قال الزمخشري: أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم[1] ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ إضراب عن مقدر تقديره: إنكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه؛ فلذلك كفروا ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ إضراب انتقالي وهو يفيد التهديد والمعنى بسبب تيقنهم أنهم لم يذوقوا العذاب إلى الآن، ولو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن وآمنوا به ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ ؟ هذا ردٌّ على المشركين فيما أنكروا من اختصاص محمد ﷺ بالنبوة، والمعنى: هل عندهم خزائن رحمته تعالى حتى يعطوا النبوة من شاءوا، ويمنعوها من شاءوا؟ قال البيضاوي: يريد أن النبوة عطيةٌ من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده، فإنه ﴿الْعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب ﴿الْوَهَّابِ﴾ أي الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء[2] ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي هل لهم شيء من ملك السماوات والأرض؟ وهو إنكار وتوبيخ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء، وليدبّروا شئون الكون؟ وهو تهكم بهم واستهزاء. قال الزمخشري: تهكم بهم غاية التهكم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرف في قسمة الرحمة، وكانت عندهم من الحكمة ما يميزون بها بين من هو حقيقٌ بالنبوة من غيره، فليصعدوا في المعارج التي يتوصلون بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، وينزّلوا الوحي على من يختارون، وهو غاية التهكم بهم[3] ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ التنكير للتقليل والتحقير و﴿مَا﴾ لتأكيد القلة أي ما هم إلا جند من الكفار، المتحزبين على رسل الله، مهزومون عما قليل يُهزمون ويُولّون الأدبار، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث بما يهذون. ثم أخبر تعالى عما نال أسلافهم الكفار من العذاب والدمار فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أي كذّب قبل كفار قريش أمم كثيرون منهم قوم نوح، وقوم هود، وهم قبيلة «عاد» وفرعون الجبار ذو الملك الشديد بالأوتاد أي ذو الجموع الكثيرة، قال بعض المفسرين: سمي بذي الأوتاد لأنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت، وقيل: لأنه صاحب الأهرامات والمباني الضخمة الثابتة التي تضرب في الأرض كالأوتاد[4] ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي وكذبت ثمود وهم قوم صالح

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٥٣. (٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤٦.

(٣) تفسير الكشاف ٤/ ٥٧.

(٤) يظهر من تصحيحه أن المراد بالأوتاد المباني الضخمة الثابتة، ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة من ثبات الملك كقول الأسود: في ظل ملك ثابت الأوتاد.

وقوم لوط، وأصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي أولئك هم الكفار الذين تحزبوا على رسلهم فأهلكهم الله، فليحذر هؤلاء المكذبون لرسول الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل من هؤلاء الأحزاب والأمم إلا كذَّب رسوله الذي أُرسل إليه ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي فثبت ووجب عليهم عقابي، وحُذفت الياء مراعاةً لرؤوس الآيات ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي وما ينتظر هؤلاء المشركون كفار مكة إلا نفخة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي ليس لها من توقف ولا تكرار. قال ابن عباس: أي ما لها من رجوع[1]. قال المفسرون: أي أن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة وهي المسافة بين الحلبتين، لأنها تجيء في موعدها المحدد، الذي لا يتقدم ولا يتأخر. قال الزمخشري: يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد[2] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي وقال كفار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية: عجِّلْ لنا يا ربنا نصيبنا من العذاب الذي وعدته لنا، قبل أن يجيء يوم القيامة إن كان الأمر كما يقول محمد. قال المفسرون: وإنما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله ناصرك عليهم. قال الصاوي: وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار[3] ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي وتذكَّرْ عبدنا داود ذلك النبي الشاكر الصابر ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله، والأوَّابُ: الرجَّاع إلى الله. قال أبو حيان: لما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصًا للأنبياء داود، وسليمان، وأيوب، وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرّج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة فكذلك أنت تصبر ويئول أمرك إلى أحسن مآل[4] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيحُ الجبال حقيقةٌ وكان معجزة لداود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كلٌّ من الجبال والطير رجَّاع إلى طاعته تعالى بالتسبيح والتقديس. قال ابن كثير: كانت الطير تسبِّح بتسبيحه، وترجِّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبِّح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت تُرجِّع معه وتسبِّح تبعًا له. قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي مطيع[5] ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي أعطيناه النبوة والفهم

---

(١) قرطبي ٢٣/٨٤.
(٢) الكشاف ٤/٥٩.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣٥٣.
(٤) البحر المحيط ٧/٣٩٠.
(٥) مختصر ابن كثير (٣/١٩٩).

والإصابة في الأمور ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي الكلام البيِّن الذي يفهمه من يخاطب به(١) قال مجاهد: يعني إصابة القضاء وفهمه. وقال القرطبي: البيان الفاصل بين الحق والباطل(٢) قال المفسرون: كان مُلك داود قويًا عزيزًا وكان يسوسه بالحكمة والحزم معًا، يقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ هذا الاستفهام للتعجيب وتشويق السامع إلى ما يُلقى إليه كما تقول لجليسك: هل تعلم ما وقع اليوم؟ تريد تشويقه لسماع كلامك، والمعنى: هل أتاك يا محمد خبر الجماعة المتنازعين الذين تسوروا على داود مسجده في وقت اشتغاله بالعبادة والطاعة؟ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ أي حين دخلوا عليه من أعلى السور فخاف وارتعد منهم. قال المفسرون: وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا من غير الباب، في وقت كان قد خصصه للعبادة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لا تخف منا فنحن فوجان متخاصمان تعدّى بعضنا على بعض ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي فاحكم بيننا بالعدل، ولا تَجُرْ ولا تظلم في الحكم ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق يعني إلى الطريق الحق الواضح ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هذه بداية قصة الخصمين(٣) أي قال أحدهما: إن صاحبي

(١) هذا قول الزمخشري واختاره ابن عطية واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ واختار الطبري أنه الفصل في الكلام والحكم والمحاورة والخطب.

(٢) تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٢.

(٣) وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش حين نقلوا بعض الأقوال الواهية في تفاسيرهم اعتمادًا على ما جاء عند أهل الكتاب من غير تحقيق ولا تمحيص عما لم يصح منه ولا يجوز اعتماده؛ لأنه من القصص الإسرائيلية التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية في «عصمة الأنبياء» من هذه الأباطيل المدسوسة: ما روي من أمر عشقه لزوجة قائد جيشه وخلاصتها «أن داود كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده، ويسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك وحمَّله الراية وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مرارًا ليتخلص منه حتى قتل فتزوجها.. » إلى آخره ما هنالك من الكذب والبهتان. قال ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة، تركنا إيرادها في كتابنا قصدًا، اكتفاءً بمجرد تلاوة القصة من القرآن الكريم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقال البيضاوي: وما قيل: إنه أرسل أوريا مرارًا إلى الحرب، وأمره أن يتقدم حتى قُتل فتزوجها داود - فزور وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. والصحيح في موضوع هذه القصة: ما ذكره المحققون من أئمة التفسير وعلماء الأعلام، وبيان هذه القصة: أن داود عليه السلام كان يخصص بعض وقته لتصريف شئون الملك، وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور تسبيحًا لله في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحدٌ حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه، ففزع منهما وأسرع في نفسه أن يبطش بهما. فبادرا يطمئنانه أنهما خصمان اختلفا في أمر بينهما، وبدأ أحدهما يعرض خصومته - كما قصها القرآن الكريم في آيات البينات - . والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلمًا صارخًا مثيرًا لا يحتمل التأويل، ومن ثمَّ اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثًا، ولم يطلب إليه بيانًا، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ...﴾ إلى آخر الآيات

للزاد ليوم المعاد. قال أبو حيان: وجعْلُه تعالى داود خليفة في الأرض يدلُّ على مكانته عليه السلام واصطفائه له، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوة.

البلاغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- المجاز المرسل ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ القرن مائة عام والهلاك لأهله ففيه مجاز
٢- وضع الظاهر مكان الضمير ﴿وقال الكافرون﴾ بدل «وقالوا» لتسجيل جريمة الكفر عليهم.
٣- صيغة المبالغة في كلٍ من (كذّاب، العزيز، الوهاب، أوّاب)
٤- التنوين للتقليل والتحقير وزيادة «ما» لتأكيد القلة ﴿جندٌ ما هنالك﴾ .
٥- تأكيد الجملة الخبرية بإنّ واللام لزيادة التعجب والإنكار ﴿إنّ هذا لشيءٌ عجاب﴾ .
٦- الاستعارة المكنية ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ شبه المُلْك بخيمةٍ عظيمة ثُبّتت أطنابها بالأوتاد لتثبت وترسخ ولا تقتلعها الرياح، ففيه استعارة مكنية وذكرُ الأوتاد تخييل.
٧- الطباق ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ لأن المراد: المساء والصباح
٨- أسلوب التشويق ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ورد الأسلوب بطريق التشويق.
٩- أسلوب الإطناب ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ إلخ.
١٠- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل: ﴿إن هذا لشيء عجاب .. فليرتقوا في الأسباب .. جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ مما يزيد في روعة الكلام وجماله.

لطيفة: روى ابن كثير أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد: أخبرني أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله. قال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ثم توعده في كتابه فقال ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ..﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة.

[illegible]

قال الله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً .. إلى .. إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٤).

المناسبة: لما ذكر تعالى إنكار المشركين للقرآن والرسالة والحشر والنشر، وأعقبها بذكر قصة داود تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، ذكر هنا بعض البراهين على البعث والنشور، ثم بيّن الحكمة من نزول القرآن، ثم تابع الحديث عن قصة سليمان بن داود تتميماً وتكميلاً للهدف السامي من ذكر قصص القرآن.

اللغة: ﴿الألباب﴾ العقول واحدها لُبّ، ولبُّ الشيء: صفوته وخلاصته، ولذلك سمي العقل لُبّاً ﴿الصافنات﴾ الخيول الواقفة على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة، جمع صافن قال

تعالى المحسن مع المسيء، ولا البرَّ مع الفاجر، ففي الآية استدلال على الحشر والجزاء، وفيها أيضاً وعدٌ ووعيد. قال ابن كثير: يبيّن تعالى أنه ليس من عدله وحكمته أن يساوي بين المؤمنين والكافرين، وإذا كان الأمر كذلك فلابدَّ من دارٍ أخرى يُثاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر، وقد دلت العقول السليمة على أنه لابدَّ من جزاء ومعاد، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت دون عقاب، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابدَّ في حكمة الحكيم العليم من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعيَّن أن هناك داراً أُخرى لهذا الجزاء والمواساة وهي الدار الآخرة[1]. ثم بيَّن تعالى الغاية من نزول القرآن وهي التدبر والتفكر فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أي هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك يا محمد كتابٌ عظيم جليل، كثير الخيرات والمنافع الدينية والدنيوية ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أنزلناه ليتدبروا آياته ويتفكروا بما فيها من الأسرار العجيبة، والحكم الجليلة ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة. قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأتُ القرآن فما أسقطتُ منه حرفاً، وقد أسقطه والله كلَّه: ما يُرى للقرآن عليه أثرٌ في خُلُق ولا عمل[2]. اللهم اجعلنا ممن قرأه وتدبَّره وعمل بما فيه. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ شروعٌ في بيان قصة سليمان بن داود عليهما السلام أي رزقنا عبدنا داود الولد الصالح المسمَّى سليمان وأعطيناه النبوة. قال المفسرون: المراد بالهبة هنا هبة النبوة كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي في النبوة، وإلا فقد كان له أولاد كثيرون غيره ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبدُ سليمان فإنه كان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي اذكر حين عُرض على سليمان عشيةَ يومٍ من الأيام أي بعد العصر الخيل الواقفة على طرف الحافر، السريعة الجري. قال الرازي: وَصَفَ تلك الخيل بوصفين: الأول: الصفون وهو صفة دالة على فضيلة الفرس، والثاني: الجياد وهي الشديدة الجري والمراد وصفها بالفضيلة والكمال في حالتي الوقوف والحركة، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً في جريها[3] ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي آثرت حبَّ الخيل حتى شغلني عن ذكر الله. قال المفسرون: عُرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه، فأُجريت بين يديه عشياً فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكرٍ له خاص حتى غابت الشمس ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي قال سليمان: ردُّوا هذه الخيل عليَّ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقرباً إلى الله، لتكون طعاماً للفقراء؛ لأنها شغلته عن ذكر الله. قال الحسن: لما

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٣ (٢) تفسير الكشاف ٤/٧٠

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٦/٢٠٤.

رُدَّت عليه قال: لا والله لا تشغلني عن طاعة ربي! ثم أمر بها فعقرت وكذلك قال السدي (١). وأما قول من قال: إنها شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس فضعيف؛ لأنه لا يتصور من نبيٍّ أن يترك صلاة العصر من أجل انشغاله بالدنيا، والنصُّ صريح ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ هذه إشارة إلى ابتلاء آخر لسليمان ابتلي به، ثم تاب وأناب من تلك الهفوة والزلة، ولعلَّ هذه الفتنة ما روي في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة كلٌّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله - ولم يقل: إن شاء الله - فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون» (٢) قال ابن كثير: «وقد أورد بعض المفسرين آثارًا كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلُّها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة» (٣) واختار الإمام الفخر أن الفتنة المذكورة في الآية الكريمة يقصد بها فتنته في جسده، حيث إن سليمان ابتلي بمرض شديد نحل منه وضعف، حتى صار لشدة المرض كأنه جسد ملقى على كرسيه، قال: والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم، وجسم بلا روح، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى حالة الصحة (٤) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ أي اغفر لي ما صدر مني وأعطني ملكًا واسعًا لا يكون لأحدٍ غيري ليكون دلالة على نبوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ أي واسع الفضل كثير العطاء ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ أي فذللنا الريح لطاعته إجابةً لدعوته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي تسير بأمره لينةً طيبة حيث قصد وأراد ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين كذلك تعمل بأمره، فمنهم من يستخدمه لبناء الأبنية الهائلة العجيبة ومنهم من يغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي وآخرين من الشياطين -وهم المردة- موثوقون في الأغلال، مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي

---

(١) روي عن ابن عباس أنه قال: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبًا لها وتكريمًا، وهذا القول اختاره ابن جرير، والأظهر قول الحسن البصري والسدي أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها؛ لأنها شغلته عن الطاعة، ولهذا عوضه الله ما هو خير منها الريح التي هي أسرع من الخيل.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ولكن لم يذكر فيه أنه تفسير للآية فيحتمل أن يكون تفسيرًا ويحتمل غيره.

(٣) أشار ابن كثير إلى ما ذكره بعض المفسرين بالروايات الضعيفة، والحكايات الإسرائيلية المصطنعة حول فتنة سليمان التي أشار إليها القرآن الكريم بهذه الإشارة الخاطفة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ومن أغربها وأنكرها ما رواه ابن أبي حاتم أن سليمان عليه السلام أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة -زوجته- خاتمه، وكانت أحب نسائه إليه فجاءها الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأعطته سليمان، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين... إلخ وكل هذه الروايات من قبيل الخرافات والأباطيل ردها المحققون من العلماء كابن كثير، والفخر الرازي والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

(٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٦/٢٠٨ فقد أجاد فيه وأفاد، وكتابنا «النبوة والأنبياء».

تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي ابتليناه فوجدناه صابرًا على الضراء ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي نعم العبد أيوب إنه كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والعبادة ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء الأخيار وتأسَّ بهم، الذين جمعوا بين القوة في العبادة والبصيرة في الدين. قال الطبري: أي أهل القوة في عبادة الله، وأهل العقول والبصيرة(1) ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ أي خصصناهم بخصلة خالصة عظيمة الشأن: هي عدم التفاتهم إلى الدنيا وتذكرهم الدار الباقية. قال مجاهد: جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها(2) ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي وهم عندنا المختارون المجتبون على سائر الناس، لأنهم أخيار أبرار ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء الرسل أيضًا وكلٌّ من خيرة الله فاقتدِ بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من سيرة الرسل الكرام ذكرٌ جميلٌ لهم في الدنيا، وشرفٌ يذكرون به أبدًا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي وإن لكل متقٍ لله مطيع لرسله لحُسن مرجع ومنقلب، ثم فسّره بقوله ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ أي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم قد فُتحت لهم أبوابها انتظارًا لقدومهم. قال الرازي: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها وحيّوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعزّ حال، وأجمل هيئة(3) ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي متكئين في الجنة على الأرائك وهي السرر الوثيرة ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي وهم متكئون على الأسرة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملوك في الدنيا. قال ابن كثير: أي مهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخُدام(4). قال الصاوي: والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي؛ لأنه لا جوع في الجنة(5) ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أي وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن، أتراب أي في سنٍّ واحدة ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي هذا جزاؤكم الذي وُعدتم به في الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ أي هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع ولا انتهاء أبدًا. قال في الظلال: بدأ هنا المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع والأجزاء، وفي السمات والهيئات: منظر المتقين لهم «حسن مآب» ومنظر الطاغين لهم «شر مآب»، فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحةً لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب، ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب، وهنَّ مع شبابهن ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن، وكلهن شواب أتراب، وهو متاع دائم، ورزق من عند الله ما له من نفاد(6).

---

(1) تفسير الطبري ٢٣/١٠٩.
(2) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٦.
(3) التفسير الكبير ٢٦/٢٢٦.
(4) مختصر ابن كثير ٣/٢٠٧.
(5) حاشية الصاوي ٣/٣٦٩.
(6) في ظلال القرآن.

وتأخير أي هذا حميم وغساق فليذوقوه، والحميمُ: الذي أُغلي حتى انتهى حره، والغسّاق: ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي وعذابٌ آخر من مثل هذا العذاب المذكور كالزمهرير، والسموم، وأكل الزقوم لهم منه أنواع وأصناف ثم حكى ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار فقال: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم. هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، ودخلوها بصحبتكم كما اقتحموا معكم في الجهل والضلال، لا أهلاً ولا مرحبًا بهم ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي إنهم ذائقو النار، وداخلوها كما دخلتموها أنتم. قال الرازي: والاقتحامُ: ركوبُ الشدة والدخولُ فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعرب تقول لمن يدعون له: مرحبًا: أي أتيتَ رحبًا في البلاد لا ضيقًا، ثم يدخلون عليها كلمة «لا» في دعاء السوء ﴿قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ أي قال الأتباع للرؤساء الطغاة الذين أضلوهم: بل أنتم لا أهلاً بكم ولا مرحبًا قال المفسرون. عندما يدخل الأتباع جهنم تتلقاهم الرؤساء بقولهم: ﴿لا مرحبا بكم﴾ أي لا تلقون هنا رحبًا ولا خيرًا - وهذه تحية أهل النار - كما قال تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ فعند ذلك يقول لهم الداخلون: ﴿بل أنتم لا مرحبا بكم﴾ وهذا على حد قول القائل «تحيةُ بينهم ضربٌ وجيع» فكذلك أهل النار يتلقون بعضهم بالشتائم واللعنات بدل التحايا والسلام، ثم يعلل الأتباع ذلك بقولهم: ﴿أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا وكنتم السبب في ضلالنا، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار﴾ هذا أيضًا من كلام الأتباع دعوا الله أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾ والضِعفُ: زيادة المثل قال البيضاوي: وقال الأتباع أيضًا: ﴿ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا﴾ أي مضاعفًا، وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار﴾ أي وقال الطغاة من رؤساء الكفر وأئمة الضلال: ما لنا لا نرى في النار هؤلاء الذين كنا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار؟ يعنون بهم المؤمنين. قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد يقول أبو جهل: أين بلال، أين صهيب، أين عمار؟ أولئك في الفردوس! واعجبًا لأبي جهل! مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو. قال ابن كثير: هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون، يقول أبو جهل: ما لي لا أرى بلالاً وعمارًا وصهيبًا وفلانًا وفلانًا؟ وهذا ضربُ مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخلها الكفار افتقدوهم فلم يجدوهم. ثم قالوا: ﴿أتخذناهم

تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٢.

التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٢٤

التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦٨٨.

تفسير البيضاوي ٢/ ١٥١.

تفسير القرطبي ١٥/ ٢٢٤

مختصر ابن كثير ٣/ ٢٠٧

سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ ؟ أي يقولون لأنفسهم قائلين: أجعلنا هؤلاء المؤمنين في الدنيا هزءاً وسخرية؟ أم هم معنا في النار ولكن لا نراهم؟ قال البيضاوي: إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار من المؤمنين، كأنهم قالوا: ليسوا ههنا في النار؟ أم مالت عنهم أبصارنا فلا نراهم(1)؟ قال تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أقوال أهل النار وتخاصمهم - لهو الحق الذي لابد أن يتكلموا به، فنحن نحكي لك تخاصمهم في جهنم، وبعض أقوالهم وهم فيها. قال الرازي: وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً؛ لأن قول الرؤساء ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة(2) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ هذا شروع في بيان مهمة الرسول ﷺ وفي إثبات الوحدانية والبعث والمعاد والجزاء، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنما أنا رسول من رب العالمين، أنذركم وأخوفكم من عذابه إن لم تؤمنوا، ولست بساحر ولا شاعر ولا كاهن ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي ليس لكم رب ولا معبود إلا الواحد الأحد، الغالب على خلقه، القاهر لكل شيء ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي خالق جميع ما في الكون من المخلوقات والعجائب، والمتصرف فيها بالإيجاد والإعدام ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي الغالب على أمره الذي لا يُغلب، المبالغ في المغفرة لمن شاء من العباد. قال الرازي: لما ذكر أنه قهار، وهذا مشعر بالترهيب والتخويف، أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة، والفضل والكرم وهي: الرب، العزيز، الغفار، فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان، وكونه عزيزاً مشعر بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب بأنه يرجى فضله وثوابه، فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب فإن الله سبحانه يغفر له برحمته جميع ذنوبه، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصله إلى درجات الأبرار(3) ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه ولا تعلمون قدره ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي من علم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم لولا الوحي المنزل عليّ؟ قال ابن جزي: والقصد الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك، والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء في قصة آدم حين قال تعالى لهم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن(4) ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يوحى إليّ إلا لأني رسول مرسل إليكم لأنذركم عذاب الله، ومعنى النذير: المنذر المخوّف من عذاب الله. ثم شرع تعالى في ذكر قصة آدم فقال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أي اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين وهو آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي

---

(1) تفسير البيضاوي ٤/ ١٥١
(2) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢٤
(3) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٢٣
(4) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٨٩

فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه الروح فاسجدوا إكرامًا له وإعظامًا. قال القرطبي: وهذه سجود تحية لا سجود عبادة[1] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي فسجد جميع الملائكة خضوعًا له وامتثالًا لأمر الله بالسجود له ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لكن إبليس استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم فصار من الكافرين. قال ابن كثير: امتثل الملائكة كلهم سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسًا، كان من الجن[2]، فخانه طبعه وجبلته فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خيرٌ من آدم، فكفر بذلك وطرده الله عن باب رحمته، ومحل أُنسه، وحضرة قدسه ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾؟ أي قال له ربه: ما الذي صرفك وصدَّك عن السجود لمن خلقته بذاتي من غير واسطة أبٍ وأم؟ قال القرطبي: أضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا لآدم وإن كان خالق كل شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، فخاطب الناس بما يعرفونه ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾؟ أي استكبرت الآن عن السجود أم كنت قديمًا من المتكبرين على ربك؟ وهذا على جهة التوبيخ له لاستنكافه عن السجود ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي قال اللعين: أنا خير من آدم وأشرف وأفضل ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي لأنني مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار خيرٌ من الطين، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي اخرج من الجنة فإنك لعين مطرود من كل خير وكرامة ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وأنت مبعدٌ عن رحمتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ثم تلقى ما هو أفظع وأشنع من اللعنة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي أخِّرني وأمهلني إلى اليوم الذي تُبعث فيه الخلائق من القبور. قال أبو السعود: أراد بذلك أن يجد فسحةً لإغوائهم، ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت بالكلية، إذ لا موت بعد البعث فأجابه الله بأنه مؤخر إلى وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي طلبه[3] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي إنك من الممهلين إلى وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهلتك ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي قال اللعين: أُقسم بعزتك لأضلنَّ بني آدم أجمعين إلا الذين أخلصتهم لعبادتك وعصمتهم مني ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي قال تعالى: أُقسم بالحق ولا أقول إلا الحقَّ لأملأنَّ جهنم منك ومن أتباعك. قال السدي: هو قسم أقسم الله به[4]، وجملة ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضية لتأكيد القسم ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى ينتحلوا النبوة ويتقوّلوا

---

[1] تفسير القرطبي ١٥/٢٢٧.

[2] هذا هو الرأي الصحيح أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، وقد تقدم قول الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، وهذا هو الذي يطمئن إليه القلب وترتاح، وتدل عليه النصوص الكريمة كقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وانظر الأدلة في كتابنا النبوة والأنبياء ١/١٢٨.

[3] تفسير أبي السعود ٤/٢٩٨.

[4] مختصر ابن كثير ٣/٢٠٩.

بين يدي السورة

* سورة الزمر مكية، وقد تحدثت عن عقيدة التوحيد بالإسهاب، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة، لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح.

* ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن العظيم المعجزة الكبرى الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ﷺ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردت على ذلك بالدليل القاطع.

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين في بدائع الخلق للسموات والأرض، وفي ظاهرة الليل والنهار، وفي تسخيره للشموس والأقمار، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته.

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء، حيث يذوقون ألوان العذاب، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم.

* وذكرت السورة مثلاً يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تستجيب، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون، والعبد الذي يملكه سيد واحد، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الشركاء هشوا وبشوا.

* ثم جاءت الآيات ضربة ندية تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه قبل أن يدهمهم الموت بغتة، أو يفجأهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذ يتحسرون ويندمون في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

* وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر، حيث يساق السعداء الأبرار إلى الجنة زمراً، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمراً في مشهد هائل يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء والأبرار، والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع واستسلام.

التسمية: سميت «سورة الزمر» لأن الله تعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصغار.

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ... إلى ... وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠)

اللغة: ﴿زُلْفَى﴾ قربى، ومنه ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قرِّبت لهم ﴿يُكَوِّرُ﴾ التكوير: اللفُّ والليُّ يقال: كوَّر العمامة أي لفَّها ﴿خَوَّلَهُ﴾ أعطاه وملَّكه ﴿قَانِتٌ﴾ مطيع خاضع عابد ﴿أَندَادًا﴾ أوثانًا وأصنامًا ﴿ظُلَلٌ﴾ جمع ظُلَّة وهي ما يظل الإنسان من سقف ونحوه ﴿الطَّاغُوتَ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ، والمراد بالطاغوت كل ما عُبد من دون الله من وثن أو بشر أو حجر ﴿أَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة، والغرفة: المنزلة والمكانة السامية، ومنه ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ۝ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ۝ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۝﴾.

التفسير: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله جلَّ وعلا

﴿الْعَزِيزُ﴾ أي القادر الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتقدير وتدبير ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد القرآن العظيم متضمناً الحق الذي لا مرية فيه، والصدق الذي لا يشوبه باطل أو هزل ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي فاعبد الله وحده مخلصاً له في عبادتك، ولا تقصد بعملك ونسكك غير ربك ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس: إن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بصفات الألوهية، المطّلع على السرائر والضمائر، ومعنى ﴿الْخَالِصُ﴾ الصافي من شوائب الشرك والرياء ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي وهؤلاء المشركون الذين عبدوا من دونه الأوثان يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي ما نعبد هذه الآلهة والأصنام إلا ليقربونا إلى الله قربى ويشفعوا لنا عنده قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم من خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ ومن ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فإذا قيل لهم فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده(1) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين الخلائق يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، فيدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي لا يوفق للهدى، ولا يرشد لدين الحق من كان كاذباً على ربه، مبالغاً في كفره، وفي الآية إشارة إلى كذبهم في تلك الدعوى ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي لو فرض أن الله اتخذ ولداً على سبيل الفرض والتقدير ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لاختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني، إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بطريق التوالد المعروف، ولكنه لم يفعل ذلك لقوله ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وقوله ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ أي من المخلوقات التي أنشأها واخترعها ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد لأنه هو الإله الواحد الأحد، المنزه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله. قال في التسهيل: نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد، لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد، ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون شريكاً له؟(2)

ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته وعظمته فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، بالحق الواضح والبرهان الساطع ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي يغشي الليل على النهار، ويغشي النهار على الليل، وكأنه يلف عليه لف اللباس على اللابس قاله القرطبي. وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه، ويغشي النهار على الليل فيذهب ظلمته وهذا منقول عن قتادة، وهو معنى قوله

---

(1) حاشية الصاوي على الجلالين ٣٦٦/٣. (2) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٦/٣.

لَكُمْ﴾ أي وإن تشكروا ربكم يرضَ هذا الشكر منكم، لأجلكم ومنفعتكم، لا لانتفاعه بطاعتكم. قال أبو السعود: عدم رضاه بكفر عباده لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة بهم لا لتضرره تعالى بذلك، ورضاه بشكرهم لأجلهم ومنفعتهم لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين، ولهذا فرّق بين اللفظين فقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ وقال هنا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأن المراد بالأول تعميم الحكم، ثم تعليله بكونهم عباده[1] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى، بل كلٌّ يؤاخذ بذنبه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم مرجعكم ومصيركم إليه تعالى، ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكنُّه السرائر وتخفيه الضمائر. وفيه تهديدٌ وبشارة للمطيع ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرض وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة، مقبلاً إليه مخبتاً مطيعاً، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي ثم إذا أعطاه نعمة منه وفرّج عنه كربته، ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو ربه لكشفه وتمرّد وطغى، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي وجعل لله شركاء في العبادة ليصد عن دين الله وطاعته ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرٌ للتهديد أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية، وتلذذ فيها وأنت على كفرك، عمراً قليلاً وزمناً يسيراً، ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي فمصيرك إلى نار جهنم، وأنت من المخلدين فيها، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ استفهام حذف جوابه لدلالة الكلام عليه، أي أمن هو مطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً وقائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ قال القرطبي: بيّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى ذكره[2] ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة، راجياً رحمة ربه وهي الجنة، هل يستوي هذا المؤمن التقي مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله، ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ أي هل يستوي العالم والجاهل؟ فكما لا يستوي هذان كذلك لا يستوي المطيع والعاصي[3] ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة. قال الإمام الفخر: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام، وأما العلم ففي قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصورٌ في هذين المقصودين، فالعمل هو البداية، والعلم والمكاشفة هو النهاية، وفي الكلام حذفٌ تقديره: أمّن هو قانتٌ... كغيره؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه؛ لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثّل بالذين يعلمون. وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم[4] ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/٣٠٢.
(٢) تفسير القرطبي ١٥/٢٣٨.
(٣) انظر حاشية زاده على البيضاوي ٣/١٩٤.
(٤) التفسير الكبير ٢٦/٢٥٠.

لما ذكر خسرانهم في الدنيا ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة فقال ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم، وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم، لأنها محرقة، والظلة تقي من الحر ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد العظيم، إنما يقصه تعالى ليخوف به عباده، ليتزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي يا أوليائي خافوا عذابي ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي قال الزمخشري: وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة[1] والحكمة من ذكر أحوال النار تخويف المؤمنين منها ليتقوها بطاعة ربهم ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ لما ذكر وعيد عبدة الأوثان، ذكر وعد أهل الفضل والإحسان، ممن احترز عن الشرك والعصيان، ليكون الوعد مقرونًا بالوعيد، فيحصل كمال الترغيب والترهيب، والمعنى: والذين انتهوا عن عبادة الأوثان وطاعة الشيطان، وبعدوا عنها كل البعد قال أبو السعود «الطاغوت» البالغ أقصى غاية الطغيان كالرحموت والعظموت، والمراد به الشيطان وُصف به للمبالغة[2] ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي ورجعوا إلى طاعة الله وعبادته ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ أي لهم البشرى بالسعادة من الله تعالى بالفوز العظيم بجنات النعيم ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي فبشر عبادي المتقين الذين يستمعون الحديث والكلام فيتبعون أحسن ما فيه، قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به[3] وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، وتمييزهم الأحسن من الكلام، فإذا سمعوا قولاً تبصّروه وعملوا بما فيه، وأحسن الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ووضع الظاهر ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ بدل الضمير «فبشرهم» لتشريفهم وتكريمهم بالإضافة إليه سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين هداهم الله لما يرضاه، ووفقهم لنيل رضاه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي وأولئك هم أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله تعالى، وجوابه محذوف دلَّ عليه ما بعده أي هل تقدر على هدايته؟ لا، ثم قال تعالى ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؟ أي هل تستطيع يا محمد أن تنقذ من هو في الضلال والهلاك؟ قال القرطبي: كان النبي ﷺ يحرص على إيمان قومه وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت الآية، وقال ابن عباس: يريد «أبا لهب» وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبي ﷺ عن الإيمان، وكرر الاستفهام «أفأنت» تأكيدًا لطول الكلام والمعنى: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه[4]؟ ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي لكنِ المؤمنون الأبرار، المتقون لله في الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ أي لهم في الجنة درجات عالية

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٩٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٠٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٤.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤٤ وهذا القول الثاني ورجحه صاحب التسهيل.

وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجد وياقوت(1) ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ أي وعدهم الله بذلك وعدًا مؤكدًا لا يمكن أن يتخلف، لأنه وعد العزيز القدير.

تنبيه: قال الزمخشري: أفاد قوله تعالى ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أن المؤمنين ينبغي أن يكونوا نقّادًا في الدين، يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها دليلًا، وأبينها أمارة، وألا يكونوا في مذهبهم كما قال القائل «ولا تكن مثل عير قيد فانقاده»(2).

❐ ❐ ❐

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ .. إلى .. ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣١).

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال المشركين وضلالاتهم في عبادة غير الله، أردفه بذكر دلائل الوحدانية، ثم ذكر القرآن العظيم أشرف الكتب السماوية المنزّلة، ومع إقرارهم بفصاحته وإعجازه كذّب به المكذبون، ثم ضرب للمشرك والموحّد مثلًا في غاية الوضوح.

اللغة: ﴿فَسَلَكَهُ﴾ أدخله ﴿يَنَابِيعَ﴾ جمع ينبوع وهو عين الماء النابع من الأرض ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس، قال الأصمعي: هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى(3)، وقال الجوهري: هاج النبت هياجًا إذا يبس، وأرض هائجة إذا يبس بقلها أو اصفرّ(4) ﴿حُطَامًا﴾ فتاتًا وهشيمًا، من تحطّم العود إذا تفتّت من اليبس ﴿شَرَحَ﴾ فتح ووسّع ﴿الْقَاسِيَةِ﴾ قسا القلب: إذا صلب وكذلك عتا وعسا، وقلبٌ قاسٍ أي صلب لا يرقّ ولا يلين ﴿مَّثَانِيَ﴾ مكررًا فيه الحكم والمواعظ والأمثال ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك من الخوف ﴿الْخِزْيَ﴾ الذل والهوان ﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون، ورجلٌ شكس: شرس الخُلق والطبع.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

---

(1) هذا قول ابن عباس.
(2) تفسير الكشاف ٤/ ٩٣.
(3) القرطبي ١٥/ ٢٤٦.
(4) انظر الصحاح والقاموس المحيط.

رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تر أيها الإنسان، أن الله تعالى بقدرته أنزل المطر من السحاب ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أدخله مسالك وعيونًا في الأرض وأجراه فيها. قال المفسرون: وهذا دليلٌ على أن ماء العيون من المطر، تختزنه الأرض ثم ينبع شيئًا فشيئًا. قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكنْ عروقٌ في الأرض تغيّره[1] ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي ثم يخرج بهذا الماء النازل من السماء والنابع من الأرض أنواع الزروع، المختلفة الأشكال والألوان، من أحمر وأبيض وأصفر، والمختلفة الأصناف من قمح وأرز وعدس وغير ذلك. قال البيضاوي: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي أصنافه من بر وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما[2] ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس فتراه بعد خضرته مصفرًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أي ثم يصبح فتاتًا وهشيمًا متكسرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعظة وعبرة، ودلالة على قدرة الله ووحدانيته لذوي العقول المستنيرة. والآية فيها تمثيلُ الحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلابد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسرًا كالزرع بعد نضرته، ثم تكون عاقبته الموت. قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخًا هرمًا، كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[3] ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي وسّع صدره للإسلام، واستضاء قلبه بنوره حتى ثبت ورسخ فيه ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي فهو على بصيرة ويقين من أمر دينه، وعلى هدى من ربه بتنوير الحق في قلبه، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه سياق الكلام، تقديره: كمن هو أعمى القلب، معرضٌ عن الإسلام؟ قال الطبري: وتُرك الجوابُ اجتزاءً بمعرفة السامعين بدلالة ما بعده، وتقديره: كمن أقسى اللهُ قلبه وأخلاه من ذكره حتى ضاق عن استماع الحق، واتباع الهدى[4]؟ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي فويلٌ للذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع عند ذكر الله، والمراد بذكر الله القرآن الذي أنزله الله تذكرة لعباده ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين قست قلوبهم في بعدٍ عن الحق ظاهر. ولما بيّن تعالى ذلك أردفه بما يدل على أنَّ القرآن سبب لحصول النور والهداية والشفاء فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ أي الله نزّل القرآن العظيم أحسن الكلام. قال أبو حيان: والابتداء باسم «الله» وإسناد «نزّل» لضميره، فيه تفخيمٌ للمنزَّل، ورفعٌ من قدره، كما تقول: الملكُ أكرم فلانًا، فإنه أفخم من أكرم الملك فلانًا، وحكمة

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٤٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/١٩٤.

(٣) مختصر ابن كثير ٣/٢٤٧.

(٤) تفسير الطبري ٢٣/١٢٤.

ذلك لبلاغته بالأسلوب[1] ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي قرآناً متشابهاً يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والبلاغة والتناسب، بدون تعارض ولا تناقض ﴿مَثَانِيَ﴾ أي تُثنَّى وتكرر فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام، وتُردَّد فيه القصص والأخبار دون سأمٍ أو ملل. قال الطبري: تُثنى أي تكرر فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج[2] ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي تعتري هؤلاء المؤمنين خشيةٌ، وتأخذهم قشعريرة عند تلاوة آيات القرآن، هيبةً من الرحمن وإجلالاً لكلامه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تطمئن وتسكن قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله. قال المفسرون: إنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان تلين جلودهم وقلوبهم. وقال العارفون: إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإذا لاح لهم أثرٌ من عالم الجمال عاشوا[3] قال ابن كثير: هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار، إذا قرءوا آيات الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر جلودهم من الخشية والخوف، وإذا قرءوا آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه[4] ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك القرآن الذي تلك صفته هو هدى الله يهدي به من شاء من عباده ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسياً مظلماً، فليس له مرشدٌ ولا هادٍ بعد الله ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أفمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد، لكونه مصفوداً بقيوده، كمن هو آمنٌ من العذاب؟ قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء، فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وتقول خزنة جهنم للكافرين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من الكفر والمعاصي ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كذّب من قبلهم من الأمم السالفة فأتاهم العذاب من جهة لا تخطر ببالهم ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فأذاقهم الله الذلّ بالأسر والهوان في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي ولعذاب الآخرة الذي أُعدّ لهم أعظم وأكبر من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان عندهم علمٌ وفهمٌ لما كذّبوا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي ولقد بيّنا ووضّحنا للناس في هذا القرآن من كل الأمثال النافعة، والأخبار الواضحة ما يحتاجون إليه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يتعظون ويعتبرون بتلك الأمثال والزواجر ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي حال كونه قرآناً عربياً لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، ولا تعارض ولا تناقض ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الله ويجتنبوا محارمه، ثم ذكر تعالى مثلاً لمن يشرك بالله ولمن يوحّده فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ

---

(١) البحر المحيط ٤٢٦/٨.
(٢) الطبري ١٣٤/٢٣.
(٣) التفسير الكبير ٢٦١/٢٦.
(٤) مختصر ابن كثير ٢١٢/٣.

مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي ضرب الله لكم أيها الناس هذا المثل: رجلٌ من المماليك اشترك فيه ملاكٌ سيئو الأخلاق، بينهم اختلاف وتنازع، يتجاذبونه في حوائجهم، هذا يأمره بأمر وذاك يأمره بمخالفته، وهو متحير موزع القلب، لا يدري لمن يرضي؟ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ هذا من تتمة المثل أي ورجلاً آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبد مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا إحساناً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي هل يستوي هذا وهذا في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يستوي المؤمن الموحّد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى. قال ابن عباس: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص (1). وقال الرازي: وهذا مثلٌ ضُرب في غاية الحُسن في تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد (2). ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان المثل بيناً واضحاً في غاية الجلاء والوضوح ختم به الآية والمعنى: احمدوا الله على إقامة الحجة عليهم بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون الحق فيهم لفرط جهلهم يشركون بالله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي إنك يا محمد ستموت كما يموت هؤلاء، ولا يخلد أحد في هذه الدار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي ثم تجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما بينكم من المظالم وأمر الدنيا والدين فيفصل بينكم أحكم الحاكمين.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ...﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ من آية (٣٢) إلى نهاية آية (٥٢).

المناسبة: لما ذكر تعالى أن الخلق صائرون إلى الموت، وأن المؤمنين والكافرين سيختصمون عند ربهم في أمر التوحيد والشرك، وأنه تعالى يفصل بينهم، ذكر هنا جزاء كل من الفريقين، ثم أتبعه بذكر قبائح المشركين واعتقادهم بشفاعة الأوثان والأصنام.

اللغة: ﴿مَثْوًى﴾ مأوى ومقام، مشتقٌ من ثوى بالمكان إذا أقام به ﴿يُخْزِيهِ﴾ يهينه ويذله ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وانقبضت ﴿فَاطِرَ﴾ خالق ومبدع ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ يظنون ويؤملون، يقال: جاءه الأمر من حيث لا يحتسب أي من حيث لا يظن ﴿حَاقَ﴾ نزل وأحاط بهم من كل جانب ﴿خَوَّلْنَاهُ﴾ منحناه وأعطيناه تفضلاً وكرماً ﴿مُعْجِزِينَ﴾ فائتين من العذاب ﴿يَقْدِرُ﴾ يضيق ويقتّر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/٢١٩. (2) التفسير الكبير ٢٦/٢٧٧.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

التفسير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ﴾ أي وكذّب بالقرآن والشريعة وقت مجيئه من غير تدبر ولا تأمل؟ أي لا أحد أظلم ممن حاله ذلك، فإنه أظلم من كل ظالم ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾؟ أي أليس في جهنم مقام ومأوى لهؤلاء الكافرين المكذبين؟ والاستفهام هنا تقريري، أي بلى لهم مأوى ومكان ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي والذين جاءوا بالصدق وهم الأنبياء، والذين صدّقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فأولئك الموصوفون بالصفات الحميدة هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إسعاد وإكرام ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم كل ما يشتهون في الجنة من الحور والقصور والملاذ والنعيم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ذلك الذي يطلبونه هو ثواب كل محسن أحسن في هذه الحياة. قال بعض المفسرين: «الذي جاء بالصدق» هو محمد ﷺ «وصدّق به» هو أبو بكر رضي الله عنه[1] والاختيار أن يكون على العموم حتى تشترك في هذه الصفة كل الرسل الكرام، وكل من دعا إلى هذا الصدق عن عقيدة وإيمان من أتباع الرسل، ويدل عليه ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بصيغة الجمع، وهذا اختيار ابن عطية ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أي هؤلاء الذين صدّقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما أسلفوا من الأعمال السيئة ولا

(١) روي هذا عن علي وقتادة، والصحيح أن الآية على العموم في الرسل والمؤمنين.

يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي الله كافيني فلا ألتفت إلى غيره، وعليه وحده يعتمد المعتمدون، والغرض الاحتجاج على المشركين في عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وإقامة البرهان على الوحدانية ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اعملوا على طريقتكم من المكر والكيد والخداع ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي إني عاملٌ على طريقتي، من الدعوة إلى الله وإظهار دينه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي فسوف تعلمون لمن سيكون العذاب الذي يذل ويخزي الإنسان ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائمٌ لا ينقطع وهو عذاب النار، هل هذا العذاب سيصيبني أو يصيبكم؟ والغرض التهديد والتخويف. قال أبو السعود: وفي الآية مبالغة في الوعيد، وإشعارٌ بأن حاله عليه السلام لا تزال تزداد قوةً بنصر الله وتأييده، وفي خزي أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام، وقد عذبهم الله وأخزاهم يوم بدر[1] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي نحن أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، لجميع الخلق، بالحق الواضح الذي لا يلتبس به الباطل ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي فمن اهتدى فنفعه يعود عليه، ومن ضلَّ فضررُ ضلاله لا يعود إلا عليه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لست بموكَّلٍ عليهم حتى تجبرهم على الإيمان. قال الصاوي: وفي هذا تسلية له ﷺ، والمعنى: ليس هداهم بيدك حتى تقهرهم وتجبرهم عليه، وإنما هو بيدنا، فإن شئنا هديناهم وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال[2]. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي يقبضها من الأبدان عند فناء آجالها وهي الوفاة الكبرى. ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي الوفاة الصغرى. قال في التسهيل: هذه الآية للاعتبار، ومعناها: أن الله يتوفى النفوس على وجهين: أحدهما: وفاة كاملة حقيقية وهي الموت، والآخر: وفاة النوم؛ لأن النائم كالميت، في كونه لا يبصر ولا يسمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ وفي الآية عطف، والتقدير: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها[3] وقال ابن كثير: أخبر تعالى بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة -الملائكة- الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام[4]. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أي فيمسك الروح التي قضى على صاحبها الموت فلا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، هو أجل موتها الحقيقي. قال ابن عباس: إنَّ أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[5]. قال القرطبي: وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، لا يقدر على ذلك سواه[6] ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في هذه

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٠.
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٤.
(٣) التسهيل ٣/ ١٩٦.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢١٩.
(٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٠.
(٦) القرطبي ١٥/ ٢٦٣.

بالله حين ظلموا أنفسهم بتكذيب القرآن والرسول ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو ملكوا كل ما في الأرض من أموال، وملكوا مثل ذلك معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لجعلوا كل ما لديهم من أموال وذخائر، فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد يوم القيامة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ودهمهم من أنواع العقوبات ما لم يكن في حسابهم. قال أبو السعود: وهذه غايةٌ من الوعيد لا غاية وراءها، ونظيرها في الوعد ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(١). ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي وظهر لهم في ذلك اليوم المفزع سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وأحاط ونزل بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به. قال ابن كثير: أي أحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدنيا(٢). ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي فإذا أصاب هذا الإنسان الكافر شيء من الشدة والبلاء، تضرَّع إلى الله وأناب إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي ثم إذا أعطيناه نعمة منا تفضلاً عليه وكرماً، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي قال ذلك الإنسان الكافر الجاحد: إنما أُعطيته على علم مني بوجوه المكاسب والمتاجر، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل هي اختبارٌ وامتحانٌ له، لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار وابتلاء فلذلك يبطرون، ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قال تلك الكلمة والمقالة الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فما نفعهم ما جمعوه من الأموال، ولا ما كسبوه من الحطام، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي فنالهم جزاء أعمالهم السيئة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي والذين ظلموا من هؤلاء المشركين كفار قريش ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة كما أصاب أولئك. قال البيضاوي: وقد أصابهم ذلك فإنهم قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الجيف وقُتل ببدر صناديدهم(٣) ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي وليسوا بفائتين من عذابنا، لا يعجزوننا هرباً ولا يفوتوننا طلباً، ثم ردَّ عليهم زعمهم فيما أوتوا من المال وسعة الرزق فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؟ أي أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق على قوم، ويضيقه على آخرين؟ فليس أمر الرزق تابعاً لذكاء الإنسان أو عقله، إنما هو تابعٌ للقسمة والحكمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في الذي ذكر لعبرًا وحججًا لقوم يصدقون بآيات الله. قال القرطبي: وخصَّ المؤمن بالذكر، لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً، وأن تقتيره قد يكون إعظاماً(٤).

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١١.
(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٢.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦.
(٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٧.

في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي إنه تعالى يعفو عن جميع الذنوب لمن شاء، وإن كانت مثل زبد البحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله لقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ وقال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت[1] ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي ارجعوا إلى الله واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ من قبل حلول نقمته تعالى بكم ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا تجدون من ينقذكم من عذابه ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتزموا أحسن كتاب أنزل إليكم، فيه سعادتكم وفلاحكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أي لئلا تقول بعض النفوس التي أسرفت في العصيان: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي يا حسرتي وندامتي على تفريطي وتقصيري في طاعة الله وفي حقه. قال مجاهد: يا حسرتا على ما ضيعتُ من أمر الله[2] ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنني كنت من المستهزئين بشريعة الله ودينه. قال قتادة: لم يكفه أن ضيّع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ «أو» للتنويع أي يقول الكافر والفاجر هذا أو هذا، والمعنى: لو أن الله هداني لاهتديت إلى الحق، وأطعت الله، وكنت من عباده الصالحين. قال ابن كثير: يتحسر المجرم ويودُّ لو كان من المحسنين المخلصين، المطيعين لله عزَّ وجل[3] ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أو تقول تلك النفس الفاجرة حين مشاهدتها العذاب: لو أن لي رجعة إلى الدنيا لأعمل بطاعة الله، وأُحْسِنَ سيرتي وعملي ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ هو جواب قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ والمعنى: بلى قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل، وإنزاله الكتب ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي فكذبت بالآيات، وتكبرت عن الإيمان، وكنت من الجاحدين. قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا[4]، ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي ويوم القيامة ترى أيها المخاطب الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد وجوههم سوداء مظلمة بكذبهم وافترائهم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ استفهام تقريري أي أليس في جهنم مقام ومأوى للمستكبرين عن الإيمان، وعن طاعة الرحمن؟! بلى إنَّ لهم منزلاً

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٧.
(٢) القرطبي ١٥/ ٢٧١.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٢٧.
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٣٧٧.

وماٰلهم في دار الجحيم.

ولما ذكر حال الكاذبين على الله، ذكر حال المتقين لله فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي وينجي الله المتقين بسبب سعادتهم وفوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يصلهم هَمٌّ ولا حزن، ولا هم يحزنون في الآخرة، بل هم آمنون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ثم عاد إلى دلائل الألوهية والتوحيد، بعد أن أفاض في الوعد والوعيد فقال ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي الله جل وعلا خالق جميع الأشياء، موجد جميع المخلوقات، والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو القائم بتدبير كل شيء ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن كل الأشياء، لا يملك أمرها ولا يتصرف فيها غيره، قال ابن عباس: «مقاليد» مفاتيح، وقال السُّدي: خزائن السماوات والأرض بيده[1] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي والذين كفروا بآيات القرآن الظاهرة، والمعجزات الباهرة أولئك هم الخاسرون أشد الخسران ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾؟ أي قل يا محمد: أتأمرونني أن أعبد غير الله بعد سطوع الآيات والدلائل على وحدانيته يا أيها الجاهلون؟ قال ابن كثير: إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه آلهته فنزلت الآية[2] ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اللام موطئة للقسم، أي والله لقد أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي لئن أشركت يا محمد ليبطلنَّ وليفسدنَّ عملك الصالح ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشى له أن يشرك بالله، وهو الذي جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد. قال أبو السعود: والكلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل، وإقناط الكفرة، والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه[3] ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده، ولا تعبد أحداً سواه ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي وكن من الشاكرين لإنعام ربك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه. قال أبو حيان: أي ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، وما قدَّروه في أنفسهم حقَّ تقديره، إذ أشركوا معه غيره، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة[4].

ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه فقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الجملة حالية والمعنى: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة، التي هي غاية العظمة والجلال، فالأرضُ مع سعتها وبسطتها يوم القيامة تحت قبضته وسلطانه ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي والسماوات مطويات ومجموعات بقدرته تعالى. قال الزمخشري:

---

(١) القرطبي ١٥/٢٧٤. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٢٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/٢٤١. (٤) البحر المحيط ٧/٤٣٩.

وتنذرونه، أقمتم علينا الحجج والبراهين، ولكننا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقاوة. قال القرطبي: وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، والمراد بكلمة العذاب. قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١)، ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي قيل لهم: ادخلوا جهنم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات راكبين على النجائب. قال القرطبي: سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يُفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوقُ أهل الجنان: سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، كما يُفعل بالوافدين على الملوك، فشتان ما بين السوقين(٢) ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها كقوله تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا «وفُتحت» دون التي قبلها: أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها(٣) ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي وقال لهم حراس الجنة: سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾ أي طُهرتم من دنس المعاصي والذنوب، فادخلوا الجنة دار الخلود. قال البيضاوي: وجواب «إذا» محذوف للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف والبيان(٤). قال ابن كثير: وتقديره إذا كان هذا سُعدوا، وطابوا، وسُرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم(٥) ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة، قال المفسرون: والإشارة إلى وعده تعالى لهم بقوله ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي وملّكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه وننزل فيها حيث نشاء، لا ينازعنا فيها أحد ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي نعم أجر العاملين بطاعة الله الجنة. ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي وترى يا محمد الملائكة محيطين بعرش الرحمن، محدقين به من كل جانب ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحون الله ويمجدونه تلذذاً لا تعبداً، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي وقضي بين العباد بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وقيل: الحمد لله على عدله وقضائه. قال المفسرون: القائل هم المؤمنون والكافرون، المؤمنون يحمدون الله على فضله، والكافرون يحمدونه على عدله. قال ابن كثير: نطق الكون

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٢٨١.
(٢) تفسير القرطبي ١٥/٢٨٥.
(٣) حاشية الصاوي ٣/٣٨١.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/١٤٧.
(٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٣٢.

أجمعُه، ناطقةً ويحمدُه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يُسْنِد القولَ إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد [1].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «تكفروا» و«تشكروا» وبين «يرجو - ويحذر» وبين «فوقهم - وتحتهم» وبين «ضر - ورحمة» وبين «الغيب - والشهادة» وبين «يبسط - ويقدر» وبين «اهتدى - وضل» إلخ.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وكذلك في قوله: ﴿أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

٣ - الأسلوب التهكمي ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إطلاق الظلة عليها تهكم؛ لأنها محرقة، والظلة تقي من الحر.

٤ - المقابلة الرائعة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية فقد قابل بين الله والأصنام، وبين السرور والاشمئزاز، وكذلك توجد مقابلة بين آيتي السعداء والأشقياء ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ والمقابلةُ أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وهو من المحسنات البديعية.

٥ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾؟ حذف خبره وتقديره كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾؟ أي كمن هو كافر جاحد لربه؟

٦ - الأمر الذي يراد منه التهديد ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ ومثله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ للمبالغة في الوعيد.

٧ - المجاز المرسل ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾؟ أطلق المسبب وأراد السبب؛ لأن الضلال سبب لدخول النار.

٨ - الاستعارة ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتهما، فشبه الخيرات والبركات بخزائن واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح، ومعنى الآية: خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مثَّل لعظمته وكمال قدرته، وحقارة الأجرام العظام التي تتحير فيها الأوهام بالنسبة لقدرته تعالى بمن قبض شيئًا عظيمًا بكفه، وطوى السموات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية، قال في تلخيص البيان: وفي الآية استعارة، ومعنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه غيره، والسموات مجموعات في ملكه ومضمومات بقدرته. وقال الزمخشري: والآية لتصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة؛ لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى بابًا في

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٢٣

علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب.

١٠- الكناية ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ جنب الله كناية عن حق الله وطاعته، وهذا من لطيف الكنايات.

١١- الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ والأصل "لا تقنطوا من رحمتي" قال علماء البيان: وفي الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآية من أنواع المعاني والبيان أمور حسان منها إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة التشريف، ومنها: الالتفات من المتكلم إلى الغيبة ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ ومنها إضافة الرحمة للفظ الجلالة الجامع لجميع الأسماء والصفات، ومنها: الإتيان بالجملة المعرفة الطرفين المؤكدة بإن وضمير الفصل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

١٢- توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو نهاية في الروعة والجمال، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ الآيات ألا تحس بك روعة هذا البيان برونقه، وجماله، وأدائه، وينطق لسانك بذكر الرحمن؟!

تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر

***

بين يدي السورة

* سورة غافر مكية، وهي تُعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية، ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، مع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان.

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش، في دعائهم الخاشع المنيب.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، فإذا العباد واقفون للحساب، بارزون أمام الملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب، واليوم العصيب يلقى الإنسان جزاءه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد -بكبريائه وجبروته- أن يقضي على موسى وأتباعه، خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة، لم تُعرض في قصة موسى من قبل، ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يُخفي إيمانه، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية، الشاهدة بعظمة الله، الناطقة بوحدانيته وجلاله، الذي يشركون به ويكفرون بآياته، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة، والكافر يتخبط في الظلام.

* وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين، والطغاة المتجبرين، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون.

التسمية: سميت سورة غافر؛ لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل الذي هو من

المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[1] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، العليم في خلقه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي الذي يعفو عن ذنوب العباد، ويقبل توبة العصاة لمن تاب منهم وأناب ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ أي شديد العقاب لمن تكبر وطغى، وأعرض عن طاعة المولى ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي الفضل والإِنعام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولا ربَّ في الوجود سواه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق فيجازيهم بأعمالهم، وإنما قدَّم المغفرة والتوبة على العقاب، للإِشارة إلى سعة الفضل وأن رحمته سبقت عذابه، ثم لما ذكر أن القرآن هداية الله للعالمين، أعقبه بذكر المجادلين المعاندين فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن - بعد وضوح آياته وظهور إعجازه - إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي فلا تغترّ أيها العاقل بتنعمهم وتقلبهم في هذه الدنيا، بالعساكر والمزارع، والمصانع والتجارات، فإنهم أشقى الناس، وما هم عليه من النعيم متاعٌ قليل، وظلٌ زائل، فإني وإن أمهلتهم لا أهملهم، بل آخذهم بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر. قال في التسهيل: والآية تسليةٌ للنبي ﷺ ووعيدٌ شديد للكفار[2] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي كذَّب قبل كفار مكة أقوام كثيرون، منهم قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله كقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي وهمّت كل أمةٍ من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به. قال ابن كثير: أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[3] ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي جادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق الواضح الجلي ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي فأهلكتهم هلاكًا مريعًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ استفهام تعجيب أي فكيف كان عقابي لهم؟ ألم يكن شديدًا فظيعًا؟! ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي وكذلك وجبت كلمة العذاب على هؤلاء المكذبين من قومك، كما وجبت لمن سبقهم من الكفار ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم أهل النار. قال الطبري: أي كما حقَّ على الأمم التي كذبت رسلها وحلَّ بها عقابي، كذلك وجبت كلمة العذاب على الذين كفروا بالله من قومك؛ لأنهم أصحاب النار[4].. ثم ذكر تعالى حال الملائكة الأطهار، والمؤمنين الأبرار، بعد أن ذكر الكفار والفجار فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي هؤلاء العباد المقربون حملةُ العرش ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يُحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن

---

(1) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة، وهذه السورة واحدة من سبع سور كلها تبدأ بالحرفين (حم) وتسمى الحواميم أو آل حاميم.
(2) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٢).
(3) مختصر ابن كثير (٣/٢٢٥).
(4) تفسير الطبري (٢٤/٤٣).

القيامة، فهاتان موتتان وحياتان (١)، وإنما قالوا ذلك على سبيل التعطف والتوسل إلى رضى الله، بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون وينكرون؛ ولهذا جاء الجواب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله، فإذا دعيتم إلى التوحيد كفرتم ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ وإن دعيتم إلى اللات والعزى ونظائرهما من الأصنام، آمنتم وصدقتم بألوهيتها ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أي فالقضاء لله وحده لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلى نجاتكم؛ لأن الله هو المتعالي على خلقه، العظيم في ملكه الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير بمنزلة البرهان على عدم جواز عبادة الأوثان، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي الله جل وعلا هو الذي يريكم أيها الناس العلامات الدالة على قدرته الباهرة في مخلوقاته، في العالم العلوي والسفلي الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي وينزل لكم من السماء المطر الذي هو سبب للرزق، وبه تخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي وما يعتبر وينتفع بهذه الآيات الباهرة إلا من يرجع إلى الله بالتوبة والإنابة، والعمل الصالح البعيد عن الرياء والنفاق، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون مخلصين له العبادة والطاعة ولا تعبدوا معه غيره، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا تقدير الغاية أي اعبدوه وأخلصوا له قلوبكم، حتى ولو كره الكافرون ذلك، وغاظهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، ولا شيء يشبهه من مخلوقات الله. قال ابن كثير: أخبر تعالى عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، وقد ذكر أن العرش من ياقوتة حمراء، ولا يعلم سعته إلا الله (٢). وقال أبو السعود: وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضة قدرته - مما يقضي بكون علو شأنه وعظم سلطانه، في غاية لا غاية وراءها (٣). ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من يشاء من خلقه ويختص بالرسالة والنبوة من أراد من عباده، وإنما سُمّي الوحي روحًا؛ لأنه يسري في القلوب كسريان الروح في الجسد. قال القرطبي: سماه روحًا لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح (٤) ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي ليخوف الرسول الموحى إليه يوم القيامة الكبرى، حيث يلتقي العباد جميعًا ليحاسبوا على

---

(١) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة، قالوا: وهذه مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾ الآية.

(٢) مختصر ابن كثير (٣/٢٢٨). (٣) تفسير أبي السعود (٥/٥)

(٤) تفسير القرطبي (١٥/٢٩٩).

بِشَيْءٍ﴾ أي لا حكم لهم أصلاً فكيف يكونون شركاء لله؟ قال أبو السعود: وهذا تهكم بهم، لأن الجماد لا يقال في حقه: يقضي أو لا يقضي[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ أي أولم يسر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أشد قوة من هؤلاء الكفار من قومك ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي وأقوى آثاراً في الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسُلَ الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله، ولا يقيهم من عقابه.. ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الواضحات ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمرهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ أي إنه تعالى قوي لا يقهر، ذو قوة عظيمة وبأس شديد ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي عقابه شديد لمن عصاه، وعذابه أليم وجيع، أعاذنا الله من غضبه وأجارنا من عذابه.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ... إلى... أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ من الآية (٢٣) إلى الآية (٤٦).

المناسبة: لما ذكر تعالى ما حل بالكفار من العذاب والدمار، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون، تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب، وبيانًا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه، وهي مواقف بطولية مشرفة في وجه الطغيان.

اللغة: ﴿اسْتَحْيُوا﴾ استبقوهم على قيد الحياة ﴿ضَلَالٍ﴾ ضياع وبطلان ﴿عُذْتُ﴾ اعتصمت وتحصنت والتجأت ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين مستعلين ﴿بَأْسِ اللَّهِ﴾ عذابه وانتقامه ﴿دَأْبِ﴾ عادة وشأن ﴿التَّنَادِ﴾ يوم القيامة للنداء فيه بين المحشر، أو لمناداة الناس بعضهم بعضًا، قال أمية بن أبي الصلت:

وبثَّ الخلق فيها إذ دحاها ... فهم سكانها حتى التنادِ[2]

﴿عَاصِمٍ﴾ مانع ودافع ﴿صَرْحًا﴾ قصرًا وبناءً عظيمًا عاليًا ﴿تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا ولا محالة، وأصله: ثبت وحق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا

(1) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤).
(2) القرطبي (١٥/ ٣١٠).

كيد الكافرين إلا في ضلال ﴿٢٥﴾ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴿٢٦﴾ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴿٢٧﴾ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴿٢٨﴾ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴿٢٩﴾ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴿٣٠﴾ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ﴿٣١﴾ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴿٣٢﴾ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴿٣٣﴾ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴿٣٤﴾ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴿٣٥﴾ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ﴿٣٦﴾ أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴿٣٧﴾ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴿٣٨﴾ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴿٣٩﴾ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴿٤٠﴾ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴿٤١﴾ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴿٤٢﴾ لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴿٤٣﴾ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴿٤٤﴾ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿٤٥﴾ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، وبالبرهان البين القاهر، وهو معجزة اليد والعصا ﴿إلى فرعون وهامان وقارون﴾ أي إلى فرعون الطاغية الجبار، ووزيره هامان، وقارون صاحب الكنوز والأموال. قال في البحر: وخص قارون وهامان بالذكر لمكانتهما في الكفر، ولأنهما أشهر أتباع فرعون(١). ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾ أي فقالوا عن موسى: إنه ساحر فيما أظهر من المعجزات، كذاب فيما ادعاه أنه من عند الله، وصيغة «كذاب» للمبالغة ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ أي فلما جاءهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقه، والتي أيده الله بها

---

(١) البحر المحيط ٧/٤٥٩.

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي اقتلوا الذكور منهم واستبقوا الإناث للخدمة. قال الصاوي: وهذا القتل غير الأول، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد، فلما بُعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل في الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى وجعل كيدهم في نحورهم(1) ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي وما تدبيرهم ومكرهم إلا في خسران وهلاك، لأن الله لا يُنجح سعيهم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي وليناد به حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه. قال أبو حيان: والظاهر أن فرعون -لعنه الله- كان قد استيقن أنه نبي، وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتّالاً سفّاكاً للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجل بالهلاك، وكان كلامه تمويهاً على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفزع(2) ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي إني أخشى أن يغيّر ما أنتم عليه من عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أي أو أن ينشر الفتن والقلاقل في بلادكم، ويكثر بسببه الهرج. وهذا كما قال المثل "صار فرعون واعظاً"(3) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي إني استجرت بالله واعتصمت به ليحفظني ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخرة. قال في التسهيل: وإنما قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لفرعون بذلك الوصف القبيح(4) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قال المفسرون: كان هذا الرجل ابن عم فرعون، وكان قبطياً يخفي إيمانه عن فرعون فلما سمع قول الجبار وعزمه على القتل نصحهم بقوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ استفهام إنكاري للتبكيت عليهم، أي أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا لأجل أن قال: ربي الله من غير تفكر ولا تأمل في أمره؟ ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي والحال أنه قد أتاكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها من عند ربكم ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي إن كان

---

(1) حاشية الصاوي (٤/٦) (2) البحر المحيط (٧/٤٥٩)

(3) قال في الظلال: (هل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال عن موسى تلك القالة؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الشبهات في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين.

(4) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٥)

كاذبًا في دعوى الرسالة فضررُ كذبه لا يتعداه. قال القرطبي: ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تلطفًا في الاستكفاف، واستنزالًا عن الأذى [١]. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي وإن كان صادقًا في دعواه أصابكم بعضُ ما وعدكم به من العذاب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لا يوفق للهداية والإيمان من هو مسرف في الضلال، مبالغ في الكذب على الله. قال الإمام الفخر: وفي هذا إشارة إلى رفع شأن موسى؛ لأن الله هداه وأيده بالمعجزات، وتعريض بفرعون في أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يبطله ويهدم أمره [٢]. وقال في البحر: هذا نوع من أنواع علم البيان يسميه علماؤنا استدراج المخاطب، وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى، والقوم على تكذيبه، أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال: رجلًا ليوهمهم أنه لا يعرفه، ثم قال: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: رجلًا مؤمنًا بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلاه بقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل: هو صادق وكذلك قال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ولم يقل: كل ما يعدكم، ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له، وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وفيه تعريض بفرعون؛ إذ هو في غاية الإسراف والكذب على الله، إذ ادعى الألوهية والربوبية [٣]. ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ كرر النصح مع التلطف واللين. أنتم غالبون عالون على بني إسرائيل في أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أي فمن يمنعنا من عذاب الله وينجينا منه إن قتلتم رسوله؟ قال الرازي: وإنما قال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَاءَنَا﴾، لأنه كان يظهر لهم أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه [٤]. وهنا أخذت فرعونَ العزةُ بالإثم، وسيطر عليه الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم برأي سوى ما ذكرته من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصواب والصلاح ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي أخشى عليكم مثل أيام العذاب التي عذب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا تفسير للأحزاب أي مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي لا يعاقب العباد بدون ذنب. قال

---

(١) تفسير القرطبي (٣٠٧/١٥).
(٢) التفسير الكبير للرازي (٥٩/٢٧).
(٣) البحر المحيط (٤٦١/٧).
(٤) التفسير الكبير للرازي (٥٩/٢٧).

الزمخشري: أي إن تدميرهم كان عدلاً وقسطًا؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وفيه مبالغة حيث جعل المنفي إرادة الظلم، ومن كان بعيدًا عن إرادة الظلم، كان عن الظلم أبعد[1]. ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا، والمعنى: إني أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب يوم المحشر الأكبر، حيث ينادي المجرمون بالويل والثبور ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ أي تولون منهزمين من هول عذاب جهنم. قال المفسرون: إن الكفار إذا سمعوا زفير النار أدبروا هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم يضربون وجوههم، فيرجعون إلى مكانهم تتلقفهم جهنم ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له من يهديه إلى طريق النجاة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي ووالله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الظاهرات ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي فلم تزالوا شاكّين في رسالته كافرين بما جاء به من عند الله. قال المفسرون: المراد آباؤكم وأصولكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أي حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان: لن يأتي أحد يدعي الرسالة بعد يوسف. قال أبو حيان: وليس هذا تصديقًا لرسالة يوسف، كيف وما زالوا في شك منه، وإنما المعنى لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق، ففيه نفي الرسول ونفي بعثته[2] ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع يضل الله كل مسرف في العصيان، شاك في الدين، مع وضوح الحجج والبراهين ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن والمعنى: الذين يجادلون في شريعة الله بغير حجة وبرهان جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي عظم بغضًا عند الله وعند المؤمنين جدالهم بغير برهان. قال في البحر: عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب؛ لحسن محاورته لهم، واستجلاب قلوبهم؛ لئلا يفجأهم بالخطاب، وفي قوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر[3]. ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ أي كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين كذلك يختم بالضلال على قلب كل متكبر عن الإيمان، متجبر على العباد، حتى لا يعقل الرشاد، ولا يقبل الحق، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما، وهو سلطان الأعضاء، فمتى فسد فسد البدن ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ أي قال فرعون لوزيره هامان: ابن لي قصرًا عاليًا، وبناء شامخًا منيفًا. قال القرطبي: لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن تتمكن كلامه في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح[4] ﴿لَّعَلِّيٓ

(١) تفسير الكشاف (٤/١٦٨).
(٢) البحر المحيط (٧/٤٦٤).
(٣) نفس المرجع السابق (٧/٤٦٥).
(٤) القرطبي (١٥/٣١٤).

أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي لعلي أصل وأنتهي إلى طرق السموات وما يؤدي إليها وكررها للتفخيم والبيان[1]. ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي فأنظر إلى إله موسى نظر عيان ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي وإني لأعتقد موسى كاذبًا في ادعائه أن له إلهًا غيري. قال أبو حيان: وبلوغ أسباب السموات غير ممكن، لكن فرعون أبرزه في صورة الممكن تمويهًا على سامعيه، ولما قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كان ذلك إقرارًا بالإله، فلذلك استدرك هذا الإقرار بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي ومثل ذلك التزيين زين لفرعون عمله السيِّئ حتى رآه حسنًا ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي ومُنع بضلاله عن طريق الهدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي وما تدبير فرعون ومكره إلا في خسار وهلاك، خسر ملكه في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالخلود في النار ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ كرر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون، ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة، وشوّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذرهم من عذاب الله، ومعنى الآية: امتثلوا يا قوم أمري واسلكوا طريقي أرشدكم إلى طريق الفوز والنجاة -طريق الجنة- ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي ليست الدنيا إلا متاعًا زائلًا، لا ثبات له ولا دوام ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي وإن الدار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود، التي لا زوال لها ولا انتقال منها، فإما خلود في النعيم، أو خلود في الجحيم. قال القرطبي. ومراده بالدار الآخرة: الجنة والنار لأنهما لا يفنيان[3] ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من عمل في هذه الدنيا سيئة فلا يعاقب في الآخرة إلا بمقدارها دون زيادة؛ رحمة منه تعالى بالعباد ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي ومن فعل في الدنيا العمل الصالح، سواء كان ذكرًا أو أنثى بشرط الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي فأولئك المحسنون يدخلون جنات النعيم، ويعطون جزاءهم بغير تقدير، بل أضعافًا مضاعفة فضلًا من الله وكرمًا، فقد اقتضى فضله تعالى أن تضاعف الحسنات دون السيئات. قال ابن كثير: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله ثوابًا كثيرًا مطلقًا، لا انقضاء له ولا نفاد[4]. ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾؟ أي ما لي أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعونني إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعونني إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي تدعونني للكفر بالله، وأن

---

(١) قال صاحب الكشاف: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيمًا لشأنه، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها. اهـ الكشاف (٤/١٦٦).

(٢) البحر المحيط (٧/٤٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٥/٣١٧).

(٤) مختصر ابن كثير (٣/٢٤٥).

أعبد ما ليس لي علم بربوبيته، وما ليس بإله كفرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذي لا يُغلب، الغفار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي حقًا إنَّ ما تدعونني لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا يصلح أن يعبد؛ لأنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازي كلاًّ بعمله ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي وأن المسرفين في الضلال والطغيان مخلدون في النار ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، وهو تهديد ووعيد ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي أتوكل على الله وأسلم أمري إليه. قال القرطبي: وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله[1]. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي مطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي فنجاه الله من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسره بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي إنهم يحرقون بها صباحًا ومساء. قال المفسرون: المراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ... إلى ... وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من آية (٤٧) إلى نهاية آية (٦٦).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى ما حل بآل فرعون من العذاب والدمار ذكر بعده التخاصم والخصام الذي بين أهل النار، واستغاثة المجرمين، وهم في عذاب الجحيم يصطلون سعيرها فلا يجابون، ثم ذكر الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، لإقامة الحجة على المشركين.

اللغَة: ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾ يختصمون الخزنة جمع خازن وهو المتكفل بحفظ الشيء وحراسته ﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد وهو الذي يشهد بالحجة على غيره ﴿دَاخِرِينَ﴾ أذلاء صاغرين ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الإيمان إلى الكفر ﴿قَرَارًا﴾ مستقرًا ﴿أُسْلِمَ﴾ أذل وأخضع.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي

(١) القرطبي (١٥/٣١٨).

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

التفسير: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أي واذكر حين يختصم الرؤساء والأتباع في نار جهنم ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي فيقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإِيمان واتباع الرسل: إنا كنا لكم في الدنيا أتباعاً كالخدم ننقاد لأوامركم، ونتبعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾؟ أي فهل أنتم دافعون عنا جزءاً من هذا العذاب الذي نحن فيه؟ قال الرازي: علموا أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل الرؤساء، وإيلام قلوبهم، لأنهم سعوا في إيقاعهم في أنواع الضلالات(1) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي قال الرؤساء مجيبين لهم: إنا جميعاً في نار جهنم، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً مبرماً لا مرد له، بدخول المؤمنين الجنة، والكافرين النار، فلا نستطيع أن نفعل لكم شيئاً. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ حين يئس أهل النار بعضهم من بعض لجأوا إلى حراس جهنم يطلبون منهم التخفيف. قال البيضاوي: وإنما وضع جهنم موضع الضمير ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من لخزنتها للتهويل والتعظيم(2). ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أي ادعوا لنا الله أن يخفف عنا ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ أي أجابهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتقريع: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات

---

(1) التفسير الكبير ٢٧/٧١. (2) تفسير البيضاوي ٣/١٥٤

علمكم ثم بهم وكذبتموهم؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي قال الكفار: بلى جاءونا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي قال لهم الملائكة: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك. قال الرازي: وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملائكة المقربين إذا لم يسمع دعاؤهم، فكيف يسمع دعاء الكفار(١)؟ ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي، لأن دعاء الكافرين ضائع، وفي خسار وتبار ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي وفي الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد، من ملك ونبي ومؤمن. قال الرازي: الآية وعد من الله تعالى لرسوله بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة(٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي لا ينفع المجرمين اعتذارهم. قال ابن جرير: لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل(٣) ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم جهنم أسوأ مرجع ومصير. قال ابن عباس: ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء العاقبة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى بن عمران ما يهتدي به في الدين، من المعجزات والصحف والشرائع(٤) ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي أورثناهم العلم النافع والكتاب الهادي وهو التوراة. ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي هاديًا وتذكرة لأصحاب العقول السليمة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين، فإن وعد الله لك ولأتباعك بالنصر على الأعداء حق لا يمكن أن يتخلف، لأن الله لا يخلف الميعاد. قال الإمام الفخر: لما بيّن تعالى أنه ينصر رسله، وضرب المثال في ذلك بحال موسى، خاطب بعده رسوله بقوله ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ والمراد أن الله ناصرك كما نصرهم، ومنجز وعده لك كما أنجزه في حقهم(٥) ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي واطلب المغفرة من ربك على ما فرط منك من ترك الأولى والأفضل. قال الصاوي: والمقصود من هذا الأمر تعليم الأمة دعاء، وإلا فرسول الله ﷺ معصوم من الذنوب جميعًا، صغائر وكبائر، قبل النبوة وبعدها على التحقيق(٦) وقال ابن كثير: وهذا تهييج للأمة على الاستغفار(٧) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي ودُم على تسبيح ربك في المساء والصباح. قال الرازي: والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه، حتى يصير في زمرة الملائكة الأبرار الذين ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ والمراد بالتسبيح: تنزيه الله عن كل ما لا يليق به(٨) ثم نبه تعالى إلى السبب

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٧١ — (٢) التفسير الكبير ٢٧/٧٤

(٣) تفسير الطبري ٢٤/٤٩ — (٤) تفسير أبي السعود ٥/١٢٢

(٥) التفسير الكبير ٢٧/٧٧ — (٦) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٦

(٧) مختصر ابن كثير ٣/٢٤٨ — (٨) التفسير الكبير ٢٧/٧٨

الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في الآيات المنزلة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ أي ما هم بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله، ولا بمؤملين مقصودهم بالعلو عليك، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي فالتجئ وتحصن بالله من كيدهم، فإن الله يكفيك شرهم، لأنه هو السميع لأقوالهم العليم بأحوالهم. ثم ذكر تعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته فقال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ اللام لام الابتداء أي لخلق الله السموات والأرض وإنشاؤهما وابتداعهما من غير شيء أعظم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كيف يعجز عن خلق ما هو أصغر وأهون؟، قال في التسهيل: ومعرض الاستدلال على البعث: لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرهما، قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها[1] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك؛ لأنهم لا يتأملون لغلبة الجهل عليهم، وفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي لا يتساوى المؤمن والكافر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي ولا البر والفاجر ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لا تتعظون بهذه الأمثال إلا قليلاً. قال ابن كثير: والمراد أنه كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس؟[2] ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي إن القيامة آتية لا محالة، لا شك في ذلك ولا مرية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء قال الرازي: والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة[3]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي ادعوني أجبكم فيما طلبتم، وأعطكم ما سألتم. قال ابن كثير: ندب تعالى عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة فضلاً منه وكرماً[4] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي إن الذين يتكبرون عن دعاء الله سيدخلون جهنم أذلاء صاغرين. ثم ذكر تعالى من آثار قدرته ووحدانيته، ما يلزم منه إفراده بالعبادة والشكر، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي الله -جل وعلا- بقدرته وحكمته هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتستريحوا فيه من تعب وعناء العمل بالنهار، وجعل النهار مضيئاً لتبصروا فيه بأسباب الرزق وطلب المعاش ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنه تعالى متفضل على العباد، وهو صاحب الجود والإحسان إليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٨). (٢) مختصر ابن كثير (٣/٢٤٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٧/٨٠).

(٤) ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالدعاء: العبادة، قال القرطبي: والمعنى: وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم ... إلخ وما قدمناه هو اختيار ابن كثير وهو الأظهر، وكذلك قال الشهاب ورجحه الرازي.

قال الله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم ... إلى ... وخسر هنالك الكافرون﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٨٥) نهاية السورة.

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية، فبعد أن ذكر تعالى دلائل القدرة في الآفاق أردفها بدلائل القدرة في الأنفس، ثم تحدث عن أحوال المشركين يوم القيامة، وختم السورة الكريمة بالوعيد والتهديد لأهل الكفر والضلال.

اللغة: ﴿الأغلال﴾ القيود جمع غُل، وهو قيد يجمع اليد إلى العنق ﴿الحميم﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة ﴿يسجرون﴾ توقد بهم النار يقال: سجر التنور أوقده ﴿تمرحون﴾ تبطرون وتأشرون ﴿مثوى﴾ مأوى ومكان إقامة، من ثوى بالمكان: إذا أقام فيه ﴿حاق﴾ أحاط.

﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴿٦٧﴾ هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴿٦٨﴾ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴿٦٩﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴿٧٠﴾ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴿٧١﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿٧٢﴾ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ﴿٧٣﴾ من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين ﴿٧٤﴾ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴿٧٥﴾ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿٧٦﴾ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴿٧٧﴾ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴿٧٨﴾ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴿٧٩﴾ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴿٨٠﴾ ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ﴿٨١﴾ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٨٢﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٨٣﴾ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴿٨٤﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾.

التفسير: ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾ هذا بيان للأطوار التي مر بها خلق الإنسان أي هو جلّ وعلا بقدرته الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة وهي المني، ثم من علقة وهي الدم الغليظ، إلى آخر تلك الأطوار ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي ثم بعد أن ينفصل الجنين من بطن الأم يكون طفلاً ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل، وهو سن الأربعين ﴿ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي ثم لتصيروا في سن الهرم والشيخوخة. قال الإمام الفخر: رتب تعالى عمر الإنسان على

ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النمو والنشوء وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع ويأخذ في الضعف والنقص، وهذه مرتبة الشيخوخة"[1] ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي ومنكم من يتوفى قبل أن يخرج إلى العالم وهو السقط وقال مجاهد: من قبل سن الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ولتصلوا إلى الزمان الذي حدده لكل شخص وهو الموت ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ولكي تعقلوا دلائل قدرته تعالى وتؤمنوا بأنه الواحد الأحد ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو القادر جل وعلا على الإحياء والإماتة ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فإذا أراد أمرًا من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء، وإنما يوجد فورًا دون تأخير. قال أبو السعود: وهذا تمثيل لكمال قدرته، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك أمر ومأمور[2]. ثم عاد إلى ذم المجادلين في آيات الله بالباطل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجب، أي ألا ترى أيها السامع وتعجب من حال هؤلاء المكذبين الذين يجادلون في آيات الله الواضحة، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ ثم بينهم بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي الذين كذبوا بالقرآن، وبسائر الكتب والشرائع السماوية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أي حين يدخلون النار، وتربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ﴿يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحار المسخن بنار جهنم، ثم يوقدون ويحرقون فيها. قال ابن كثير: ومعنى الآية أن السلاسل متصلة بالأغلال وهي بأيدي الزبانية، يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[3] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ثم قيل لهم تبكيتًا: أين هم الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي فيقولون: غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي بل لم نكن نعبد شيئًا. قال المفسرون: جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله كل كافر ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ذلكم العذاب بما كنتم تظهرونه في الدنيا من السرور بالمعصية، وكثرة المال، والإنفاق في المحرمات ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم. قال الصاوي: وهذا وإن كان واردًا في الكفار، إلا أنه يجر بذيله على كل من توسع في معاصي الله، فله من هذا الوعيد نصيب"[4] ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ادخلوا من أبواب جهنم

---

(1) التفسير الكبير للرازي (٢٧/ ٨٥).
(2) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤).
(3) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٥١).
(4) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ١١).

السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها أبداً ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم مقراً ومسكناً للمتكبرين عن آيات الله المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد، وإنما قال ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ولم يقل: فبئس مدخل المتكبرين، وهو مقتضى النظم - لأن الدخول لا يدوم وإنما يدوم الثوي ولذا خصه بالذم ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن وعد الله بتعذيبهم كائن لا محالة. قال الصاوي: هذا تسلية من الله لنبيه ﷺ ووعد حسن بنصره له على أعدائه(1) ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي فإن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب، وجواب الشرط محذوف تقديره: فذلك هو المطلوب، أو تقر به عينك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي أو توفيناك يا محمد قبل إنزال العذاب عليهم، فإلينا مرجعهم يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ثم أخبره تعالى بأنباء الرسل تسلية له عليه السلام فقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ولقد بعثنا يا محمد رسلاً كثيرين قبلك، وأيدناهم بالمعجزات الباهرة فجحد بهم قومهم وكذبوهم فتأسَّ بهم في الصبر على ما يلاقيك. قال القرطبي: عزّاه تعالى بما لقيت الرسل من قبله(2) ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الرسل من أخبرناك عن قصصهم مع قومهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأخبارهم ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما صح ولا استقام لرسول من الرسل أن يأتي قومه بشيء من المعجزات إلا بأمر الله، وهذا رد على قريش حيث قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك من مقترحاتهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ أي فإذا جاء الوقت المسمى لعذابهم لحكم الله ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي خسر في ذلك الحين المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات على سبيل التعنت، ثم ذكّرهم تعالى بنعمه فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ أي الله جل وعلا الذي لا تصلح الألوهية إلا له هو الذي سخر لكم هذه الأنعام الإبل والبقر والغنم، وخلقها لكم ولمصلحتكم ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لتركبوا على ظهور بعض هذه الحيوانات، وتأكلوا من لحومها وألبانها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة في الوبر والصوف والشعر، واللبن والزبد والسمن ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي لتحمل الأثقال في الأسفار البعيدة ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحملون، وإنما قرن بين الإبل والسفن لما بينهما من شدة المناسبة حتى سميت الإبل سفن البر ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي ويريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته في الآفاق والأنفس ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ توبيخ لهم على إنكارهم وحدانيته مع ظهور آياته الكثيرة، والمعنى: أي آية من تلك الآيات الباهرة والدلائل الكثيرة الساطعة تنكرون مع وضوحها وجلائها وكثرتها؟ فإن هذه الدلائل لظهورها لا تقبل الإنكار ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام إنكاري

(1) حاشية الصاوي ٤/١١٥. (2) تفسير القرطبي ١٥/٣٣٤.

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية "الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء" وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن، المنزّل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* وتحدثت السورة عن أمر الوحي والرسالة فقررت حقيقة الرسول، وأنه بشر خصّه الله تعالى بالوحي، وأكرمه بالنبوة، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعياً إلى الله، مرشداً إلى دينه المستقيم.

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة، خلق السموات والأرض، بذلك الشكل الدقيق المحكم، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله، للنظر والتفكر والتدبر، ولكنّ ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان، فالكون كله ناطق بعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل وعلا.

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها، قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ وذكرت ما حلّ بهم وبثمود من الدمار الشامل، والهلاك المبين، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله.

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار، في هذا الكون الفسيح، الزاخر بالحكم والعجائب، وموقف الملحدين بآيات الله، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة.

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

التسمية: سميت السورة "فصلت" لأن الله تعالى فصّل فيها الآيات، ووضح فيها الدلائل

عباس: المراد زكاة الأنفس والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد، ولا يقولون: لا إله إلا الله[1] ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي كفروا بالبعث والنشور، وكذبوا بالحساب والجزاء. قال الصاوي: وإنما خص منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين[2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم والمعنى: الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، لهم في الآخرة أجرٌ غير مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي كيف تكفرون بالله وهو الإله العلي الشأن، القادر على كل شيء، خالق الأرض في يومين؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ذلك الخالق المبدع هو ربُّ العالمين كلهم، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية؟ قال الصاوي: الاستفهام ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى: أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكاً[3] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه، والزروع، والضروع ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي قدَّر أرزاق أهلها ومعاشهم قال مجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان[4] للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان قال ابن كثير: والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[5] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي ستجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي قالت السموات والأرض: أتينا أمرك طائعين قال الزمخشري: وهذا على التمثيل أي أنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب، ومثله قول القائل: قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني[6] وروي عن ابن عباس قال: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو

---

(1) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به: طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد: زكاة المال وهو اختيار ابن جرير.

(2) حاشية الصاوي [٤/٦٧]

(3) حاشية الصاوي [٤/٦٨].

(4) الكشاف [٤/١١٧]

(5) مختصر ابن كثير [٣/٢٥٦].

(6) الكشاف [٤/١٤٨].

كارهين فقالتا أتينا أمرك طائعين[1] واختاره ابن جرير ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي صنعهن وأبدع خلقهن سبع سموات في وقت مقدر بيومين ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام ولو شاء لخلقهن بلمح البصر ولكنْ أراد أن يعلّم عباده الحلم والأناة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده وما أمر به فيها قاله ابن كثير: أي رتب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ أي وزينا السماء الأولى القريبة منكم بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض وحرسًا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله، العزيز في ملكه، العليم بمصالح خلقه ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان، فقل لهم: إني أخوفكم عذابًا هائلًا وهلاكًا مثل هلاك عاد وثمود[2]، وعبر بالماضي إشارة إلى تحققه وحصوله ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي حين جاءتهم الرسل من كل جوانبهم، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة، واعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي بأن لا تعبدوا إلا الله وحده ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو شاء ربنا إرسال رسول لجعله ملكًا لا بشرًا ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي فإنا كافرون برسالتكم، لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، وهي قولهم: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ﴾ ضرب من التهكم والسخرية بهم ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هذا تفصيل لما حل بعاد وثمود من العذاب أي فأما عاد فعتوا وعصوا، وتكبروا على عباد الله: هود ومن آمن معه، بغير استحقاق للتعاظم والاستعلاء ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ أي وقالوا اغترارًا بقوتهم لما خُوِّفوا بالعذاب: لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلق عظيم، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده[3] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جملة اعتراضية للتعجيب من مقالتهم الشنيعة والمعنى أغفلوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات، هو أعظم منهم قوة وقدرة؟ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال الرازي: إنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودَعُ الوديعة[4] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحًا باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك بشدة صوتها وبردها ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي في أيام مشئومات غير مباركات ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي: ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي عذاب

---

(١) القرطبي (٣٤٣/١٥).

(٢) قال في الكشاف: أي عذابًا شديد الوقع كأنه صاعقة.

(٣) تفسير أبي السعود (٢٩/٥).

(٤) التفسير الكبير (١١٢/٢٧).

الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإلحاق الذل والهوان بهم[1] ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشد إهانة وخزياً من عذاب الدنيا، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي وأما ثمود فبينا لهم طريق الهدى، ودللناهم على سبيل السعادة، فاختاروا الضلالة على الهداية، والكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبي الله «صالح» قال ابن كثير: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً، بتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة[2] ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا صالحاً ومن آمن به من ذلك العذاب.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ...... إلى ...... وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٨).

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامة في الآخرة من العذاب والدمار، ليحصل منه تمام الاعتبار، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله.

اللغة: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفون، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿الْمُعْتَبِينَ﴾ جمع مُعْتَب وهو المقبول عتابه قال النابغة:

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته ... وإن تكُ ذا عتبى فمثلُك يُعتِبُ[3]

﴿قَيَّضْنَا﴾ هيأنا ﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وكرامة ﴿يَسْأَمُونَ﴾ يملون.

سبب النزول: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ..﴾[4] الآية.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ

---

(١) نفس المرجع السابق (٢٧/١١٣). (٢) المختصر (٣/٢٥٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/٣٥٤).
(٤) الحديث أخرجه مسلم كما في القرطبي (١٥/٣٥١).

وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾.

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أي واذكر يوم يجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا، قال ابن كثير: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[1] ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرام وآثام، وفي الحديث «فيختم على فيه - أي فمه - ثم يُقال لجوارحه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْدًا لكُنّ وسحقًا، فعنكنّ كنت أناضل»[2] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخًا وتعجبًا من هذا الأمر الغريب: لِمَ أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته، الذي يُنطق الجماد والإنسان والحيوان، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هو أوجدكم من العدم وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي وإليه وحده مردكم بالبعث. قال أبو السعود: المعنى ليس نطقنا بعجب من قدرة الله، الذي أنطق كل حيّ، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولًا،

---

(1) مختصر ابن كثير (٣/٢٦٠).

(2) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ووجه الدلالة أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، والله على كل شيء قدير.

جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة، لا يخرجون منها أبداً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي جزاءً لهم على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي: وسمّى لغوهم بالقرآن جحوداً، لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز، وخافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً، إلا أنهم جحدوه حسداً[1] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي يقولون وهم في النار إذا دخلوا جهنم: ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس، وإنما جاء بلفظ الماضي «وقال» لتحققه ومعناه المستقبل قال أبو حيان: والظاهر أن المراد بـ﴿اللَّذَيْنِ﴾ مراد بهما الجنس أي كل مُغْوٍ من هذين النوعين[2] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي نضعهما بأقدامنا انتقاماً وتشفياً ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار، وهي أشد عذاب جهنم؛ لأنها دار المنافقين، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته، وثبتوا على ذلك حتى الممات، عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمة «استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب»[3] والغرض أنهم استقاموا على شريعة الله في عقيدتهم، وأخلاقهم، وأقوالهم وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقاً، مسلمين صدقاً، ولقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال: الاستقامة عين الكرامة، وعن الحسن أنه كان يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا مما تقدمون عليه من أهوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهل ومال فنحن نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده: إن الملائكة تتنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعد، وإنك سترى اليوم أموراً لم تر مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك[4] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقر به عيونكم من أنواع الملاذ والمشتهيات، ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/١٢٢).
(٢) البحر المحيط (٧/٤٩٥).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/٣٥٨).
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣/٢٦١).

دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعاله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإِسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد[1]. وقال الزمخشري: والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإِسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين[2] ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإِساءة بالعفو، قال ابن عباس: ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك[3] ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي فإِذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب، المخلص الصداقة في مودته ومحبته لك ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي وإِن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي هو السميع لأقوال العباد العليم بأفعالهم وأحوالهم، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة، وحكمته البالغة فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار، وتذليل الشمس والقمر، مسخرين لمصالح البشر ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق، واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحد سواه ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي فإِن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي لا يملون عبادته.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ... إلى ... أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ من آية (٣٩) إلى نهاية آية (٥٤).

المناسَبَة: لما ذكر تعالى صفات المؤمنين الأبرار، وأردفه بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقب بذكر الملحدين في آياته، المكذبين لرسله وأنبيائه، وختم السورة

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/ ٢٦٤). (٢) الكشاف (٤/ ١٥١).
(٣) القرطبي (١٥/ ٣٦١).

في آياتنا بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يخفى أمرهم علينا فنحن لهم بالمرصاد، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة: الإلحاد الكفر والعناد وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه[١] ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أفمن يُقذف في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمناً من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الرازي: والغرض التنبيه على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتان ما بينهما[٢] ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أي اعملوا ما تشاءون في هذه الحياة، وهو تهديد، لا إباحة، منضم بعطف الوعيد، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيجازيكم عليها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بالقرآن حين جاءهم من عند الله، وخبر «إنَّ» محذوف لتهويل الأمر كأنه قيل: سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته[٣] ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز، يدفع كل جاحد، ويقمع كل معاند ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزل من رب العالمين[٤] ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي هو تنزيل من إله حكيم في تشريعه وأحواله وأفعاله، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه. ثم سلّى تعالى نبيه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك، إلا ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي: يُعزّي نبيه ويسليه من أذى وتكذيب قومه[٥] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إن ربك يا محمد لهو الغفور لمن تاب من المؤمنين، ذو العقاب الشديد للكافرين، ففوّض أمرك إليه فإنه ينتقم لك من أعدائك، ثم ذكر تعالى تعنت الكافرين ومكابرتهم للحق بعد سطوعه وظهوره فقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي لقال المشركون: هلاّ بينت آياته بلسان نفهمه وهلاّ نزل بلغتنا ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟ استفهام إنكاري أي أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ قال الرازي: ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلاّ نزل القرآن بلغة العجم؟ فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض، ثم قال: والحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد متعلق بعضه ببعض، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ فرد تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان

---

(١) تفسير القرطبي ١٥/٣٦٦. (٢) التفسير الكبير ٢٧/١٣١.

(٣) هذا رأي أكثر المفسرين واختار أبو حيان في البحر المحيط أن الخبر مذكور وهو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ ...﴾ ولكنه حذف منه العائد، والأول أشهر.

(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٥. (٥) تفسير القرطبي ١٥/٣٦٧.

كثير، يديم التضرع ويكثر من الابتهال، وهكذا طبيعة الإنسان الجحود والنكران، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء قال الرازي: استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب [١] ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين، إن كان هذا القرآن من عند الله، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر، كيف يكون حالكم؟ ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، أي لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم، قال أبو السعود: وضع الموصول «من أضل» موضع الضمير «منكم» شرحاً لحالهم، وتعليلاً لمزيد ضلالهم [٢] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي سنظهر لهؤلاء المشركين دلالاتنا وحججنا على أن القرآن حق منزل من عند الله ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم قال القرطبي: المراد ما في أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه [٣] ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ؟ أي أولم يكفهم برهاناً على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؟ وأنه مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية؟ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ «ألا» استفتاح لتنبيه السامع إلى ما يقال أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شك من الحساب والبعث والجزاء، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً، فهو يجازيهم على كفرهم.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين ﴿بَشِيرًا .. وَنَذِيرًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا .. وَكَرْهًا﴾ وبين ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وبين ﴿ٱلْحَسَنَةُ .. وَٱلسَّيِّئَةُ﴾ وبين ﴿مَغْفِرَةٍ .. وَعِقَابٍ﴾ وبين ﴿أَعْجَمِىٌّ .. وَعَرَبِىٌّ﴾ وبين ﴿تَخْرُجُ .. وَتَضَعُ﴾ وبين ﴿ٱلْخَيْرِ .. وَٱلشَّرُّ﴾.

٢ - طباق السلب ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ .. وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ وكذلك ﴿ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ - الالتفات ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ بعد قوله ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة. وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق، وهو تناسب حسن.

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ١٢٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٥).

٤- الاستعارة التمثيلية ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مثّل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر المطاع لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتثال الأمر سريعًا.

٥- الاستعارة التصريحية ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن، وجوامع البيان، فكأنهم من شدة الكراهية له قد ثقلت أسماعهم عن فهمه، وقلوبهم عن علمه.

٦- الاستعارة أيضًا ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ شبه حالهم في عدم قبول المواعظ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من ينادي من مكان بعيد، فلا يسمع ولا يفهم ما ينادى به، والجامع عدم الفهم في كلٍ.

٧- الأمر التهديدي ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد.

٨- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٩- إن القرآن معجز في تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يحييها الله كما يبعث الموتى من القبور، إنه صورة بعث وإخراج وإحياء، وإنه لمن تصوير رائع يأخذ بالألباب.

تم بعونه تعالى تفسير سورة فصّلت.

بين يدي السورة
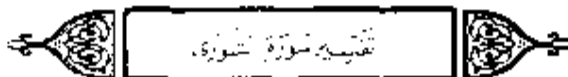
* هذه السورة الكريمة مكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة : « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السورة هو « الوحي والرسالة » وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة .

* تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي ، ومصدر الرسالة ، فالله ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده ، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور الهداية والإيمان .

* ثم تعرَّضت لمقالة بعض المشركين ، ونسبتهم لله الذرية والولد ، حتى إنَّ السموات ليكدْن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة ، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون ، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون ، وذلك للمفارقة بين كفر أهل الأرض وعصيانهم ، وإيمان أهل السماء وإذعانهم .

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة ، فتقرر أن الدين واحدٌ أرسل الله تعالى به جميع المرسلين ، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلا أن دينهم واحد ، وهو الإسلام الذي بعث به نوحًا وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ .

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن ، المنكرين للبعث والجزاء ، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يوم تشيب له الرؤوس وتطير لهوله الأفئدة ، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون ، ويستعجلون قيام الساعة

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور ، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته ، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب ، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ .

* وتختم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن ، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة ، ليتناسق الكلام في البدء والختام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ...﴾ الآية .

التسمية : سميت « سورة الشورى » تنويهًا بمكانة الشورى في الإسلام ، وتعليمًا للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل « منهج الشورى » لما له من أثر عظيم جليل في

المنزلة، اللهُ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له ما في الكون ملكًا وخلقًا وعبيدًا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي تكاد السمواتُ يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي والملائكة الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويطلبون المغفرة للذنوب عن في الأرض من المؤمنين قال في التسهيل: والآية عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [1] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إنَّ الله هو الغفور للذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي: هيَّب وعظَّم جل وعلا في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء [2] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي جعلوا له شركاء وأندادًا ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي اللهُ تعالى رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيءٌ، وهو محاسبهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآنًا عربيًا معجزًا، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قال الإمام الفخر: وأمُّ القرى أصلُ القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالًا لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيءٍ أمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان [3] ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي وتخوِّف الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فريقٌ منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون، وفريق منهم في دركات الجحيم وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام قال الضحاك: أهل دينٍ واحد، أهل ضلالةٍ أو أهل هُدى [4] ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي ولكنه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلا ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله. قال أبو حيان: والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جل وعلا، ولكنْ من سبقت له

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٧
(٢) تفسير القرطبي ١٦/٥
(٣) التفسير الكبير ٢٧/١٤٣
(٤) تفسير القرطبي ١٦/٦

أي وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائنهم من المطر والنبات وسائر الحاجات ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تعليل لما سبق أي لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء، فهو واسع العلم، يعلم إذا كان الغنى خيرًا للعبد أو الفقر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي سنَّ وبيَّن لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف، ما وصَّى به الرسل، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام قال الصاوي: خصَّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، وأولو العزم، وأصحاب الشرائع المعظمة، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرع جديد، وأمَّا من عداهم، فإنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء، واحدًا بعد واحد، وشريعة إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملة أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا - معشر الأمة المحمدية - قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام[١] ولهذا قال تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي وصَّاهم بأن أقيموا الدين الحق دين الإسلام، الذي هو توحيدُ الله وطاعتُه، والإيمان بكتبه ورسله، وباليوم والجزاء قال القرطبي: المراد اجعلوا الدين قائمًا مستمرًا محفوظًا من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها، فهذا كله مشروع دينًا واحدًا وملةً متحدة[٢] ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي عظُم وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله وتوحيد الواحد القهار ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي الله يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكرامًا ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي وما تفرق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلا من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من الرسل إليهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلمًا وبغيًا، وحسدًا وعنادًا ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لعجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعًا باستئصالهم قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجَّل لهم العقوبة سريعًا[٣] ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي وإن بقية أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٤٢ .
(٢) تفسير القرطبي ١٦/١١ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٦ .

ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي: لا يعلمونه كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان، فهم في شك مقلق ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي فلأجل ذلك التفرق الذي حدث لأهل الكتاب، أمرناك يا محمد أن تدعو الناس إلى دين الحنيفية السمحة، الذي وصى به جميع المرسلين قبلك، فادع يا محمد إليه والزم المنهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي صدقت بكل كتاب أنزله الله تعالى قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في حكمي قال ابن جزي: يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم من خير أو شر، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير: هذا تبرؤ منهم أي نحن برآء منكم كقوله تعالى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، لأن الحق قد ظهر وبان، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحد بعمله من خير وشر قال الصاوي: والغرض أن الحق قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدال، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلاً بعمله ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ليصدوا الناس عن الإيمان ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس: نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي نزّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع، والحق الساطع، في أحكامه وتشريعه وأخباره ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أي وأنزل الميزان أي العدل والإنصاف قاله ابن عباس. قال المفسرون: وسمى العدل ميزاناً لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم سببه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي وما يعلمك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب؟ فإن

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ٣٧٣
(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٥٨.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٢
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣
(٦) البحر المحيط ٧/ ٥١٣

۝ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۝ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

التفسير: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإِحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم[1] ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يوسّع الرزق على من يشاء قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغنيّ بالفقير، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[2]؟ ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ولا يُدافع.

ثم لما بيّن كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإِحسان إليهم أشار إلى أن الإِنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزد له في أجره وثوابه، ونضاعف حسناته ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مما قدرناه له ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌ من الثواب والنعيم قال الزمخشري: سمّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز، وفرّق بينهما بأنّ من عمل للآخرة ضوعفت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها لا كل ما يريده ويبتغيه[3] وقال في التسهيل: حرث الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحرّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل[4].

ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي أَلِهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله؟ قال شيخ زاده: وإِسناد الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إِسناد مجازي من إِسناد الفعل إلى السبب وسمّاه ديناً للمشاكلة والتهكم[5] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإِثابة المؤمن ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وإِن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذاب موجع مؤلم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي والجزاء عليها نازل بهم يوم القيامة لا محالة، سواءٌ خافوا أو لم يخافوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي والمؤمنون الصالحون في

---

(١) البحر المحيط ٧/٥١٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/١٨ . (٣) تفسير الكشاف ٤/١٧٠ .
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٧ . (٥) حاشية البيضاوي ٣/٢٧٥ .

عَنْ عِبَادِهِ﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد أي هو جلَّ وعلا بفضله وكرمه يقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدق وإخلاص نية ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي: أي ويستجيبُ الله للمؤمنين إلا أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي كالوا لهم[1] ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم، البَرُّ الرحيم ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشَرًا وبطرًا، وقال قتادة: خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك[2] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى يُنزِّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي "إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه"[3] ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ تعديدٌ لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزِّل المطر الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي ويبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي وهو الوالي الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي وما نشر وفرّق في السموات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير: وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم[4] وقال مجاهد: هم الناس والملائكة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي وما أصابكم أيها الناس من مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلالان: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تزاول بها[5] ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/١٦٩.
(٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٧.
(٣) ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعاً.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٨.
(٥) تفسير الجلالين ٤/٣٨.

الحديث «لا يصيب ابن آدم خدشُ عودٍ أو عثرة قدم ولا اختلاج عرقٍ إلا بذنبٍ وما يعفو عنه أكثر»(١) ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

فائدة: المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات، وأما الأنبياء فإنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام.

تنبيه: قال بعض العلماء: لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة، والعوالم العلوية مخلوقات - غير الملائكة - تشبه مخلوقات الأرض، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياة في المريخ، واستدلوا بهذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ الآية، أقول: يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع، مخلوقات حيَّة غير الإنسان، أما الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح هذا الكوكب الأرضي لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ إلى ... ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ من آية (٣٢) إلى آية (٥٣) نهاية السورة

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض، وما بثَّ فيهما من مخلوقات لا تُحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإله القادر الحكيم، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر، محمَّلة بالأقوات والأرزاق، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن.

اللغة: ﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية؛ لأنها تجري في الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ في رأسه نارُ

﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت ساكنة لا تسير، من ركد الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿مَّحِيصٍ﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن يقال: أوبقه أي أهلكه ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نَّكِيرٍ﴾ منكرٍ يُنكر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عَقِيمًا﴾ لا تلد.

---

(١) كذا في البحر المحيط ٧/٥١٨ وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلاً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ۝ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ۝ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ۝ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

التفسير: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفن الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسييرها لعبرًا وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء قال الصاوي: أي كثير الصبر على البلايا، عظيم الشكر على العطايا[1] وقال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة: من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى للماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سببًا لسيرها فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها[2] ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب

---

(١) حاشية الصاوي ٤/٣٩. (٢) البحر المحيط ٧/٥٢٠.

فينجيهم الله من الهلاك ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله قال القرطبي: أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة[1] ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي فما أعطيتم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية، فإنما هو نعيم زائل، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي وما عند الله من الثواب والنعيم، خير من الدنيا وما فيها، لأن نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تقدموا الفاني على الباقي ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي للذين صدقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قال ابن عباس: يعني الزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي إذا غضبوا على أحد ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة، ولا واجبًا كما إذا انتهكت حرمات الله، فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استُغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر «وحلم الفتى في غير موضعه جهل»[2] ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة قال البيضاوي: نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا[3] ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يبرمون أمرًا من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق[4] قال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كُلاًّ في موضعه محمود[5] ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة قال الإمام الفخر: لما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدًا بالمثل دون زيادة، وإنما سمّى ذلك سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به[6] ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو

---

(١) القرطبي ١٦/٣٣ (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٤٠ .
(٣) تفسير البيضاوي ٢/١٧٥ . (٤) القرطبي ١٦/٣٩ .
(٥) أبو السعود ٥/٣٦ (٦) مختصر ابن كثير ٣/٢٨٠ .

القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا بأن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث «وما زاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلا عزاً» ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ أي إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ويتكبرون في الأرض تجبرًا وفسادًا، بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتمامًا به وترغيبًا فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة[1] ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له ناصر ولا هاد يهديه إلى الحق ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ قال القرطبي: يطلبون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون[2] ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يسارقون النظر خوفًا منها وفزعًا كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس: ينظرون بطرف ذابلٍ ذليل وقال قتادة والسدي: يُسارقون النظر من شدة الخوف[3] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ومن يضلله الله فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير: من يضلله الله فليس له خلاص[4] ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ أي استجيبوا أيها الناسُ إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من قبل أن

---

(١) حاشية الصاوي ٤/٤١. (٢) تفسير القرطبي ١٦/٤٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٦/٤٦. (٤) التفسير الكبير ٢٧/١٧٨.
(٥) مختصر ابن كثير ٣/٢٦٣.

يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على رده، لأنه ليس له دافع ولا مانع ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي وليس لكم منكرٌ يُنكر ما يحل بكم من العذاب وقال أبو السعود: أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوَّنٌ في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم[1] ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي فما أرسلناك يا محمد رقيبًا على أعمالهم ولا محاسبًا لهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان: والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهمِّه بهم[2]. ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ المرادُ بالإنسان الجنس بدليل قوله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ والمعنى إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمن وغيرها بطر وتكبر ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي وإن أصابتهم محنةٌ ونقمة، وبلاءٌ وشدة بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة بإذا والبلاء بإنْ هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه[3] وقال الإمام الفخر: نعمةُ الله في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمَّاها ذوقًا، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير من الدنيا فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[4] ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هو تعالى المالك للكون كله، علويه وسفليه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد كيفما شاء، والمقصودُ من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيمًا فلا يولد له، وبعض النساء عقيمًا فلا تلد قال البيضاوي: والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعضٍ إما صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جميعًا، ويعقم آخرين[5]، والمرادُ من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة فائقة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٣٧.
(٢) حاشية الصاوي ٤/٤٤.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/٢٧٦.
(٤) البحر المحيط ٧/٥٢٥.
(٥) التفسير الكبير للرازي ٢٧/١٨٤.

ابن كثير: جعل تعالى الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإِناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير[1] ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ أي وما صحَّ لأحدٍ من البشر أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في المنام أو بالإِلهام، لأن رؤيا الأنبياء حقٌّ كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ ﴿أو من وراء حجابٍ﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ أي أو يرسل ملكاً فيبلغ الوحي إلى الرسول بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء. قال في التسهيل: بيَّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه.

أحدها: الوحي بطريق الإِلهام أو المنام، والآخر: أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب، والثالث: الوحي بواسطة الملَك، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى ومحمد إذ كلمه الله ليلة الإِسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء[2] وقال الصاوي: وقد يقع الإِلهام لغير الأنبياء كالأولياء، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين، بخلاف الأنبياء فإِن إلهامهم محفوظ منه[3] ﴿إنه عليٌّ حكيم﴾ أي إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين، حكيم في أفعاله وصنعه، تجري أفعاله على موجب الحكمة ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحاً لأن فيه حياة للنفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض[4] ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإِيمان﴾ أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإِيمان ومعالمه على وجه التفصيل ﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ أي ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإِسلام ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دين الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- المجاز المرسل ﴿ولتنذر أم القرى﴾ أي لتنذر أهل مكة، لأن الإِنذار لأهل القرية لا لبنائها. وفي الآية احتباك حيث حذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وتقديره: لتنذر أم القرى العذاب،

(1) مختصر ابن كثير ٣/٢٨٣
(2) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٤
(3) حاشية الصاوي ٤/٤٦
(4) تفسير القرطبي ١٦/٥٤

وتنذر الناس يوم الجمع.

٢- توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة ﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾ وهي ألا، وإن، وضمير الفصل.

٣- الطباق بين ﴿الجنة .. السعير﴾ وبين ﴿يبسط .. ويقدر﴾ وبين ﴿ذكرانا .. وإناثا﴾.

٤- طباق السلب ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها﴾.

٥- الاستعارة ﴿من كان يريد حرث الآخرة ..﴾ الآية، شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرة والحب، بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة.

٦- المقابلة ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾.

٧- عطف العام على الخاص ﴿ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ فالغيث خاص، والرحمة عام.

٨- التشبيه المرسل المجمل ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم.

٩- التقسيم ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ۝ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا﴾

١٠- جناس الاشتقاق ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾.

١١- صيغة المبالغة ﴿لكل صبار شكور﴾ أي عظيم الصبر كثير الشكر.

١٢- المشاكلة ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة.

١٣- توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى»

تفسير سورة الزخرف

بين يدي السورة

* سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان «الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» شأنها شأن سائر السور المكية.

* عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته، مبثوثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات، فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البنات سفهًا وجهلاً، وزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، ورد الناس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى الأصلية.

* وتحدثت السورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، لتنفي زعم العرب كونهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

* ثم تعرضت إلى تفنيد تلك الشبهة السخيفة، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام، فقد اقترحوا أن تتنزل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات تقرر أن الجاه والثراء ليسا ميزانًا لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين.

* وذكرت السورة قصة موسى وفرعون لتأكيد تلك الحقيقة السالفة، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه، كما يعتز الفاجرون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجة الغرق والدمار.

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها، وبيان حال الأشقياء المجرمين، وهم يتلظون في دركات الجحيم.

التسمية: سميت «سورة الزخرف» لما فيها من تمثيل الروائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف اللامع، الذي يخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة،

وإنما يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

* * *

قال الله تعالى: ﴿حم ۝ والكتاب المبين ۝ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ... إلى ... فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٥).

اللغَة: ﴿صفحا﴾ إعراضاً يقال: صفحت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركته ﴿بطشا﴾ قوة وانتقاماً، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مهدا﴾ فراشاً وبساطاً ﴿أنشرنا﴾ أحيينا، والنشور: الإحياء بعد الموت ﴿لتستووا﴾ تستقروا وتركبوا ﴿مقرنين﴾ مطيقين ﴿كظيم﴾ ممتلئ غماً وغيظاً ﴿يخرصون﴾ يكذبون ﴿أمة﴾ دين وطريقة ﴿مترفوها﴾ المترف: المنعم المنغمس في الشهوات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ۝ والكتاب المبين ۝ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ۝ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ۝ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ۝ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ۝ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ۝ فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ۝ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ۝ الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ۝ والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون ۝ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ۝ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ۝ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ۝ وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين ۝ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ۝ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ۝ أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ۝ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ۝ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ۝ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ۝ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ۝ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۝ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ۝ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾.

التفسِير: ﴿حم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿والكتاب المبين﴾ قسم أقسم الله به أي أُقسم بالقرآن البيّن الواضح الجلي، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ هذا هو

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة.

المقسم عليه أي أنزلناه بلغة العرب، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة بأسلوب محكم، وبيان معجز ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعلموا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر. قال البيضاوي: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمُقسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجه وآكده[1] ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمة بالغة ومكانة فائقة. قال ابن كثير: بيَّن شرف القرآن في الملأ الأعلى، ليشرّفه ويعظمه أهل الأرض، أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانة عظيمة، وشرف وفضل[2] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الاستفهام إنكاري أي أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم، ونترككم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن؟ ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، بل نذكركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق. قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرّره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة[3]. قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جداً وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته[4] ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين؟ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به. قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ والمعنى: تسلَّ يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك[5] ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وسبق في القرآن أحاديث إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين. قال الإمام الفخر: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك فقد ضربنا لهم مثلهم[6] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السماوات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي ليقولُنَّ: خلقهنَّ الله وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه. قال القرطبي: أقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً[7]. ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾

---

(1) حاشية زادة على البيضاوي ٣/٢٨٨ .
(2) مختصر ابن كثير ٣/٢٨٤
(3) التفسير الكبير للرازي ٢٧/١٩٤
(4) المختصر ٣/٢٨٥
(5) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٤٤
(6) التفسير الكبير للرازي ٢٧/١٩٥ .
(7) تفسير القرطبي ١٦/٦٤

أي وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مبدع هذا النظام العجيب ﴿والذي نزّل من السماء ماءً بقدر﴾ أي نزّل بقدرته الماء من السماء بمقدار ووزن معلوم، بحسب الحاجة والكفاية قال البيضاوي: أي بمقدار ينفع ولا يضر[1] ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ أي فأحيينا به أرضاً ميتة مقفرة من النبات ﴿كذلك تُخرجون﴾ أي كذلك تخرجون من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك قال ابن عباس: "الأزواج: الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى"[2] ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ أي وسخّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر، ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير: أي ذللها وسخّرها ويسّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها[3] ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملاً ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ أي وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾ أي وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلّل ويسّر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وما كنا له مقرنين﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت. قال في حاشية البيضاوي: وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وخطورها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لشكره وذكره، فإن من تفكر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام، أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مسخراً لراكبه يمكنه من تسييره إلى أي جانب شاء، وتفكر أيضاً في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[4]. ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أي جعل المشركون لله ولداً حيث قالوا: الملائكة بنات الله ﴿إن الإنسان لكفور مبين﴾ أي إن القائل لهذا لمبالغ في الكفر، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي: أي ظاهر الكفران؛ لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه[5] ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ إنكار وتعجب من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات وخصكم واختار لكم البنين؟ قال ابن كثير: وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار[6]، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ أي وإذا

---

(1) تفسير البيضاوي ٢/١٧٧
(2) حاشية الجمل على الجلالين ٤/٧٧
(3) مختصر ابن كثير للصابوني ٣/٢٨٥
(4) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٢٩٦
(5) تفسير البيضاوي ٢/١٧٧
(6) مختصر ابن كثير ٣/٢٨٦

بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وهو ممتلئ غيظاً وغمّاً من سوء ما بُشّر به قال الإِمام الفخر: والمقصود من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي يبلغ حاله في النقص إلى هذا الحدّ كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟[1] وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي أيجعلون لله من يُربّى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهنَّ الإِناث؟ ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي وهو في الجدال غير مظهرٍ لحجته لضعف رأيه؟ أفمن يكون هكذا يُنسب إلى جناب الله العظيم؟ قال في التسهيل: والمقصود الرد على الذين قالوا الملائكة بنات الله، كأنه قال: أجعلتم لله من ينشأ في الحلية؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفة النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى فقال ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص؟[2] وقال ابن كثير: المرأة ناقصة في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض الشعراء:

وما الحَلْيُ إلا زينةٌ من نقيصةٍ ... يُتَمِّم من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قصَّرا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار، كما قال بعض العرب وقد بُشّر ببنت: "ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرُّها سرقة"[3] ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ كفرٌ آخر تضمنه قولهم الشنيع أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على ربه - إناث وحكموا عليهم بذلك ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي سنأمر الملائكة بكتابة شهاداتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيد شديد مع التهديد. قال المفسرون: حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة. الأول أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال، ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعموا أن ذلك مرضي لله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء: لو شاء الله ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، وإنما كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي: وهذا منهم كلمة حق أُريد بها باطل، فكل شيء بإرادة الله، والمشيئة غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٠٦ (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٠
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٢٨٦.

أن الله أراد منهم ذلك [1] وقد كذبهم الله بقوله {مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ} أي ما لهم بذلك القول حجة ولا برهان {إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} أي ما هم إلا يكذبون ويتقولون على الله كذبًا وزورًا {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} ردٌّ آخر عليهم أي أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتابًا من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون متعلقون بتوجيهاته؟ قال الإمام الفخر: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى يعولوا عليه ويتمسكوا به [2] {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} بل للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة قال أبو السعود: والأمة: الدين والطريقة سميت أمة لأنها تؤم وتقصد [3] {وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} أي ونحن ماشون على طريقتهم مهتدون باتباعهم {وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} أي وكما اتبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولًا في أمة من الأمم {إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} أي إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة، وأعمتهم الشهوات والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملة ودين، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم. قال البيضاوي: والآية تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ما ذكر ضلال قديم، وأن أسلافهم لم يكن لهم سند منظور يعتد به، وإنما خصص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى [4]. وذكر هنا {مُّقْتَدُونَ} وهناك {مُّهْتَدُونَ} تفننًا لأن معناهما واحد {قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ} أي قل كل نبيٍّ لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى وأرشد مما كانوا عليه؟ {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} أي قالوا: إنا كافرون بكل ما أرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم!!

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ .. إلى .. مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٤٥).

المناسبة: لما حكى عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، كيف تبرأ من قومه ومن عبادة الأوثان، للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السليم، ومنطق الهوى والتقليد.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/٧٣.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٠٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/٤٩.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/١٧٨.

على تقليد الآباء، ولم يتفكروا في الحجة، فاغتروا بطول الإِمهال وإِمتاع الله إِياهم بنعيم الدنيا، فأعرضوا عن الحق[1] ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ أي ولما جاءهم القرآن ليبصرهم من ضلالتهم، ويرشدهم إِلى التوحيد، ازدادوا عتواً وضلالاً فقالوا عن القرآن إِنه سحر ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي ونحن كافرون به، لا نصدّق أنه كلام الله. قال أبو السعود: سمَّوا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام، فضمُّوا إِلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به[2] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي وقال المشركون: هلاَّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف!! قال المفسرون: يعنون «الوليد بن المغيرة» في مكة أو «عُروة بن مسعود الثقفي» في الطائف.. استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظناً منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه، ونسوا أن العظيم هو الذي يكون عند الله تعالى عظيماً، وهم يعتبرون مقاييس العظمة الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان، أما مقاييس العظمة الحقيقية عند الله تعالى، وعند العقلاء، فإِنما هو عظمة النفس، وسموُّ الروح.. ومن أعظمُ نفساً وأسمى روحاً من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام!! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي أهم يقسمون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من عباده حتى يقترحوا أن تكون لفلان أو فلان من الناس؟ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإِذا كان أمر المعيشة - وهو أمر حقير - لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم ومشتهياتهم!! قال في التسهيل: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإِذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألاّ نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[3] ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليكون كلٌ منهم مسخراً للآخر، ويستخدم بعضهم بعضاً لينتظم أمر الحياة قال الصاوي: إِن الله جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إِلى خراب العالم وفساد نظامه[4] وقال أبو حيان: وقوله تعالى ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض، ويصلوا إِلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تزهيدٌ في الإِكباب على طلب

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٠٨ — (٢) تفسير أبي السعود ٥/٤٣

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٢٨ — (٤) حاشية الصاوي ٤/٤٨

... أفلا تعقلون﴾؟ ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ هذا على سبيل الفرض، وفي الكلام محذوف أي إن كنت يا محمد شاكًّا في أمر التوحيد فسلْ من سبقك من الرسل ﴿أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون﴾ أي هل جاءك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله؟ والآية كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدعٍ ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى(1) وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم؟ وهذا كما يسأل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا، وهذا كله من باب المجاز(2).

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ... إلى ... هذا صراطٌ مستقيم﴾ من آية (46) إلى نهاية آية (64).

المناسَبَة: لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه، واختاروا أن ينزِّل القرآن على رجلٍ كثير المال عظيم الجاه، ذكر تعالى قصة موسى مع فرعون، ليشير إلى أن منطق الطغاة والطغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التبجح بجاهه وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهًا من موسى، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان.

اللغَة: ﴿ينكثون﴾ نكث العهد: نقضه ﴿مهين﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿آسفونا﴾ أغضبونا وخالفونا ﴿سلفًا﴾ قدوة ﴿يصدّون﴾ بكسر الصاد بمعنى يضجّون ويصيحون، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري: صدَّ يصِدُّ صديدًا أي ضجّ، وقيل إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج(3) وقال الفراء: هما سواء ﴿تمترُنّ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الأمر شكَّ فيه، والمرية: الشك.

سبَبُ النزول: عن مجاهد قال: إن قريشًا قالت: إن محمدًا يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله ﴿ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون﴾(4).

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ۝ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ۝ وما نريهم من آيةٍ إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ۝ وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ۝ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ۝

(1) تفسير أبي السعود 5/45 (2) البحر المحيط 8/19.
(3) انظر الصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط.
(4) تفسير القرطبي 16/102.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخرية واستهزاءً به قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ، وأنهم قادرون عليها[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان، والجراد، والقُمّل إلا وهي في غاية الكبر والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها[2] ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي لنؤمنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك قال المفسرون: ليس قولهم ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان علم زمانهم، ولم يكن مذمومًا، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾؟ أي قال مفتخرًا متبجحًا: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٩٧

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥٠

مُلكٌ لي؟ وهذه الخلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحتي قصوري؟ قال القرطبي: ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس وكلها من النيل[1] وقال قتادة: كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصوره ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته؟ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عزّ له ولا جند ولا سلطان، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه[2] يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة؟ قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على موسى، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، وقد كان الله أذهبها عنه بدعائه ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[3] ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾؟ أي فهلّا ألقى إليه ربه أسورةً من ذهب، علامةً له ودلالة على نبوته!! قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوّروه بسوارين وطوّقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته[4] ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي أو جاءت معه الملائكة يكتنفونه خدمةً له وشهادة بصدقه؟ قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقاً فهلّا ملّكه ربه وسوّره وجعل الملائكة أنصاره[5] ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي فاستخفّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي فلما أغضبونا وعاندونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العذاب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نُبق منهم أحداً. قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبّر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أنّ من تعزّز بشيء أهلكه الله به ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي جعلنا قوم فرعون قدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك. قال مجاهد: سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرة لمن يأتي بعدهم[6] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي ولمّا ذُكر عيسى بن مريم في القرآن وضُرب المثل بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركو قريش يضجّون وترتفع أصواتهم بالصياح. قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: قد

---

(١) نفس المرجع السابق ١٦/٩٩.
(٢) البحر المحيط ٨/٢١.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/٤٦.
(٤) تفسير القرطبي ١٦/١٠٠.
(٥) البحر المحيط ٨/٢٣.
(٦) تفسير القرطبي ١٦/١٠٢.

من أصحابه، قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي ولأوضح لكم بعض الذي تختلفون فيه من أمور الدين قال ابن جزي: وإنما قال ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا(١) وقال الطبري: يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية(٢) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أي إن الله جل وعلا هو الربُّ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده(٣) ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم.

□□□

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ.. إلى قوله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ من آية (٦٥) إلى آية (٨٩) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق، أتبعه بذكر ضلال أهل الكتاب حيث تفرقوا شيعًا وأحزابًا في شأنه فقال بعضهم: إنه إله، وقال بعضهم: إنه ابن الإله، وقال آخرون: إنه ثالث ثلاثة، ثم ذكر تعالى أهوال القيامة وأحوالها، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق، الواحد الأحد جلَّ وعلا.

اللغَة: ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تُسرّون وتفرحون، والحَبْر: السرور والفرح ﴿أَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الرحمة، ومتحيرون من شدة البأس ﴿أَبْرَمُوا﴾ أحكموا الشيء يقال: أبرم القوم أمرهم أحكموه، والإبرام: الإحكام ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يقلبون ويصرفون، أفكه أفكًا أي قلبه وصرفه عن الشيء.

سَبَبُ النزول: عن مقاتل قال: مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾(٤)

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا

---

(١) تسهيل علوم التنزيل ٤/٣٠
(٢) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٠ قال ابن كثير: وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد
(٣)، (٤) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٤

خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

■ التفسير: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعًا وأحزابًا فيه قال ابن كثير: صاروا شيعًا فيه، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه - وهو الحقُّ - ومنهم من يدَّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يوم مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا قيام الساعة، تأتيهم فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء إلا من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير: كلُّ صداقةٍ وصحابةٍ لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه[1] قال ابن عباس: صارت كل خُلَّةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفًا وتطييبًا لقلوبهم فيقول: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يا عبادي المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا، ثم وضَّحهم بقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات، تُنعَّمون فيها وتُسرُّون سرورًا يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي يُطاف على أهل الجنة بأواني من الذهب فيها الطعام، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ وفي الحديث «لا

---

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة .

تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»(1) ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع الملذات والمشتهيات، وتُسَرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً. قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور، فإن كل نعيم زائل موجبٌ لكلفة الزوال(2). ولما ذكر سبحانه وتعالى الجنة، لأنها موضع السرور، ذكر ما فيها من النعيم، فذكر أولاً المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك بالتعميم ذكر بيانًا كافيًا بقوله ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب، أو مستلذة في العيون(3) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجميلة أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات(4) وفي الحديث «ما من أحدٍ إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار الكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»(5) ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهًا وتلذذًا قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينة بالثمار أبدًا، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث «لا ينزع رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها»(6) ولما ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي إنّ الكافرين المرتكبين للإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبدًا قال الصاوي: والمراد بالمجرمين: الكفار لأنهم ذُكروا في مقابلة المؤمنين(7) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف عنهم العذاب لحظة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ونادى الكفار مالكاً خازن النار قائلين: ليُمِتنا الله حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير: أي

---

(1) الحديث من رواية الشيخين.
(2) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩.
(3) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٢٥٤.
(4) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٦.
(5) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم.
(6) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩.
(7) حاشية الصاوي ٤/ ٤٤.

لتقضي أرواحنا فنستريح مما نحن فيه قال ابن عباس: فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[1] ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبداً، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ خطاب توبيخ وتقريع، أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم قال الرازي: هذا كالعلة لما ذكر واستمرار نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بُغضهم لقبول الدين الحق[2] ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ الكلام عن كفار قريش أي أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً في كيد محمد ﷺ فإنا محكمون أمرنا في نصرته وحمايته، وإهلاكهم وتدميرهم قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة[3] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أي أم يظنون أننا لا نسمع ما حدثوا به أنفسهم، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي قال في التسهيل: السرُّ ما يحدث به الإنسان نفسه أو غيره في خفية، والنجوى ما تكلموا به بينهم[4] ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بلى إنا نسمع سرهم ونجواهم، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم، روي أنها نزلت في «الأخنس بن شريق» و«الأسود بن عبد يغوث» اجتمعا فقال الأخنس: أترى الله يسمع سرنا؟ فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا[5] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرض أنَّ لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد، ولكنه جل وعلا منزَّه عن الزوجة والولد قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام[6] وقال الطبري: هو ملاطفة في الخطاب وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحةُ وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح[7] ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السموات والأرض، وربُّ العرش العظيم، عمّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي يُوعدون -وهو يوم القيامة- فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي هو جل وعلا معبودٌ في السماء، ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق،

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/٢٩٦ (2) التفسير الكبير ٢٧/٢٢٧ .
(3) تفسير القرطبي ١٦/١١٨ (4) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ .
(5) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ . (6) تفسير القرطبي ١٦/١١٩
(7) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية وقيل: إنَّ «إنْ» بمعنى «ما» أي ما كان للرحمن ولد وتم الكلام ثم ابتدأ فقال: (فأنا أول العابدين)، وهذا قول ضعيف

٣- التأكيد بإنَّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة.

٤- الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقٌ.

٥- المجاز المرسل ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ففي اللفظ مجاز.

٦- الاستعارة ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ شبه الكفار بالصُّمّ والعمي بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧- جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما

٨- حذف الإيجاز ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي أكواب من ذهب، وحذف لدلالة السابق عليه.

٩- ذكر العام بعد الخاص ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ بعد قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ الآية.

١٠- الطباق ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ لأن المراد سرهم وعلانيتهم.

١١- السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف»

تفسير سورة الدخان

بين يدي السورة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية (التوحيد، الرسالة، البعث) لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - المعجزة الخالدة - الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي (ليلة القدر) وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تُفصَّل وتدبّر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شكٍّ وارتياب من أمره، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وأنذرتهم بالعذاب الشديد.

* ثم تحدثت عن قوم فرعون، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم، من قصور ودور، وحدائق وبساتين، وأنهار وعيون، وعن ميراث بني إسرائيل لهم، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله.

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش، وإنكارهم للبعث والنشور، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول، وبيّنت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين.

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار.

التسمية: سميت (سورة الدخان) لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

□□□

قال الله تعالى: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ .. إلى .. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٩).

اللغة: ﴿يُفْرَقُ﴾ يُبيّن ويُفصّل، «ارتقب» انتظر، ﴿يَغْشَى﴾ يغطي ويحيط، ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ تأخذ بشدة وعنف، ﴿فَتَنَّا﴾ ابتلينا وامتحنا، ﴿تَعْلُوا۟﴾ تتكبروا وتتطاولوا، ﴿عُذْتُ﴾ استجرت والتجأت إلى الله، ﴿فَأَسْرِ﴾ سر ليلاً ﴿رَهْوًا﴾ ساكناً، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر:

والخيلُ تمزعُ رهواً في أعنّتها كالطير تنجو من الشُّؤبوب ذي البَرَد[1]

قال الجوهري: رها البحر أي سكن، وجاءت الخيل رهواً أي برفق وسكينة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مؤخرين ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال.

سَبَبُ النُّزول: عن ابن مسعود قال: إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأتى رسولَ الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق لمُضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فسُقوا فنزلت ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

التَّفْسِير: ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم[3]. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أُقسِمُ بالقرآن البيِّن الواضح، الفارق بين طريق الهدى والضلال، البيِّن في إعجازه، الواضح في أحكامه، وجوابُه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلة فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قال ابن جزي:

---

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في القرطبي ١٦/١٣٧ وهو في الشوكاني [illegible] منسوب لعظائم القطر.
(٢) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود.
(٣) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة.

وكيفية إنزاله فيها أنه أُنزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجماً بعد نجم[1] وقيل: المعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، قال القرطبي: ووصف الليلة بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[2] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي كنا مخوفين الخلق، لأن من شأننا وعادتنا ألّا نترك الناس دون إنذار وتحذير من العقاب، لتقوم الحجة عليهم ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس: يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القابلة ما كان من حياة أو موت، أو رزق قال المفسرون: إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر، ومصالح ومنافع، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكح ويولد له وقد وقع اسمه في الموتى[3] ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي جميع ما نقدّره في تلك الليلة وما نوحي به إلى الملائكة من شئون العباد، هو أمر حاصل من جهتنا، بعلمنا وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر: ووضع الظاهر ﴿رَبِّكَ﴾ موضع الضمير (رحمةً منا) إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[4] ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال العباد، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السموات والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيي الأموات، ويميت الأحياء ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين. قال الرازي: والمقصودُ من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء، كان المنزَّل - الذي هو القرآن - في غاية الشرف والرفعة[5] ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم: الله خالقنا، بل هم في شكٍّ من أمر البعث، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده: التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب، لكونهم من أهل الشك والامتراء، وكون قصدهم اللهو والعبث لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والضار والنافع[6]. ثم لما بيّن أن شأنهم الحماقة والعصيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له، وتقنيطاً من إيمانهم فقال ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف، بيِّن واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود: إن قريشاً لما عصت

---

(1) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٤ (2) تفسير القرطبي ١٦/١٢٦
(3) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٣٦٦ (4) البحر المحيط ٨/٣٢
(5) التفسير الكبير ٢٧/٢٤١ (6) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٣٠١

الرسول ﷺ دعا عليهم فقال: (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف، وكان الرجل يحدّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض، ثم قال ابن مسعود: خمسٌ قد مضين: (الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام)[1] وقال ابن عباس: لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة، وهو يأتي قبل القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس الحنيذ (المشوي)، ويصير كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره[2] ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان: هذا عذاب أليم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي ويقولون مستغيثين: ربنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا، قال البيضاوي: وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم[3] ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ ؟ استبعادٌ لإيمانهم أي من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيّن الرسالة، مؤيدٌ بالآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه؟ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه، ونسبوه إلى الجنون - وحاشاه - فهل يُتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال الإمام الفخر: إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان، منهم من كان يقول: إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس، ومنهم من كان يقول: إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه هذا الكلام حال تخبطه[4] ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان، قال الرازي: والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لأسلافهم[5] قال ابن مسعود: لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أي واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى منتقماً منهم، والبطشُ الأخذ بقوة وشدة قال ابن مسعود: (البطشة الكبرى: يوم بدر) وقال ابن عباس: هي يوم القيامة قال ابن كثير: والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً[6] وقال الرازي: القول الثاني أصح؛ لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، ولما وصف بكونها (كبرى) وجب أن تكون

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤

(٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره أبو السعود وقال: هو الذي يستدعيه سياق النظم الكريم، وذكر ابن كثير ثم رجح رأي ابن عباس وقال: إذا ما أوردوه فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن. انظر ابن كثير ٣/ ٣٠٠

(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٢١٢ (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٤

(٥) نفس المرجع السابق (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢.

على علم على العالمين ﴿٣٢﴾ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴿٣٣﴾ إن هؤلاء ليقولون ﴿٣٤﴾ إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ﴿٣٥﴾ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴿٣٦﴾ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴿٣٧﴾ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴿٣٨﴾ ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٣٩﴾ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴿٤٠﴾ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ﴿٤١﴾ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴿٤٢﴾ إن شجرت الزقوم ﴿٤٣﴾ طعام الأثيم ﴿٤٤﴾ كالمهل يغلي في البطون ﴿٤٥﴾ كغلي الحميم ﴿٤٦﴾ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴿٤٧﴾ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴿٤٨﴾ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴿٤٩﴾ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴿٥٠﴾ إن المتقين في مقام أمين ﴿٥١﴾ في جنات وعيون ﴿٥٢﴾ يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ﴿٥٣﴾ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴿٥٤﴾ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴿٥٥﴾ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴿٥٦﴾ فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴿٥٧﴾ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴿٥٨﴾ فارتقب إنهم مرتقبون ﴿٥٩﴾

التفسير: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد، المفرط في الإذلال والإهانة، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبرا جبارا، متجاوز الحد في الطغيان والإجرام. قال الصاوي: هذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ، وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه (١) ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم، قال قتادة: على أهل زمانهم، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين والمعجزات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر ليظهر من يتدبر ويتفكر. قال الرازي: والآيات مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم (٢) ﴿إن هؤلاء ليقولون * إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ أي إن كفار قريش ليقولون: لن نموت إلا موتة واحدة وهي موتتنا الأولى في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿هؤلاء﴾ تحقير لهم وازدراء بهم. قال المفسرون: لما كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش، والغرض من قولهم ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا: إذا متنا فلا بعث ولا حشر ولا نشور، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وما نحن بمنشرين﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ خطاب للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٦٠. (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٤٨.

التعجيز أي أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هنالك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة[1] وقال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما: قُصيّ بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت[2] ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام إنكار مع التهديد أي أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن؟ الذين كانوا أكثر أموالاً، وأعظم نعيماً من كفار مكة؟ ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، وخربنا بلادهم، وفرقناهم شذر مذر فأين أبو المرود. والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد، أولي بأسٍ شديد، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة، فإهلاك هؤلاء أولى[3] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين. ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لهواً وعبثاً ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء. قال المفسرون: إن الله تعالى خلق النوع الإنساني، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلفهم الإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلابدَّ إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيها المسيء؛ لتجزى كل نفسٍ بما كسبت، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً، وتنزَّه الله عن ذلك، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين سُمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحداً ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض[4] وقيل: منقطع أي لكنْ من رحمه الله فإنه يشفع وينفع، قال ابن عباس: يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٤٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/١٤٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/٥٥.
(٤) البحر المحيط ٨/٣٩.

والملائكة[١] ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.. ولما ذكر سبحانه الأدلة على القيامة، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب، فذكر وعيد الكفار الأثيم ووعد الأبرار تأتياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة -شجرة الزقوم- التي تنبت في أصل الجحيم، طعام كل فاجر، ليس له طعام غيرها، قال أبو حيان: الأثيم صفة مبالغة وهو الكثير الآثام، وفُسِّر بالمشرك[٢] ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذ أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه، فهو يُجرجر في البطن ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة، قال القرطبي: وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب، والمراد بالأثيم: الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل، وذلك أنه كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر[٣] ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقَّموا، سخريةً واستهزاءً بكلام الله، قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي يُقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجرّوه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرّه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزُّ المكرَّم! قال عكرمة: لقي النبي ﷺ أبا جهل فقال النبي ﷺ: إنَّ الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال: بأي شيء تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[٤] ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا، فذوقوه اليوم ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ والجمع في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.. ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الله في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة ولهذا قال بعده: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي متقابلين في المجالس يستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضاً بالحور الحسان في الجنان، قال

---

(١) التفسير الكبير ٢٥١/٢٧
(٢) البحر المحيط ٣٩/٨
(٣) تفسير القرطبي ١٤٩/١٦
(٤) القرطبي ١٥١/١٦

البيضاوي. أي قرناهم بالحور العين ، والحوراء : البيضاء ، والعيناء : عظيمة العينين (١) وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن المحادثات والأسمار من أقوى أسباب راحة الخاطر ، وانفراجه عن الهم. ثم ذكر الحور الحسان لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل : «ثلاثة تنفي عن القلب الحزن : الماء ، والخضرة ، والوجه الحسن» ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة ، لا يخافون انقطاعها ، آمنين من التخمة والأمراض ، فلا تعب في الجنة ولا نصب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد لهم موت بل الخلود الأبدي ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي خلصهم ونجاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي أعطوه من النعيم ، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك وهي لسان العرب لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ، فإنهم منتظرون هلاكك ، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة ، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين.

البلاغة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١- صيغة المبالغة ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾

٢- الطباق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾.

٣- تحريك الهمة لحصول الإيمان والتصديق ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

٤- الإيجاز بحذف بعض الكلام «فأسر بعبادي» أي وقلنا له إن أسر.

٥- الاستعارة اللطيفة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي لم تتغير لهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم ، والعرب يقولون في التعظيم : بكت عليه السماء والأرض ، وأظلمت له الدنيا ، ويقولون في التحقير : مات فلان فلم تخشع له الجبال.

٦- أسلوب التعجيز ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٧- أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

٨- التعجيب وإظهار الأسى والحسرة ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

٩- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾.

١٠- السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله اقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان»

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٨٢

بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية ، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع «الإيمان بالله تعالى ووحدانيته ، الإيمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام ، الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء» ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره ، وهو اللهُ العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه ، الذي أنزل كتابه المجيد رحمةً بعباده ، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير .

* ثم ذكرت الآيات الكونية المبثة في هذا العالم الفسيح ، ففي السموات البديعة آياتٌ ، وفي الأرض الفسيحة آياتٌ ، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آياتٌ ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الرياح والأمطار آياتٌ ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وقدرته ووحدانيته .

* ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن ، الذين يسمعون آيات الله ، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً ، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم .

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه ، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم ، ويعلموا أن الله وحده هو مصدر هذه النعم ، الظاهرة والباطنة ، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله .

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم ، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان ، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام ، وبيَّنت أنه لا يستوي في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين ، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار ، ثم بيَّنت سبب ضلال المشركين ، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً حتى طُمست بصيرتهم فلن يهتدوا إلى الحق أبداً .

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تنقسم الإنسانية إلى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

التسمية : سميت «سورة الجاثية» للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب ، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب ، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحقاً إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان !!

قال الله تعالى ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .. إلى .. وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠)

اللغَة: ﴿بَثَّ﴾ نشر وفرّق ﴿تَصْرِيفِ﴾ تقليب، صرّف الله الريح قلّبها من جهة إلى جهة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والهلاك ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذّاب، والإفك: الكذب ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رِّجْزٍ﴾ أشد العذاب ﴿يُصِرُّ﴾ أصرَّ على الشيء: عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يُغْنِي﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ ﴿بَصَائِرُ﴾ دلائل ومعالم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

التفسير: ﴿حم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن(1) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله، العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إنَّ في خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، والأمور البديعة، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته، لقوم يصدّقون بوجود الله ووحدانيته ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وفي خلقكم أيها الناس من نطفة ثم من علقة، متقلبة في أطوار مختلفة إلى تمام الخلق، وفيما

(1) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير.

بشره تعالى ويذرءه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض، آياتٌ باهرةٌ أيضاً لقوم يصدِّقون عن إذعان ويقين بقدرة رب العالمين ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار، واتبين لا يفتران، هذا بظلامه وذاك بضيائه، بنظام محكم دقيق ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير. وسمَّى تعالى المطر رزقاً لأنَّ به يحصل الرزق [1] ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعد ما كانت هامدةً يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فأخرج فيها من أنواع الزروع والثمرات والنبات ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي وفي تقليب الرياح جنوباً وشمالاً، باردة وحارة ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات ساطعة وحججه على وجود الله ووحدانيته، لقوم لهم عقول نيرة وبصائر مشرقة قال الصاوي: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير: أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض، وأنه لابدَّ لهما من صانع آمَنَ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه [2] ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه، الدالة على وحدانيته وقدرته، نقصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله، ولم يؤمنوا بحججه وبراهينه، فبأي كلام يؤمنون ويصدِّقون؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وإعجازه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي هلاك ودمار لكل كذَّاب مبالغ في اقتراف الآثام قال الرازي: وهذا وعيدٌ عظيم، والأفَّاك الكذَّاب، والأثيمُ المبالغ في اقتراف الآثام [3] ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه، وهي في غاية الوضوح والبيان ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي ثم يدوم على حاله من الكفر، ويتمادى في غيه وضلاله، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشره يا محمد بعذاب شديد مؤلم، وسمَّاه (بشارة) تهكماً بهم؛ لأن البشارة هي الخبر السار قال في التسهيل: وإنما عطفه بـ (ثم) لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك في العقل والطبع [4] قال المفسرون: نزلت في (النضر بن الحارث) كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد، سخر واستهزأ بها ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي أولئك الأفاكون المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق ﴿وَلَا يُغْنِي

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٨
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٣
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦١
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٨

يَكْسِبُونَ﴾ وعيدٌ وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الآثام والإِجرام، والتنكير للتحقير ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي من فعل خيراً في الدنيا فنفعه لنفسه، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده، فيجازي كُلاً بعمله، المحسن بإِحسانه، والمسيء بإِساءته.. ولما ذكر النعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة، وفصل الحكومات بين الناس، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب، والأقوات والثمار ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم قال الصاوي: والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال: لا تحزن يا محمد على كفر قومك، فإِنا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا بل أصرّوا على الكفر، فكذلك قومك(1) ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ أي بيَّنا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه قال ابن عباس: يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها(2) ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وعناداً وطلباً للرئاسة قال الإِمام الفخر: والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم وإِنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، فلذلك علموا وعاندوا(3) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وفي الآية زجرٌ للمشركين أن يسلكوا مسالك من سبقهم من الأمم الباغية الطاغية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ واضحة، ومنهجٍ سديد رشيد من أمر الدين، فاتبع ما أُوحي إليك ربك من الدين القيم ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تتبع ضلالات المشركين قال البيضاوي: لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش حيث قالوا: ارجع إلى دين آبائك(4) ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي وإن الظالمين يوالي بعضهم بعضاً في الدنيا ولا وليّ لهم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب، وهدى ورحمة لمن آمن به وأيقن.

(1) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٥٥ (2) حاشية الجمل ٤/١٢٤
(3) التفسير الكبير ٢٧/٢٦٥ (4) البيضاوي على زاده ٣/٢٢٣

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا ... إلى ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٧).

المناسَبَة: لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل، وبيّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور.

اللغَة: ﴿اجْتَرَحُوا﴾ اكتسبوا والاجتراح: الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غِشَاوَةً﴾ غطاء وغشى الشيء غطاه ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الركب لشدة الهول، جثا يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نَسْتَنْسِخُ﴾ استنساخ الشيء: أمر بكتابته وتدوينه ﴿حَاقَ﴾ نزل وأحاط ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فقبل مني عذري ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ العظمة والمُلك والسلطان.

سَبَبُ النّزول: روي أن أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق، فقال له: مه، وما دلك على ذلك؟ فقال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن!! والله إني لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدّقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى لا أتبعه أبداً، فنزلت ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ...﴾(١) الآية.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ۝ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۝ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ

(١) رواه مقاتل، كما في القرطبي ١٦/١٧٠.

إنكار القيامة، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي وقال المشركون: لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، يموت بعضنا ويحيا بعضنا، ولا آخرة، ولا بعث، ولا نشور، قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معادٌ ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه [1] ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان، وتعاقبُ الأيام قال الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة [2]. قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجة ولا بينة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون، ويتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت آيات القرآن على المشركين، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ما كان مُتَمسَّكُهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا: أحيوا لنا آباءنا الأولين، إن كان ما تقولونه حقًا، سُمّي قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطفًا هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ثم بعد الموت يجمعكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة، الذي لا شك فيه ولا ارتياب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والجزاء.

ثم بيَّن تعالى إمكان الحشر والنشر وذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع، كما يجثو الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف الذليل قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه [3] ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم: في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/٣١٤ .
(٢) التفسير الكبير ٢٧/٢٧٥
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٤ .

زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل: فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[1] ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي كنا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم، وإثباتها عليكم قال المفسرون: نستنسخ هنا بمعنى نكتب، وحقيقة النسخ هو النقل من أصلٍ إلى آخر، وقال ابن عباس: تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يقول: ألستم عرباً، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[2]؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كلٍّ من المطيعين والعاصين فقال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا، فيدخلهم الله في الجنة، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزّل رحمة الله ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم، البيّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي وأمّا الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله؟ ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فتكبرتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم: إن البعث كائن لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي والقيامة آتيةٌ لا شك في ذلك ولا ريب ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي قلتم لغاية عتوكم: أيّ شيء هي؟ أحقٌّ أم باطل؟ قال البيضاوي: قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها[3] ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي لا نصدّق بها ولكن نسمع الناس يقولون: إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهماً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقيناً، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي وظهر لهم في الآخرة نتائج أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي ويقال لهم: اليوم نتركهم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي ومستقركم في نار جهنم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها، حتى ظننتم ألاّ حياة سواها، وألاّ بعث ولا نشور ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي فاليوم لا يُخرجون من النار، ولا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٠ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٥١ ومختصر ابن كثير ٣/ ٣١٣ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ١٢٢ .

يُطلب منهم أن يُرضوا ربَّهم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فلله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه؛ لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله العظمة والجلال، والبقاء والكمال في السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بإنّ واللام ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله.

٢- صيغة المبالغة ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة.

٣- الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة تكون بالخير، واستعمالها بالشر تهكم.

٤- المجاز المرسل ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي مطر، مجاز مرسل علاقته السببية؛ لأن الرزق لا ينزل من السماء، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق.

٥- التشبيه المرسل ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه لم يسمع آيات القرآن.

٦- المبالغة بذكر المصدر ﴿هَذَا هُدًى﴾ كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى.

٧- الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ... وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لإظهار الامتنان.

٨- طباق السلب ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩- المجاز المرسل ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله.

١٠- الطباق بين ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وبين ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وبين ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾.

١١- الاستعارة التصريحية ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه.

١٢- الالتفات ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب.

١٣- الاستعارة التمثيلية ﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ مثّل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية، والمراد من الآية: نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض له النسيان.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية»

تفسير سورة الأحقاف

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية وأهدافها نفس أهداف السور المكية، العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول «الرسالة والرسول» لإثبات صحة رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن.

* تحدثت السورة في البدء عن القرآن العظيم المنزل من عند الله بالحق، ثم تناولت الأوثان التي عبدها المشركون وزعموا أنها آلهة مع الله تشفع لهم عنده، فبيَّنت ضلالهم وخطأهم في عبادة ما لا يسمع ولا ينفع، ثم تحدثت عن شبهة المشركين حول القرآن، فردَّت على ذلك بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع.

* ثم تناولت نموذجين من نماذج البشرية في هدايتها وضلالها، فذكرت نموذج الولد الصالح، المستقيم في فطرته، البارّ بوالديه، الذي كلما رشد سنه وتقدم في العمر ازداد تُقى وصلاحاً وإحساناً بوالديه .. ونموذج الولد الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاقّ لوالديه، الذي يهزأ ويسخر من الإيمان والبعث والنشور ومآل كل منهما.

* ثم تحدثت السورة عن قصة «هود» عليه السلام مع قومه الطاغين «عاد» الذين طغوا في البلاد واغتروا بما كانوا عليه من القوة والجبروت، وما كان من نتيجتهم حيث أهلكهم الله بالريح العقيم، تحذيراً لكفار قريش من عقوبتهم واستكبارهم على أوامر الله وتكذيبهم للرسول ﷺ.

* وختمت السورة الكريمة بقصة النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن وآمنوا به ثم رجعوا منذرين إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان، تذكيراً للمعاندين من الإنس بسبق الجن لهم إلى الإسلام.

التسمية: سميت «سورة الأحقاف» لأنها مساكن عاد الذين أهلكهم الله بطغيانهم وجبروتهم، وكانت مساكنهم بالأحقاف من أرض اليمن ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ..﴾ الآية.

اللغَة: ﴿شِرْكٌ﴾ شركة ونصيب ﴿أَثَارَةٍ﴾ بقية من الشيء ﴿تُفِيضُونَ﴾ الإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع يقال: أفاضوا في الحديث اندفعوا فيه، وأفاض الناس من عرفات أي دفعوا منها ﴿بِدْعًا﴾ البدع بالكسر الشيء المبتدع قال الرازي: والبِدْعُ والبديع من كل شيء المبدَع، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السُّنَّة[1] ﴿إِفْكٌ﴾ كذب ﴿كُرْهًا﴾ بكره ومشقة ﴿فِصَالُهُ﴾ فطامه ﴿أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ﴿أُفٍّ﴾ كلمة تضجر وتبرم ﴿خَلَتْ﴾ مضت.

(١) التفسير الكبير ٢٨/٧.

تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها آلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾؟ أي أرشدوني وأخبروني أيَّ شيء خلقوا من أجزاء الأرض، ومن على سطحها من إنسانٍ أو حيوان؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟ أي أم لهم مشاركة ونصيب مع الله في خلق السموات؟ ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة من عند الله قبل هذا القرآن يأمركم بعبادة هذه الأصنام؟ وهو أمر تعجيز؛ لأنهم ليس لهم كتابٌ يدل على الإشراك بالله، بل الكتب كلُّها ناطقة بالتوحيد ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي أو بقية من علمٍ من علوم الأولين شاهدة بذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنها شركاء مع الله، قال في البحر: طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ واحدٍ يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله، أو بقيةٍ من علوم الأولين، والغرضُ توبيخهم؛ لأن كل كتب الله المنزَّلة ناطقة بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم مستند من نقلٍ أو عقل[1]. ثم أخبر تعالى عن ضلال المشركين فقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؟ أي لا أحد أضلُّ وأجهل ممن يعبد أصنامًا لا تسمع دعاء الداعي، ولا تعلم حاجات المحتاجين، ولا تستجيب لمن ناداها أبدًا؛ لأنها جمادات لا تسمع ولا تعقل ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي وهم لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين؛ وفيه تهكم بها وبعبدتها، وإنما ذكر الأصنام بضمير العقلاء؛ لأنهم لما عبدوها ونزَّلوها منزلة من يضر وينفع، صحَّ أن توصف بعدم الاستجابة وبعدم السمع والنفع، مجاراة لزعم الكفار ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي وإذا جمع الناس للحساب يوم القيامة كانت الأصنام أعداءً لعابديها يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي وتتبرأ الأصنام من العبدة عابديها، قال المفسرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عابديها وتقول: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ والله على كل شيء قدير[2] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ظاهرات أنها من كلام الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي قال الكافرون عن القرآن الحق لما جاءهم من عند الله ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي هذا سحرٌ لا شبهة فيه ظاهر كونه سحرًا، وأتى وضع الظاهر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير تسجيلاً عليهم بكمال الكفر والضلالة، قال في البحر: وفي قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ تنبيهٌ على أنهم لم يتأملوا ما يُتلى عليهم، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عنادًا وظلمًا، ووصفوه بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه[3] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي أيقولون: اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من تلقاء نفسه؟ وهو إنكار توبيخي ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي قل إن افتريته على سبيل الفرض فالله حسبي في ذلك وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه،

---

(١) البحر المحيط ٨/٥٥.
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٨/٦.
(٣) البحر المحيط ٨/٥٦.

ولا تقدرون أنتم على أن تردُّوا عني عذاب الله، فكيف أفتريه من أجلكم وأتعرض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي هو جلَّ وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وتندفعون به من قولكم هو شعر، هو سحر، هو افتراء، وغير ذلك من وجوه الطعن ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى أن يكون تعالى شاهداً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والتبليغ، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي وهو الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين قال أبو حيان: وفيه وعدٌ لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر، وإشعارٌ بحلمه تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة[1] ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي لست أول رسول طرق العالم، ولا جئت بأمرٍ لم يجىء به أحدٌ قبلي، بل جئت بما جاء به ناسٌ كثيرون قبلي، فلأي شيء تنكرون ذلك عليَّ؟ والبِدْعُ والبديعُ من الأشياء هو الذي لم يُرَ مثله، قال ابن كثير: أي ما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فقد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم[2] ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي ولا أدري بما يقضي الله عليَّ وعليكم، فإن قدر الله مغيَّب ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أتبع إلا ما ينزله الله عليَّ من الوحي، ولا أبتدع شيئاً من عندي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وما أنا إلا رسولٌ منذرٌ لكم من عذاب الله، بيِّن الإنذار بالشواهد الظاهرة، والمعجزات الباهرة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أي قل يا محمد: أخبروني يا معشر المشركين إن كان هذا القرآن كلام الله حقاً وقد كذبتم به وجحدتموه، وجوابه محذوف تقديره: كيف يكون حالكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي وقد شهد رجل من علماء بني إسرائيل على صدق القرآن، فآمن به واستكبرتم أنتم عن الإيمان، كيف يكون حالكم، ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟ قال الزمخشري: وجوابُ الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ويدلُّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3] أي لا يوفق للخير والإيمان من كان فاجراً، قال المفسرون: والشاهد من بني إسرائيل هو (عبد الله بن سلام) وذلك حين قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءه ابن سلام ليمتحنه، فلما نظر إلى وجهه علم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي: ما أولُ أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فلما أجابه ﷺ قال: أشهد أنك رسول الله حقاً[4] .. إلخ ثم ردَّ تعالى على شبهة أخرى من شبه المشركين فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي وقال كفار مكة في حق المؤمنين: لو كان هذا القرآن والدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء الضعفاء!! وقال ابن كثير: يعنون (بلالاً)

---

(١) البحر المحيط ٨/٥٦. (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣١٦.

(٣) تفسير الكشاف ٣/٤٤٦.

(٤) قصة إسلام عبد الله بن سلام مفصلة في صحيح البخاري.

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي قال رب ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديَّ حتى ربياني صغيرًا ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي ووفقني لكي أعمل عملاً صالحًا يرضيك عني ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل ذريتي ونسلي صالحين قال شيخ زاده: طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء: الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذه كمال السعادة البشرية[1] ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وإني من المستمسكين بالإسلام قال ابن كثير: وفي الآية إرشادٌ لمن بلغ الأربعين أن يجدِّد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[2] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر نتقبل منهم طاعاتهم ونجازيهم على أعمالهم بأحسنها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.. ولما مثَّل تعالى لحال البارّ بوالديه وما آل إليه حاله من الخير والسعادة، مثَّل لحال الإنسان العاقّ لوالديه وما يئول إليه أمره من الشقاوة والتعاسة فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ أي وأمّا الولد الفاجر الذي يقول لوالديه إذا دعواه إلى الإيمان أُفٍّ لكما أي قبحًا لكما على هذه الدعوة ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي أتعدانني أن أُبعث بعد الموت وقد مضت قرونٌ من الناس قبلي ولم يُبعث منهم أحد؟ ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي وأبواه يسألان الله أن يغيثه ويهديه للإسلام قائلين له: ويلك آمن بالله وصدِّق بالبعث والنشور وإلا هلكت ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعدُ الله صدقٌ لا خُلف فيه ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فيقول ذلك الشقي: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث إلا خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون في الكتب مما لا أصل له، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي أولئك المجرمون هم الذين حقَّ عليهم قول الله بأنهم أهل النار قال القرطبي: أي وجب عليهم العذاب وهي كلمة الله، كما في الحديث «هؤلاء في النار ولا أبالي»[3] ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي في جملة أمم من أصحاب النار قد مضت قبلهم من الكفرة الفجار من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي كانوا كافرين لذلك ضاع سعيهم وخسروا آخرتهم، وهو تعليل لدخولهم جهنم قال الإمام الفخر: قال بعضهم: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصّديق قبل إسلامه، والصحيح أنه لا يراد بالآية شخص معيَّن، بل المراد منها كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحقّ فأباه وأنكره. ويدل عليه أن الله تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ بأنه من الذين حقَّ عليهم القول بالعذاب، ولا

---

(١) حاشية البيضاوي ٣/٣٦١. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٢٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٦/١٩٨.

﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

التفسير: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي واذكر لهم يا محمد يوم يكشف الغطاء عن نار جهنم، وتبرز للكافرين فيقربون منها وينظرون إليها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ في الكلام حذف أي ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: أذهبتم طيباتكم؟! أي لقد نلتم واستمتعتم بلذائذ الدنيا وشهواتها فلم يبق لكم نصيب اليوم في الآخرة قال في البحر: والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب، والملابس والمفارش، والمراكب والمواطئ، وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية[1] ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي وتمتعتم بتلك الملذات والطيبات في الدنيا، قال المفسرون: المراد بالآية إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل انشغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم، ولهذا قال بعده ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الجزاء - تنالون عذاب الذل والهوان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بسبب استكباركم في الدنيا عن الإيمان وعن الطاعة ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله، وارتكاب الفجور والآثام قال الإمام الفخر: وهذه الآية لا تدل على المنع من التنعم؛ لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبخ الله الكافر؛ لأنه يتمتع بالدنيا ولا يؤدي شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ودليله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ؟! نعم لا يُنكر أن الاحتراز عن التنعم أولى، وعليه يُحمل قول عمر: «لو شئت لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة»[2] وقال في التسهيل: الآية في الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحمًا: أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله في بطنه! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ممن قال الله فيهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[3]!! ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه عاد ليعتبروا بها ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي حين حذّر قومه من عذاب الله إن لم يؤمنوا وهم مقيمون بالأحقاف وهي تلال عظيمة من الرمل

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣.
(٢) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٤.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٤.

لمشركي قريش، أي إن الجنّ سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصرّون على الكفر[1] ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي فلما فُرغ من قراءة القرآن رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا، قال الرازي: وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم؛ لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا[2] ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي سمعنا كتابًا رائعًا مجيدًا منزلًا على رسول من بعد موسى قال ابن عباس: إنّ الجنّ لم تكن قد سمعت بأمر عيسى عليه السلام[3] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدّقًا لما قبله من التوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي هذا القرآن يرشد إلى الحقّ المبين، وإلى دين الله القويم ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي أجيبوا محمدًا .. فيما يدعوكم إليه من الإيمان وصدّقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يمحو الله عنكم الذنوب والآثام ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي ويخلّصكم وينجكم من عذاب شديد مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا ترهيبٌ بعد الترغيب أي ومن لم يؤمن بالله ويستجب الدعوة رسوله، فإنه لا يفوت الله طلبًا، ولا يعجزه هربًا ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي وليس له أنصار يمنعونه من عذاب الله ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي أولئك الذين لا يستجيبون لدعوة الله في خسرانٍ واضح، وإلى هنا آخر كلام الجن الذين سمعوا القرآن، ثم ذكر تعالى الأدلة على قدرته ووحدانيته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أولم يعلم هؤلاء الكفار المنكرون للبعث والنشور أن الله العظيم القدير الذي خلق السموات والأرض ابتداءً من غير مثال سابق ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي ولم يضعف ولم يتعب بخلقهنَّ ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟ أي قادرٌ على أن يحيي الموتى بعد الفناء، ويحييهم بعد تمزق الأشلاء؟ ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي بلى إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة، واذكر هم يوم يعرضون على النار فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؟ أي أليس هذا العذاب الذي تدعونه حق؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا بلى وعزة ربنا، أكّدوا كلامهم بالقسم طمعًا في الخلاص، قال الفخر الرازي: والمقصود بالآية التهكم بهم، والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4] ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فيقال لهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين كما صبر مشاهير الرسل الكرام وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي ولا تدع على كفار قريش بتعجيل العذاب فإنه نازل بهم لا محالة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي كأنهم حين يعاينون العذاب في الآخرة

(١) تفسير القرطبي ٢١٠/١٦ . (٢) التفسير الكبير ٣٣/٢٨ .
(٣) تفسير أبي السعود ٧٠/٥ . (٤) التفسير الكبير ٣٤/٢٨ .

لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من النهار، مما يشاهدون من شدة العذاب وطوله ﴿بَلَاغٌ﴾ أي هذا بلاغ وإنذار ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي لا يكون الهلاك والدمار إلا للكافرين الخارجين عن طاعة الله.

تنبيه: قال المفسرون: إن الجن كانوا يسترقون السمع، فلما حُرست السماء بالشهب، قال إبليس: إن هذا الذي حدث بالسماء من أمر حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فذهب ركبٌ من نصيبين - وهم أشراف الجن - إلى تهامة، فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبي ﷺ يصلي ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا، فلما انتهى ﷺ من القراءة آمنوا ثم رجعوا إلى قومهم منذرين فدعوهم إلى الإيمان، ووفدوا بعد ذلك جماعات جماعات إلى النبي ﷺ، فذلك سبب قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التعجيز ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أمرٌ يراد منه التعجيز.

٢- جناس الاشتقاق ﴿تَدْعُونَ ... وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ ومثله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾

٣- الطباق بين ﴿آمَنَ ... وَكَفَرْتُمْ﴾ وبين ﴿يَنْظُرُ ... وَلَتَرَى﴾.

٤- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم قال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ فذكر الخاص بعد العام لزيادة العناية والاهتمام بشأن الأم لحقها العظيم.

٥- الطباق بين ﴿حَمَلَتْهُ ... وَوَضَعَتْهُ﴾

٦- صيغة الحصر ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

٧- الاستعارة ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ استعار الدرجات للمراتب، للسعداء والأشقياء.

٨- الإيجاز بالحذف مع التوبيخ والتقريع ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي يقال لهم: أذهبتم

٩- الإطناب بتكرار اللفظ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم قال ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ﴾ لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم

١٠- توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام وحسن تناسقه وهو من المحسنات البديعية مثل ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلخ

تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ... إلى ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩).

اللغة: ﴿أَضَلَّ﴾ أبطل ومحق ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح والأسر قال في المصباح: أثخن في الأرض إثخاناً: سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً، وأثخنته الجراحة أوهنته وأضعفته(١) ﴿الْوَثَاقَ﴾ القيد والحبل الذي يربط به ﴿مَنًّا﴾ إطلاق الأسير من غير فدية ﴿أَوْزَارَهَا﴾ آلاتها وأثقالها من الأسلحة والعتاد يقال: وضعت الحرب أوزارها أي انقضت الحرب وانتهت، وأصل الأوزار الأثقال من السلاح والخيل قال الشاعر:

وأعددت للحرب أوزارها ... رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً(٢)

﴿تَعْسًا﴾ شقوة وهلاكاً ﴿آسِنٍ﴾ متغير ومنتن ﴿حَمِيمًا﴾ حاراً شديد الحرارة ﴿آنِفًا﴾ الآن، من قولهم: استأنف الأمر إذا ابتدأه ﴿أَشْرَاطُهَا﴾ أمارات وعلامات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

---

(١) المصباح المنير مادة ثخن.

(٢) البيت للأعشى، كذا في القرطبي ١٦/٢٢٩.

مخيَّرون بعد أسرهم إمّا أن تمنُّوا عليهم وتطلقوا سراحهم بلا مقابل من مال، أو تأخذوا منهم الأموال فداءً لأنفسهم؛ ولكنْ بعد أن تكونوا قد كسرتم شوكتهم، وأضعفتموهم بكثرة القتل والجراح ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي حتى تنقضي الحرب وتنتهي بوضع آلاتها وأثقالها، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمحاربين لهم، وذلك بنصرة الإسلام وإذلال المشركين ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي الأمر فيهم ما ذُكر، ولو أراد الله لانتصر منهم وأهلكهم بقدرته، دون أن يكلفكم - أيها المؤمنون - إلى قتالهم، قال ابن كثير: أي لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكالٍ من عنده[1] ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكنه أمركم بجهادهم ليختبر إيمانكم ويبتليكم، فيظهر حال الصادق في الإيمان من غيره كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ وليبتلي المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين، فيصير من قُتل من المؤمنين إلى الجنة، ومن قُتل من الكافرين إلى النار؛ ولهذا قال ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي والذين استشهدوا في سبيل الله فلن يُبطل الله عملهم، بل يُكثِّره ويضاعفه وينميه ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي سيهديهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، بتوفيقهم إلى العمل الصالح وإرشادهم إلى الجنة دار الأبرار ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي ويُصلح حالهم وشأنهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي ويدخلهم الجنة دار النعيم، بيَّنها لهم بحيث يعلم كلُّ واحدٍ منزله ويهتدي إليه قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا[2] وفي الحديث «والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا»[3] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ أي إن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي ويثبتكم في مواطن الحرب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أي والذين كفروا بالله وآياته فهلاكًا وتعاسة لهم، وهو دعاءٌ عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأحبطها؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك التعس والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الكتب والشرائع قال الزمخشري: أي كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام؛ لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشقَّ عليهم ذلك وتعاظمهم[4] ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أذهبها وأضاعها؛ لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والشرك محبطٌ للعمل[5]، ثم خوَّفهم تعالى عاقبة الكفر فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أفلم يسافر هؤلاء ليروا ما حلَّ بمن سبقهم من الأمم الطاغية كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٣ (٢) البحر المحيط ٨/ ٧٥
(٣) جزء من حديث رواه البخاري (٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣
(٥) قال في الظلال: إن حبوط الأعمال هنا تعبير تصويري على طريقة القرآن في التصوير، فالحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعًا من المرعى أو نبات الصحراء ينتهي بها إلى الهلاك والموت، وكذلك هؤلاء الكفار انتفخت أعمالهم وورمت ثم انتهت إلى الهلاك والضياع، إنه تصوير وحركة مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله، ثم تباهوا بالأعمال المنتفخة كبطون الأنعام حين ترعى ذلك النبت السام. الظلال ٢٦/ ٩٠

المجرمين، كيف كان مآلهم؟ وماذا حلَّ بهم من العذاب؟ فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم الله، واستأصل كل ما يختص بهم من مالٍ وبنين ومتاع، فإذا هو أنقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض (ودمَّر عليهم) أبلغ من دمَّرهم، لأن معناها أهلكهم مع أموالهم ودورهم وأولادهم وأطبق عليهم الهلاك إطباقاً فلم يبق شيء إلا شمله الدمار ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي ولكفار مكة أمثال تلك العاقبة الوخيمة والعذاب المدمّر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وليُّهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم ولا معين ولا مغيث، ثم بيَّن تعالى مآل كلٍّ من الفريقين - المؤمنين والكافرين - في الآخرة فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخل المؤمنين جنات النعيم، التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي والكافرون في الدنيا يتمتعون بشهواتها ولذائذها، ويأكلون كما تأكل البهائم، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي وجهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة قال الزمخشري: المراد أنهم يتمتعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح، والنار مثوىً ومقامٌ لهم في الآخرة[1]. ثم سلَّى تعالى رسوله ﷺ فقال ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي وكم من أهل قرية[2] عاتية ظالمة كانوا أقوى من أهل مكة الذين أخرجوك منها ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي أهلكناهم بأنواع العذاب فلم ينصرهم أحد فكذلك نفعل بهؤلاء، قال ابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة واختفى بالغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة، التفت إلى مكة ثم قال: «إنكِ لأحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إليَّ ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت» فنزلت الآية[3] ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي هل من كان على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر دينه ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾؟ أي كمن زُيِّن له عمله القبيح فرآه حسناً؟! ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي انهمكوا في الضلال حتى عبدوا الهوى، ليس هذا كهذا، وإنما جاء بصيغة الجمع مراعاةً للمعنى قال المفسرون: المراد (بمن كان على بينة) رسول الله ﷺ والمؤمنون ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أبا جهل وكفار قريش واللفظ أعمُّ، لأن الغرض المقابلة بين من يعبد الله، وبين من يعبد هواه، ولذلك مثَّل بعده بالفارق الكبير بين الجنة والنار فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي صفة الجنة العجيبة العظيمة الشأن، التي وعد الله بها عباده الأبرار وأعدَّها للمتقين الأخيار ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي فيها أنهار جاريات من ماء غير متغير الرائحة، قال ابن مسعود: أنهار الجنة تتفجر من جبل من مسك[4] ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي وأنهار جاريات من

---

(١) تفسير الكشاف ٤/٣٢٤.
(٢) الكلام على حذف مضاف أي من أهل قرية وهو مجاز مشهور.
(٣) حاشية الجمل على الجلالين ٤/١٤٥.
(٤) مختصر ابن كثير ٣/٣٣٢.

حليب في غاية البياض والحلاوة والدسامة، لم يحمض بطول المقام ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا، وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية»[1] ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي وأنهار جاريات من خمرٍ لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون، لأنه ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ وإنما قيّدها بأنها لذة للشاربين؛ لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلا فاسد المزاج، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة، يشربها أهل الجنة لمجرد الالتذاذ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي وأنهارٌ جارياتٌ من عسلٍ في غاية الصفاء وحسن اللون والريح، لم يخرج من بطون النحل قال أبو السعود: ﴿عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي لم يخالطه الشمع وفضلات النحل[2] ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ولهم في الجنة أنواعٌ متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار قال في حاشية البيضاوي: وفي ذكر الثمرات بعد المشروب إشارة إلى أنَّ مأكول أهل الجنة للَّذة لا للحاجة[3] ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ولهم فوق ذلك النعيم الحسن نعيمٌ روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان، وفي الحديث «أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» قال الصاوي: في الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[4] ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي كمن هو مخلّد في الجحيم؟ والاستفهام للإنكار أي لا يستوي من هو في ذلك النعيم المقيم، بمن هو خالد في الجحيم؟ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي وسُقوا مكان تلك الأشربة ماءً حارًّا شديد الغليان، فقطّع أحشاءهم من فرط حرارته؟ قال المفسرون: بلغ الماء الغاية في الحرارة، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطّع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[5] ولما بيّن تعالى حال الكافرين، ذكر حال المنافقين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة يستمعون إلى حديثك يا محمد ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي قالوا لعلماء الصحابة - كابن عباس وابن مسعود - ماذا قال محمدٌ قريبًا في تلك الساعة؟ قال ابن كثير: أخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئًا، فإذا خرجوا من عنده قالوا لأهل العلم من الصحابة: ماذا قال محمد ﴿آنِفًا﴾ أي الساعة، لا يعقلون ما قال ولا يكترثون به[6] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ختم على قلوبهم بالكفر ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ساروا وراء أهوائهم الباطلة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى وألهمهم رشدهم قال الإمام الفخر: لما بيّن تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع، ويستعيد ولا

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٤.
(٣) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٤٨.
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٨٤.
(٥) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٧.
(٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٢٣.

مستفيد، يعني أن حال المؤمن المهتدي بخلافه، فإنه يستمع فيفهم، ويعمل بما يعلم، وفيه فائدة وهي قطع عذر المنافق، فإنه لو قال ما فهمت كلامه لغموضه، يُردّ عليه بأن المؤمن فهم واستنبط، فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب (١) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فهل ينتظرون إلا قيام الساعة فجأة تبغتهم وهم ساهون غارون غافلون؟ ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي فقد جاءت أماراتها وعلاماتها، ومنها بعثة خاتم الرسل ﷺ ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، حيث لا ينفع ندم ولا توبة؟ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي فدم يا محمد على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي اطلب من الله المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم تصرفكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعدوا الزاد ليوم المعاد.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ .. إلى .. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٨) نهاية السورة.

المناسبة: كان بدء السورة في الحديث عن الكافرين، ثم جاء عن المؤمنين، وهنا يأتي الحديث عن المنافقين، وقد استغرق الجانب الأكبر من السورة باعتبارهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين، والآيات الكريمة تتحدث عن الجهاد وعن موقف المنافقين منه.

اللغة: ﴿سَوَّلَ﴾ زيّن وسهّل ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم الدفينة قال الجوهري: الضِّغن والضغينة: الحقد، وتضاغن القوم انطووا على الأحقاد (٢) ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿السَّلْمِ﴾ الصلح والموادعة ﴿يُحْفِكُمْ﴾ يلحّ عليكم يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنى واحد ﴿يَتِرَكُمْ﴾ ينقصكم يقال: وتره حقه أي نقصه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/٥٨. (٢) الصحاح للجوهري مادة ضغن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

التفسير: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي ويقول المؤمنون المخلصون شوقاً إلى الجهاد وحرصاً على ثوابه: هلّا أُنزلت سورة فيها الأمر بالجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي فإذا أُنزلت سورة صريحة ظاهرة الدلالة على الأمر بالقتال قال القرطبي ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ أي لم تنسخ، وقد قال قتادة: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين[1] ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي رأيت المنافقين الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي ينظرون إليك يا محمد تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كما ينظر من أصابته الغشية من حلول الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي فويلٌ لهم قال في التسهيل: وهي كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقوله تعالى ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[2] ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي طاعةٌ لك يا محمد، وقولٌ جميلٌ خيرٌ لهم وأفضل وأحسن، قال الرازي: وهو كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خيرٌ لهم أي أحسن وأمثل، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة ويدل عليه قوله ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كأنه قال: طاعة مخلصة، وقولٌ معروفٌ خيرٌ لهم[3] ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي فإذا جدَّ الجدُّ وفُرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فلو أخلصوا نياتهم وجاهدوا بصدق ويقين لكان ذلك خيراً لهم من المعاصي والعصيان، والجملة جواب الشرط ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام!! قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟! قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفتن بعد زمان الرسول[4] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي فأصمهم عن سماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/٢٤٣.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٤٩ وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي أحق وأجدر بهم وهو ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وما ذكرناه أظهر وهو اختيار القرطبي.

(٣) التفسير الكبير ٢٨/٦٦ (٤) البحر المحيط ٨/٨٢.

الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشد. قال القرطبي: أخبر تعالى أن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل(1) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ الاستفهام توبيخي أي أفلا يفهمون القرآن ويتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (أم) بمعنى (بل) وهو انتقالٌ من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على قفل القلوب وقسوتها حتى لا تقبل التفكر والتدبر، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مقفلة بأقفال حديدية فلا يصل إليها نور ولا إيمان. قال الرازي: إن القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر(2) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان، وبعد أن وضح لهم طريق الهداية بالدلائل الظاهرة والمعجزات الواضحة ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي الشيطان زين لهم ذلك الأمر، وغرّهم وخدعهم بالأماني وطول الأمل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال بسبب أنهم قالوا لليهود الذين كرهوا القرآن الذي نزله الله حسدًا وبغيًا ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي سنطيعكم في بعض ما تأمروننا به كالقعود عن الجهاد، وتثبيط المسلمين عنه وغير ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي وهو جل وعلا يعلم خفاياهم، وما يتآمرون من الكيد والدس والتآمر على الإسلام والمسلمين، قال المفسرون: قال المنافقون لليهود ذلك سرًا فأظهره الله تعالى وفضحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي فكيف يكون حالهم حين تحضرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم ومعهم مقامع من حديد يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ قال القرطبي: والمعنى على التخويف والتهديد أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر(3) قال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره(4) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق وكرهوا ما يرضي الله من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطل ما عملوا حال إيمانهم من أعمال البر ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾؟ أي أيعتقد المنافقون الذين في قلوبهم شك ونفاق أن الله لن يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ وأنه لن يظهر حقدهم وأحقادهم على الإسلام والمسلمين؟ لا بدَّ أن يفضحهم ويكشف أمرهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي لو أردنا لأريناك يا محمد أشخاصهم فعرفتهم عيانًا بعلاماتهم ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين لعلهم يتوبون ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي ولتعرفنَّ يا محمد المنافقين من فحوى كلامهم وأسلوبه.

---

(1) تفسير القرطبي ١٦/٢٤٤ (2) التفسير الكبير للرازي ٢٨/٦٦
(3) القرطبي ١٦/٢٥١ (4) البحر المحيط ٨/٨١

فيما يعرضونه بك من القول الذي ظاهره إيمان وإسلام وباطنه كفر ومسبّة قال الكلبي: لم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه [1] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بحسب قصدكم، ففيه وعدٌ ووعيد ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة حتى نعلم علم ظهورٍ المجاهدين في سبيل الله، والصابرين على مشاق الجهاد ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي ونختبر أعمالكم حسنها وقبيحها قال في التسهيل: المراد بقوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي نعلمه علماً ظاهراً في الوجود تقوم به الحجة عليكم، وقد علم الأشياء قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا [2] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي عادوا الرسول وخرجوا عن طاعته من بعد ما ظهر لهم صدقه وأنه رسول الله بالحجج والآيات ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لن يضروا الله بكفرهم وصدّهم شيئاً من الضرر، وسيبطل أعمالهم من صدقة ونحوها فلا يرون لها في الآخرة ثواباً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي امتثلوا أوامر الله وأوامر رسوله ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي ولا تُبطلوا أعمالكم بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق، والعجب والرياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بآيات الله وصدّوا الناس عن طريق الهدى والإيمان ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي وماتوا على الكفر ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي فلن يغفر الله لهم بحالٍ من الأحوال، وهذا قطعٌ بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال أبو السعود: وهذا حكمٌ يعمّ كل من مات على الكفر، وإن صحّ نزوله في أصحاب القليب [3] ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى المهادنة والصلح مع الكفار إذا لقيتموهم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون؛ لأنكم مؤمنون ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي والله معكم بالعون والنصر ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم قال ابن كثير: وفي قوله ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء [4] ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا زائلة فانية، لا قرار لها ولا ثبات، كاللعب واللهو الذي يتلهى به الأولاد قال شيخ زاده: بيّن تعالى أن الدنيا وما فيها من الحظوظ العاجلة، لا يصلح مانعاً من الإقدام إلى الجهاد، وما يؤدي إلى ثواب الآخرة، لكونها بمنزلة اللهو واللعب في سرعة زوالها، وأن الآخرة هي الحياة الباقية، فلا ينبغي أن يكون حبّ الدنيا والحرص على ما فيها من اللذات والشهوات سبباً للجبن عن العدو والتخلف عن الجهاد [5] ﴿وَإِن

---

(1) تفسير القرطبي ١٦/٢٥٣ .
(2) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥٠
(3) أبو السعود ٥/٧٨ .
(4) مختصر ابن كثير ٣/٣٣٨
(5) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٣٥٣ .

تفسير سورة الفتح

بين يدي السورة

* سورة الفتح مدنية، وهي تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات والأخلاق، والتوجيه.

* تحدثت السورة الكريمة عن (صلح الحديبية) الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم (فتح مكة) وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن جهاد المؤمنين، وعن (بيعة الرضوان) التي بايع فيها الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ..﴾ الآية.

* وتحدثت عن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا الظنون السيئة برسول الله ﷺ وبالمؤمنين، فلم يخرجوا معهم، فجاءت الآيات تفضحهم وتكشف سترهم ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا ..﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه - في المدينة المنورة - وحدّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، وهي دخول الرسول ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة فدخلها المؤمنون معتمرين مع الأمن والطمأنينة ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ..﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالثناء على الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار الأخيار ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ..﴾ الآية.

التسمية: سميت سورة الفتح لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ الآيات.

فضلها: نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال صلوات الله عليه: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ أخرجه الإمام أحمد.

٭ ٭ ٭

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ...﴾ إلى ... ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٧).

اللغَة: ﴿السَّكِينَةَ﴾ السكون والطمأنينة والثبات ﴿السَّوْءِ﴾ المساءة والحزن والألم، قال الجوهري: ساءه سوءًا بالفتح ومساءة نقيض سرّه، والاسم السُّوء بالضم، ودائرة السَّوْء يعني الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المساءة[1] ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾ تعظموه وتنصروه وتمنعوا الأذى عنه، وسمي التعزير في الحدود تعزيرًا؛ لأنه مانع من فعل القبيح ﴿نَكَثَ﴾ نقض البيعة والعهد ﴿بُورًا﴾ هلكى قال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، و﴿قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر، وبار فلان أي هلك[2] ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: تخلّف عن رسول الله ﷺ أعراب المدينة حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن استنفرهم معه حذرًا من قريش، وأحرم بعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشغل فنزلت ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ...﴾ الآية[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ

---

(١) الصحاح للجوهري.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/٢٦٨.
(٣) نفس المرجع السابق.

كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

التفسير: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي قد فتحنا لك يا محمد مكة فتحًا بيّنًا ظاهرًا، وحكمنا لك بالفتح المبين على أعدائك، والمراد بالفتح فتح مكة، وعده الله به قبل أن يكون، وذكره بلفظ الماضي لتحققه، وكانت بشارة عظيمة من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين، قال الزمخشري: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ من مكة عام الحديبية، وهو وعدٌ له بالفتح، وجيء به بلفظ الماضي على عادة ربّ العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى (١) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي ليغفر لك ربك يا محمد جميع ما فرط منك من ترك الأولى قال أبو السعود: وتسميته ذنبًا بالنظر إلى منصبه الجليل (٢) وقال ابن كثير: هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وفيه تشريفٌ عظيم لرسول الله ﷺ إذ هو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، ولما كان أطوع خلق الله بشره الله بالفتح المبين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر (٣) ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي ويكمل نعمته عليك بإعلاء الدين ورفع مناره ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويرشدك إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم، بما يشرعه لك من الدين العظيم ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًا منيعًا، فيه عزة وغلبة، يجمع لك به بين عز الدنيا والآخرة ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو جل وعلا الذي جعل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علاّم الغيوب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ولله - جلّت عظمته - كل جنود السماوات والأرض، من الملائكة والجن، والحيوانات، والصواعق المدمّرة، والزلازل، والخسف، والغرق، جنودٌ لا تُحصى ولا تُغلب، يسلطها على من يشاء، قال ابن كثير: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده الجهاد، لما له في ذلك من الحجة القاطعة والحكمة البالغة (٤) ولذلك قال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليمًا بأحوال خلقه،

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٦٣ وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح (صلح الحديبية) لما ترتب عليه من الآثار العظيمة من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام .. إلى غير ما هنالك، وإلى هذا ذهب ابن كثير.

(٢) أبو السعود ٥/ ٨٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٠ .

(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٤٦ .

حكيمًا في تقديره وتدبيره. قال المفسرون: أراد بإنزال السكينة في قلوب المؤمنين (أهل الحديبية) حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب، من صد الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصود، فلم يرجع منهم أحدٌ عن الإيمان، بعد أن هاج الناس وماجوا، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ وقال: ألست نبيَّ الله حقًا؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلم نعطِ الدنيَّة في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ... إلخ. ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ليدخلهم - على طاعتهم وجهادهم - حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحتها أنهار الجنة ماكثين فيها أبدًا ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي ويمحو عنهم خطاياهم وذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي وكان ذلك الإدخال في الجنات والتكفير عن السيئات، فوزًا كبيرًا وسعادةً لا مزيد عليها، إذ ليس بعد نعيم الجنة نعيم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي وليعذب الله أهل النفاق والإشراك، وقدَّمهم على المشركين؛ لأنهم أعظم خطرًا وأشد ضررًا من الكفار المجاهرين بالكفر ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي الظانين بربهم أسوأ الظنون، ظنوا أن الله تعالى لن ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين سيستأصلونهم جميعًا كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ قال القرطبي: ظنوا أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم أي عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين من الهلاك والدمار ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي سخط تعالى عليهم بكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وهيأ لهم في الآخرة نارًا مستعرة هي نار جهنم، وساءت مرجعًا ومنقلبًا لأهل النفاق والضلال ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تأكيد للانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين قال الرازي: كرر اللفظ؛ لأن جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانيًا لبيان إنزال العذاب على الكافرين ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي عزيزًا في ملكه وسلطانه، حكيمًا في صنعه وتدبيره قال الصاوي: ذكر هذه الآية أولاً في معرض الخلق والتدبير فذيَّلها بقوله: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وذكرها ثانيًا في معرض الانتقام فذيَّلها بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهو في منتهى الترتيب الحسن؛ لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين. ثم امتن تعالى على رسوله الكريم بتشريفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي إنا أرسلناك يا

---

(١) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري وفي سيرة ابن هشام.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/٢٦٥ (٣) التفسير الكبير ٢٨/٨٤.

(٤) حاشية الصاوي ٤/٩٢.

هو النفاق المحض، فهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار؛ لأنهم قالوه رياءً من غير صدقٍ ولا توبة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي قل لهم: من يمنعكم من مشيئة الله وقضائه، إن أراد أن يُلحق بكم أمرًا يضركم كالهزيمة، أو أمرًا ينفعكم كالنصر والغنيمة؟ قال القرطبي: وهذا ردٌّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضرَّ، ويُعجل لهم النفع ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم بل الله مطلع على ما في قلوبكم من الكذب والنفاق، ثم أظهر تعالى ما يخفونه في نفوسهم فقال ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي بل ظننتم أيها المنافقون أن محمدًا وأصحابه لن يرجعوا إلى المدينة أبدًا ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي وزَيَّن ذلك الضلال في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي ظننتم أنهم يُستأصلون بالقتل، ولا يرجع منهم أحد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي وكنتم قومًا هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لما بيَّن حال المتخلفين عن رسول الله، وبيَّن حال ظنهم الفاسد، وأنه يفضي بصاحبه إلى الكفر، حرَّضهم على الإيمان والتوبة على سبيل العموم والمعنى من لم يؤمن بالله ورسوله بطريق الإخلاص والصدق ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فإنَّا هيأنا للكافرين نارًا شديدة مستعرة، وهو وعيدٌ شديد للمنافقين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يرحم من يشاء من عباده ويعذب من يشاء، وهذا قطع لطمعهم في استغفار رسول الله لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي سيقول الذين تخلَّفوا عن الخروج مع رسول الله في عمرة الحديبية، عند ذهابكم إلى مغانم لتحصلوا عليها ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي اتركونا نخرج معكم إلى خيبر لنقاتل معكم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يريدون أن يُغيروا وعد الله الذي وعده لأهل الحديبية من جعل غنائم خيبر لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد قال القرطبي: إن الله تعالى جعل لأهل الحديبية غنائم خيبر عوضًا عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي قل لهم لا تتبعونا فلن يكون لكم فيها نصيب ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي كذلكم حكم الله تعالى بأن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب قبل رجوعنا منها ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي فسيقولون: ليس هذا من الله بل هو حسد منكم لنا على مشاركتكم في الغنيمة، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يفهمون إلا فهمًا قليلاً وهو حرصهم على الغنائم وأمور الدنيا ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية - كرَّر وصفهم بهذا الاسم إظهارًا لشناعته ومبالغةً في ذمهم - ستُدعون إلى حرب

تفسير القرطبي ١٦/٢٦٩ .

تفسير القرطبي ١٦/٢٧١

قوم أشداء هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أصحاب الردة ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي إما أن تقاتلوهم أو يدخلوا في دينكم بلا قتال ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي فإن تستجيبوا وتخرجوا لقتالهم يعطكم الله الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وإن تتخلفوا عن الخروج كما تخلفتم زمن الحديبية، يعذبكم الله عذابًا شديدًا مؤلمًا في نار جهنم. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فقال ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي ليس على هؤلاء إثم أو ذنب في ترك الخروج للجهاد لما بهم من الأعذار الظاهرة ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من يطع أمر الله وأمر الرسول يدخله جنات النعيم خالدًا فيها ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي ومن يتخلف عن الجهاد لغير عذر يعذبه الله عذابًا شديدًا في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ .. إلى .. ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ من آية (١٨) إلى نهاية السورة آية (٢٩).

المناسبة: لما ذكر تعالى حال المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ذكر تعالى حال المؤمنين المخلصين الذين بايعوا الرسول (بيعة الرضوان) تسجيلًا لرضى الله تعالى عنهم، وتخليدًا لمآثرهم الكريمة، وختم السورة الكريمة بالثناء على الصحابة الأبرار، بأبلغ ثناء وأكرم تمجيد.

اللغة: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ أظهركم وأعلاكم، ظفر بالشيء غلب عليه، وأظفره غلبه ﴿مَعْكُوفًا﴾ محبوسًا ومنه الاعتكاف ﴿مَّعَرَّةٌ﴾ المعرة: العيب والمشقة اللاحقة بالإنسان من العُرّ وهو الجرب ﴿تَزَيَّلُوا﴾ تميزوا ﴿الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة والغضب الشديد ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿شَطْأَهُ﴾ الشطء: الفراخ قال الجوهري: شطء الزرع فراخه والجمع أشطاء[2] ﴿فَآزَرَهُ﴾ قوّاه وأعانه وشدّه.

سبب النزول: عن أنس رضي الله عنه أن ثمانين من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من التنعيم متسلحين يريدون الغدر به وبأصحابه فأخذناهم أسرى فأنزل الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ..﴾ الآية[3].

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

---

(١) البحر ٨/٨٨ (٢) الصحاح للجوهري.
(٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٨٠.

غنموها من خيبر قال ابن كثير: هو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خيبر، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة[1] ولهذا قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي غالبًا على أمره، حكيمًا في تدبيره وصنعه، ولهذا نصركم عليهم وغنَّمكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أي وعدكم الله معشر المؤمنين- على جهادكم وصبركم- الفتوحات الكثيرة، والغنائم الوفيرة تأخذونها من أعدائكم، قال ابن عباس: هي المغانم التي تكون إلى يوم القيامة[2] قال في البحر: ولقد فتح نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى، وغنموا مغانم لا تعد وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان تصديقًا لوعده تعالى. وقدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور، وقد فتح أكثر من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه[3] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي فعجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد وقتال ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي ومنع أيدي الناس أن تمتد إليكم بسوء، قال المفسرون: المراد أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون الغنائم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام علامة واضحة تعرفون بها صدق الرسول فيما أخبركم به عن الله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي ويهديكم تعالى إلى الطريق القويم، الموصل إلى جنات النعيم بجهادكم وإخلاصكم، قال الإمام الفخر: والآية للإشارة إلى أنَّ ما أعطاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل الجزاء أمامهم، وإنما هي شيء عاجل عجَّله لهم لينتفعوا به. ولتكون آية لمن بعدهم من المؤمنين، تدل على صدق وعد الله في وصول ما وعدهم به كما وصل إليكم[4] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي وغنيمة أخرى بشَّرها لكم، لم تكونوا بقدرتكم تستطيعون عليها، ولكنَّ الله بفضله وكرمه فتحها لكم، والمراد بها فتح مكة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي قد استولى الله عليها بقدرته ووهبها لكم، فهي كالشيء المحاط به من جوانبه محبوس لكم لا يفوتكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي قادرٌ على كل شيء، لا يعجزه شيء أبدًا، فهو القادر على نصرة أوليائه، وهزم أعدائه قال ابن كثير: المعنى أي وغنيمة أخرى وفتحًا آخر معينًا، لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون والمراد بها في هذه الآية (فتح مكة) وهو اختيار الطبري[5] ﴿وَلَوْ

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/٣٤٥ (2) تفسير القرطبي ١٦/٢٧٨.
(3) تفسير الكبير ٢٨/٩٩
(4) ما ذكره ابن كثير هو الراجح وهو اختيار الطبري وابن حيان، وهو منقول عن قتادة والحسن، ويؤيده أن الله تعالى قال: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهذا يدل على تقدم محاولة لفتحها وهو منطبق على (فتح مكة) وقيل: إن المراد: فتح فارس والروم، وقيل: هوازن في حنين، وما ذكرناه أرجح.
(5) البحر المحيط ٨/٩٧.

قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ تذكير لهم بنعمة أخرى أي ولو قاتلكم أهل مكة ولم يقع الصلح بينكم وبينهم لغلبوا وانهزموا أمامكم ولم يثبتوا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ثم لا يجدون من يتولى أمرهم بالحفظ والرعاية، ولا من ينصرهم من عذاب الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي تلك طريقة الله وعادته التي سنّها فيمن مضى من الأمم، من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين قال في البحر: أي سنَّ الله لأنبيائه ورسله سنة قديمة وهي قوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(1) ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي وسنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي وهو تعالى بقدرته وتدبيره صرف أيدي كفار مكة عنكم كما صرف عنهم أيديكم بالحديبية التي هي قريبة من البلد الحرام، قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة(2) ﴿مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من بعد ما أظفركم بهم أسارى وتمكنتم منهم قال الجلال: وذلك أن ثمانين من المشركين طافوا بعسكر المؤمنين ليصيبوا منهم، فأُخذوا وأُتي بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، فكان ذلك سبب الصلح(3) وقال في التسهيل: وروي في سببها أن جماعة من شبان قريش خرجوا إلى الحديبية ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوماً، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم، فكفُّ أيدي الكفار هو هزيمتهم وأسرهم، وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل(4) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي هو تعالى بصير بأعمالكم وأحوالكم، يعلم ما فيه مصلحة لكم، ولذلك حجزكم عن الكافرين رحمةً بكم، وحرمةً لبيته العتيق، لئلا تسفك فيه الدماء.. ثم ذكر تعالى استحقاق المشركين للعذاب والدمار فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي هم كفار قريش المعتدون الذين كفروا بالله والرسول، ومنعوا المؤمنين عن دخول المسجد الحرام، لأداء مناسك العمرة عام الحديبية ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي وصدّوا الهدي أيضاً - وهو ما يُهدى إلى بيت الله لفقراء الحرم - معكوفاً أي محبوساً عن أن يبلغ مكانه الذي ينحر فيه وهو الحرم قال القرطبي: يعني قريشاً منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية حين أحرم رسول الله ﷺ مع أصحابه بالعمرة، ومنعوا الهدي وحبسوه عن أن يبلغ محله، وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكن حملتهم الأنفة ودعتهم الحمية الجاهلية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه ديناً، فوبخهم الله على

---

(1) البحر المحيط ٨/٩٧

(2) مختصر ابن كثير ٣/٣٤٦

(3) تفسير الجلالين ٤/٩٧

(4) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥١

ذلك وتوعدهم عليه، وأدخل الأسى على رسول الله بمنعه وصده(1) ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أي ولولا أن في مكة رجالاً ونساءً من المؤمنين المستضعفين، الذين يخفون إيمانهم خوفاً من المشركين ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي كراهة أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم دون علم منكم بإيمانهم، فينالكم بقتلهم إثم وعيب وجواب (لولا) محذوف تقديره: لأذن لكم في دخول مكة، ولسلّطكم على المشركين قال الصاوي: والجواب محذوف قدّره الجلال بقوله: لأذنَ لكم في الفتح، ومعنى الآية: لولا كراهة أن تُهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكفار، حال كونكم جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كفّ أيديكم عنهم(2)، ولأذن لكم في فتح مكة ﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي إنما فعل ذلك ليخلّص المؤمنين من بين أظهر المشركين، وليرجع كثيرٌ منهم إلى الإسلام قال القرطبي: أي لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلم بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكة، وكذلك كان، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا في رحمته وجنته(3) ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي لو تفرقوا وتميّز بعضهم عن بعض، وانفصل المؤمنون عن الكفار، لعذبنا الكافرين منهم أشدّ العذاب، بالقتل والسبي والتشريد من الأوطان ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ أي حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل، فرفضوا أن يكتبوا في كتاب الصلح (بسم الله الرحمن الرحيم) ورفضوا أن يكتبوا (محمد رسولُ الله) وقولهم: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي أنفة وغطرسة وعصبية جاهلية ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جعل الطمأنينة والوقار في قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين(4) ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ أي اختار لهم كلمة التقوى - إلزام تكريم وتشريف - وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) هذا قول الجمهور، والظاهر: أن المراد بكلمة التقوى هي إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله، وعدم شقّ عصا الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح، وكانت مجحفة بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبّت الله المؤمنين

---

(1) تفسير القرطبي ١٦/٢٨٣. (2) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٩٨.

(3) تفسير القرطبي ١٦/٢٨٦.

(4) يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره الظلال ما نصه "الحمية: إنما هي حمية الكبر والصلف والبطر والتعنت، الحمية الجاهلية التي حملتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ والمؤمنين، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحر فيه، مخالفين بذلك كل عرف وكل عقيدة، كي لا تقول العرب إن محمداً دخلها عليهم عنوة، ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته، وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام". اهـ. الظلال ٢٦/١١٥

على طاعة رسول الله ﷺ وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين (١) ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي وكانوا أحقَّ بهذه الفضيلة من كفار مكة؛ لأن الله اختارهم لدينه وصحبة نبيه ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي عالمًا بمن هو أهل للفضل، فيخصه بمزيد من الخير والتكريم .. ثم أخبر تعالى عن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام - وهي رؤيا حق - لأنها جزء من الوحي فقال ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ اللام موطئة للقسم، و(قد) للتحقيق أي والله لقد جعل الله رؤيا رسوله صادقة محققة لم يدخلها الشيطان؛ لأنها رؤيا حق قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه وطافوا بالبيت، ثم حلق بعضهم وقصَّر بعضهم، فحدَّث بها أصحابه ففرحوا واستبشروا، فلما خرج إلى الحديبية مع الصحابة، وصدَّه المشركون عن دخول مكة، ووقع ما وقع من قضية الصلح، ارتاب المنافقون وقالوا: والله ما حلقنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيت، فأين هي الرؤيا؟ ووقع في نفوس بعض المسلمين شيء، فنزلت الآية ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلم تعالى أن رؤيا رسوله حق، وأنه لم يكذب فيما رأى، ولكنه ليس في الرؤيا أنه يدخلها عام ست من الهجرة، وإنما أراه مجرد صورة الدخول، وقد حقق الله له ذلك بعد عام فنزلت قوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي لتدخلن يا محمد أنت وأصحابك المسجد الحرام بمشيئة الله ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي تدخلونها آمنين من العدو، تؤدون مناسك العمرة ثم يحلق بعضكم رأسه، ويقصِّر بعض ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي غير خائفين، وليس فيه تكرار؛ لأن المراد آمنين وقت دخولكم، وحال المكث، وحال الخروج ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم تعالى ما في الصلح من الحكمة والخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم قال ابن جزي: يريد ما قدَّره تعالى من ظهور الإسلام في تلك المدة، فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب، رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وأربعمائة، وغزا (غزوة الفتح) بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف (٢) ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي فجعل قبل ذلك فتحًا عاجلاً لكم وهو (صلح الحديبية) وسُمي فتحًا لما ترتَّب عليه من الآثار الجليلة، والعواقب الحميدة، ولهذا روى البخاري عن البراء رضي الله عنه «تعدُّون أنتم الفتح (فتح مكة) وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدُّ الفتح (بيعة الرضوان) يوم الحديبية ..» (٣) الحديث ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا الذي

---

(١) هذا ما ألهمني الله إياه عند تفسير الآيات الكريمة من واقعة صلح الحديبية بطولها وأصح ما قيل فيه .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٥٦

(٣) الحديث أخرجه البخاري وتتمته «كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا»

أرسل محمداً بالهداية التامة الشاملة الكاملة، والدين الحق المستقيم دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليجعله يعلو على جميع الأديان، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بالله شاهداً على أن محمداً رسوله. ثم أثنى تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي هذا الرسول المسمى محمداً هو رسول الله حقاً لا كما يقول المشركون ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظٌ على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال أبو السعود: أي يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة(١). قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقد بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمس أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي تراهم أيها السامع تتعجب مما يجهدون من كثرة صلاتهم وعبادتهم، رهبانٌ بالليل أُسودٌ بالنهار ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله عز وجل، والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه(٢) ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي علامتهم وسمتهم كائنة في جباههم من كثرة السجود والصلاة قال القرطبي: لاحت في وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر، قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع، قال منصور: سألت مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنه نورٌ في وجوههم من الخشوع(٣) ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج فراخه وفروعه ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي قوّاه حتى صار غليظاً ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ أي فقام الزرع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي يعجب هذا الزرعُ الزرّاعَ بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار. قال الضحاك: هذا مثلٌ في غاية البيان، فالزرع محمد ﷺ، والشطء أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقووا، وقال القرطبي: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعاء ضعيفاً، فأجابه

(١) أبو السعود ٥/٨٦. (٢) مختصر ابن كثير ٣/٣٤٥.
(٣) تفسير القرطبي ١٦/٢٩٣.

بين يدي السورة

هذه السورة الكريمة مدنية، وهي على وجازتها سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، حتى سمّاها بعض المفسرين (سورة الأخلاق).

ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدَّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألاّ يُبرموا أمراً، أو يُبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإِرشاداته الحكيمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ثم انتقلت إلى أدبٍ آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول ﷺ تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السامي، فإِنه ليس كعامة الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإِجلال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...﴾.

ومن الأدب الخاص إِلى الأدب العام تنتقل السورة لتقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإِشاعات، وتأمر بالتثبت من الأنباء والأخبار، لا سيما إن كان الخبر صادراً عن شخص غير عدلٍ أو شخص متَّهم، فكم من كلمةٍ نقلها فاجر فاسق سبَّبت كارثة من الكوارث، وكم من خبر لم يتثبت منه سامعه جرَّ وبالاً، وأحدث انقساماً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...﴾

ودعت السورة إلى الإِصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ...﴾ الآيات.

وحذَّرت السورة من السخرية والهمز واللمز، ونفَّرت من الغيبة والتجسس والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إِلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذَّرت من الغيبة جاء النهي في تعبير رائع عجيب، أبدعه القرآن غاية الإِبداع، صورةُ رجلٍ يجلس إِلى جنب أخٍ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...﴾ الآية ويا له من تعبير عجيب!!

وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا الإِيمان كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنُّون على الرسول بإِيمانهم، فبيَّنت حقيقة الإِيمان، وحقيقة الإِسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإِيمان والإِخلاص والجهاد والعمل الصالح ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ إِلى آخر السورة الكريمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، لا تقدموا أمراً أو فعلاً بين يدي الله ورسوله، وحذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع إلى كل ما يمكن تقديمه من قول أو فعل، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل، وإذا ذهبوا معه إلى مكان لا يمشون أمامه ونحو ذلك، قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم(١) وقال البيضاوي: المعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله به، وقيل: المراد بين يدي رسول الله، وذكرُ اللهِ تعظيماً له وإشعاراً بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله(٢) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به، إن الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنياتكم وأحوالكم، وفي إظهار الاسم الجليل تربية المهابة والروعة في النفس. ثم أرشد تعالى المؤمنين إلى وجوب توقير الرسول ﷺ وإجلاله واحترامه فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتم رسول الله ﷺ فاخفضوا أصواتكم ولا ترفعوها على صوت النبي ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي ولا تبلغوا حدَّ الجهر عند مخاطبته ﷺ كما يجهر بعضكم في الحديث مع البعض، ولا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥٧ (٢) البيضاوي ٢/ ٤١٥ مع الحاشية.

تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضًا فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله، تعظيمًا لقدره، ومراعاة للأدب. قال المفسرون: نزلت في بعض الأعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه، ولا يعرفون توقير الرسول وتكريمه ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم من حيث لا تشعرون ولا تدرون، فإن في رفع الصوت والجهر بالكلام في حضرته ﷺ استخفافًا قد يؤدي إلى الكفر المحبط للعمل، قال ابن كثير: روي أن ثابت بن قيس كان رفيع الصوت، فلما نزلت الآية قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار، حبط عملي، وجلس في أهله حزينًا، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ ما لك؟ فقال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال النبي ﷺ: لا بل هو من أهل الجنة[1] وفي رواية «أترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة؟» فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت رسول الله ﷺ[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ أولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ومرَّنها عليها وجعلها صفة راسخة فيها قال ابن كثير: أي أخلصها للتقوى وجعلها أهلًا ومحلًا ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة صفح عن ذنوبهم، وثواب عظيم في جنات النعيم.. ثم ذمَّ تعالى الأعراب الجفاة الذين ما كانوا يتأدبون في ندائهم للرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ أي يدعونك من وراء الحجرات، منازل أزواجك الطاهرات ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي أكثر هؤلاء غير عقلاء، إذ العقل يقتضي حسن الأدب، ومراعاة العظماء عند خطابهم، سيما لمن كان بهذا المنصب الخطير، قال البيضاوي: قيل إن الذي ناداه «عُيينة بن حصين» و«الأقرع بن حابس» وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلًا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا: يا محمد اخرج إلينا[3] ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أي ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا الرسول ﷺ بندائهم وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيرًا لهم وأفضل عند الله وعند الناس، لما فيه من مراعاة الأدب في مقام النبوة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي الغفور لذنوب العباد، الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر على نصحهم وتقريعهم، ولم يُنزل العذاب بهم.. ثم حذَّر تعالى من الاستماع للأخبار بغير تثبت فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ أي إذا أتاكم رجل فاسق - غير موثوق بصدقه وعدالته - بخبر من الأخبار ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أي فتثبتوا من صحة الخبر ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي لئلا تصيبوا قومًا وأنتم جاهلون حقيقة الأمر ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أي فتصيروا نادمين أشد الندم على

---

(١) الحديث أخرجه أحمد. (٢) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري.

(٣) تفسير البيضاوي ٣/٢٦٧.

بما هو أعظم تتميز به وأعز، وهو الإيمان والتقوى، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشمس[1] ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، فمن أراد شرفاً في الدنيا ومنزلة في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله»[2] وفي الحديث «الناس رجلان: رجل برٌّ تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هيّن على الله تعالى»[3] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليمٌ بالعباد، مطلع على ظواهرهم وبواطنهم، يعلم التقي والشقي، والصالح والطالح ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾. ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي زعم الأعراب أنهم آمنوا قل لهم يا محمد: إنكم لم تؤمنوا بعد؛ لأن الإيمان تصديقٌ مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا: استسلمنا خوف القتل والسبي، قال المفسرون: نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة مجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم ولم تصلوا إلى حقيقته بعد، ولفظة (لمّا) تفيد التوقع كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان عند اطلاعكم على محاسن الإسلام، وتذوقكم لحلاوة الإيمان، قال ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأُدّبوا في ذلك، ولو كانوا منافقين - كما ذهب إليه البخاري - لعنّفوا وفضحوا[4] ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي وإن أطعتم الله ورسوله بالإخلاص الصادق، والإيمان الكامل، وعدم المنّ على الرسول لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لأن صيغة (فعول) و(فعيل) تفيد المبالغة .. ثم ذكر تعالى صفات المؤمنين الكمّل الصادقين في إيمانهم فقال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إنما المؤمنون الصادقون في دعوى الإيمان، الذين صدّقوا الله ورسوله، فأقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، عن يقين راسخ وإيمان كامل ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي ثم لم يشكّوا ويتزلزلوا في إيمانهم بل ثبتوا على التصديق راسخين ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي أولئك الذين صدقوا في ادعاء الإيمان .. وصف تعالى المؤمنين الكاملين بثلاثة أوصاف:

---

(1) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٣٧٥ (2) البيضاوي ٣/٣٧٥

(3) جزء من خطبة قالها ﷺ عند فتح مكة وخطب الناس بها.

(4) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٦٩.

١٠- التشبيه البليغ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أصل الكلام المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناصر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر.

تنبيه: سورة الحجرات تسمى سورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان خمس مرات، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم وفضيلة من الفضائل، وهذه الآداب الرفيعة سنعرضها في فقرات:

أولاً: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله وعدم التقدم عليه بقول أو رأي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

ثانياً: احترام الرسول وتعظيم شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ...﴾

ثالثاً: وجوب التثبت من الأخبار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...﴾.

رابعاً: النهي عن السخرية بالناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ...﴾.

خامساً: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ الآية.

لطيفة: سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة من قتال فقال: (تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته).

تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات

ولا يستقر، يقال: مرج الخاتم في يدي إذا قلق للهزال ﴿فُرُوجٍ﴾ شقوق وصدوع جمع فرج وهو الشق ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال، بسق الشيء يبسق بسوقًا إذا طال ﴿نَضِيدٌ﴾ متراكب بعضه فوق بعض ﴿لَبْسٍ﴾ حيرة وشك واضطراب ﴿عَيِينَا﴾ عجزنا يقال: عيي به يعيا أي عجز عنه ﴿رَقِيبٌ﴾ حافظ شاهد على أعمال الإنسان ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيأ قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ ومنه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ وفرس عتيد معدٌّ للجري[1] ﴿تَحِيدُ﴾ تهرب وتنفر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

التفسير: ﴿ق﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية[2] ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسمٌ حذف جوابه أي أقسم بالقرآن الكريم، ذي المجد والشرف على سائر الكتب السماوية لتبعثُنَّ بعد الموت، قال ابن كثير: وجواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقديره: إنك يا محمد لرسول، وإنَّ البعث لحق[3]، وهذا كثير في القرآن وقال أبو حيان: والقرآن مقسم به، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده تقديره: لقد جئتهم منذرًا بالبعث فلم يقبلوا[4] ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي تعجب المشركون من إرسال رسول إليهم من البشر يخوفهم من عذاب الله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي فقال كفار مكة: هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب، والإظهار في موضع

(١) الصحاح مادة عتد.
(٢) انظر أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة.
(٣) هذا خلاصة قول ابن كثير وانظر المختصر ٣/٣٧٦.
(٤) البحر المحيط ٨/١٢٠.

الإيمان التعجب من جريمة الكفر منهم. والآية إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، فإنهم قد عرفوا صدق الرسول وأمانته ونصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يسخروا ويستهزئوا، ثم أخبر تعالى عن وجه تعجبهم فقال: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أئذا متنا واستحالت أجسامنا إلى تراب هل سنحيا ونرجع كما كنا؟! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي قد علمنا ما تنقصه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم وأشعارهم وعظامهم إذا ماتوا، فلا يعزب عنا شيءٌ حتى نعجز عن الإعادة ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي ومع علمنا الواسع عندنا كتاب حافظ لعددهم وأسمائهم وما تأكله الأرض منهم، وهو اللوح المحفوظ الذي يحصي تفصيل كل شيء ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب إلى ما هو أفظع وأشنع من التعجب، وهو التكذيب بالقرآن العظيم أي كذبوا بالقرآن حين جاءهم، مع سطوع آياته، ووضوح بيانه ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي فهم في أمر مختلط مضطرب، فتارة يقولون عن الرسول: إنه ساحر، وتارة يقولون: إنه شاعر، وتارة يقولون: إنه كاهن، وهكذا قالوا أيضاً عن القرآن إنه سحر، أو شعر، أو أساطير الأولين إلى غير ذلك.. ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية الدالة على عظمة رب العالمين فقال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار إلى السماء في ارتفاعها وإحكامها، فيعلموا أن القادر على إيجادها قادرٌ على إعادة الإنسان بعد موته؟ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي ما لها من شقوق وصدوع ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي والأرض بسطناها ووسعناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب بسكانها ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي وأنبتنا فيها من كل نوع من النبات حسن المنظر، يبهج ويسر الناظر إليه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي فعلنا ذلك تبصيراً منا وتذكيراً على كمال قدرتنا لكل عبد راجع إلى الله متفكر في بديع مخلوقاته ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي ونزلنا من السحاب ماءً كثير المنافع والبركة ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي فأخرجنا بهذا الماء البساتين الناضرة، والأشجار المثمرة، وحبَّ الزرع المحصود، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب التي تحصد ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي وأخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي لها طلعٌ منضود، منظّم بعضه فوق بعض، قال أبو حيان: يريد كثرة الطلع وتراكمه وكثرة ما فيه من الثمر، وأول ظهور الثمر يكون منضداً كحب الرمان، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد(1) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي أنبتنا كل ذلك رزقاً للخلق لينتفعوا به ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي وأحيينا بذلك الماء أرضاً جدبة لا ماء فيها ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي كما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء

---

(1) البحر المحيط ٨/١٢٢.

بعد موتكم. قال ابن كثير: وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى[1]. ثم ذكّر تعالى كفار مكة بما حلّ بمن سبقهم من المكذبين إنذاراً لهم وإعذاراً فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذّب قبل هؤلاء الكفار قوم نوح ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ أي وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود رسّوا نبيهم فيها أي دسّوه فيها ﴿وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ سمّاهم إخوانه لأنه صاهرهم وتزوج منهم ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي وأصحاب الشجر الكثير الملتف وهم قوم شعيب، نُسبوا إلى الأيكة لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة الملتف بعضُها على بعض ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال المفسرون: هو ملك كان باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وهو تُبَّع الحِميري[2] ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسلهم قال ابن كثير: وإنما جمع الرسل، لأن من كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[3] ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي فوجب عليهم وعيدي وعقابي، والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ قال القرطبي: وهو توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابٌ لقولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[4] والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه فكيف يتوهمون عجزنا عن البعث والإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور. قال الألوسي: وإنما نكّر الخلق ووصف بجديد، ولم يقل من الخلق الثاني تنبيهاً على استبعادهم، وأنه خلق عظيم يجب أن يهتم بشأنه[5] ثم نبه تعالى على سعة علمه وكمال قدرته فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرقٌ كبير في العنق متصل بالقلب، قال أبو حيان: ونحن أقرب إليه قرب علم، نعلمه به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خفياته، فكأن ذاته تعالى قريبة منه، وهو تمثيل لفرط القرب كقول العرب: هو مني معقد الإزار[6] وقال ابن كثير: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، والحلول والاتحاد منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، وهذا كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ يعني الملائكة[7] ويدل عليه قوله بعده. ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي حين يتلقى

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٢

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٩١.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٣

(٤) تفسير القرطبي ١٧/٨.

(٥) تفسير روح المعاني ٢٦/١٧٨

(٦) تفسير البحر المحيط ٨/١٢٣

(٧) مختصر ابن كثير ٣/٣٧٢

لِلْخَيْرِ﴾ أي مبالغ في المنع لكل حقٍّ واجب عليه في ماله ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ أي ظالم غاشم شاك في الدين ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي فألقياه في نار جهنم، وكرر لفظ ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتوكيد ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أي قال قرينه وهو الشيطان المقيَّض له: ربنا ما أضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ولكنه ضلَّ باختياره، وآثر العمى على الهدى من غير إكراه أو إجبار، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه السياق كأن الكافر قال: يا رب إن شيطاني هو الذي أطغاني، فيقول قرينه: ربنا ما أطغيته بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي يقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين: لا تختصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآيات والنذر ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي ما يُغيَّر كلامي، ولا يُبدَّل حكمي بعقاب الكفرة المجرمين، قال المفسرون: المراد وعدُهُ تعالى بعذاب الكفار وتخليدهم في النار بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي ولست ظالماً حتى أعذب أحداً بدون استحقاق، وأعاقبه بدون جرم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت؟ وتقول هل من زيادة؟ وفي الحديث «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول: قط قط وعزتك وكرمك - أي قد اكتفيت - وينزوي بعضها إلى بعض»[2] والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما، والله على كل شيء قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً، وحاصلٌ شرعاً، وقد أخبر القرآن الكريم أن نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وورد في صحيح مسلم أن المسلمين في آخر الزمان يقاتلون اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الشجر والحجر، فينطق الله الشجر والحجر... إلخ وقيل: إن الآية على التمثيل وأنها تصويرٌ لسعة جهنم وتباعد أقطارها بحيث لو ألقي فيها جميع الكفرة والمجرمين فإنها تتسع لهم[3]، وهو كقولهم: قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني. ثم أخبر تعالى عن حال السعداء بعد أن ذكر حال الأشقياء فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُرِّبت وأُدنيت الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد، بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي يقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعد الله لكل عبدٍ أوَّاب أي رجَّاع إلى الله، حافظ لعهده وأمره ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي خاف الرحمن فأطاعه دون أن يراه لقوة يقينه،

---

(١) انظر حاشية الجمل ٤/ ٩٦ والقرطبي ١٧/ ١٧.

(٢) الحديث من رواية البخاري ومسلم.

(٣) هذا قول أنه ليس ثمة قول وإنما هو على طريق التمثيل دون النطق، وقال القرطبي: هو تفسير مجاهد، والقول الأول قول السلف.

وجاء بقلب تائب خاضع خاشع ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي يقال لهم: ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم والأكدار، ذلك هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبدًا، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيه أنفسهم، وتلذ به أعينهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا زيادة على ذلك الإنعام والإكرام، وهو النظر إلى وجه الله الكريم[1]. ثم خوّف تعالى كفار مكة بما حدث للمكذبين قبلهم فقال ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي وأهلكنا قبل كفار قريش أممًا كثيرين من الكفار المجرمين ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي هم أقوى من كفار قريش قوة، وأعظم منهم فتكًا وبطشًا ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي فساروا في البلاد، وطوّفوا فيها وجالوا في أقطارها، فهل كان لهم من الموت مهرب؟ وهل كان لهم من عذاب الله مخلص؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي إن فيما ذُكر من إهلاك القرى الظالمة، لتذكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر به، أو أصغى إلى الموعظة وهو حاضر القلب ليتذكر ويعتبر، قال سفيان: لا يكون حاضرًا وقلبه غائب، وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب[2]، وعبّر عن العقل بالقلب، لأنه موضعه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ هذه الآية ردٌّ على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش، فكذبهم الله تعالى[3] والمعنى والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها، والأرض في كثافتها وسعتها، وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام، وما مسَّنا من إعياء وتعب ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أي فاصبر يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش، واهجرهم هجرًا جميلًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ أي ونزّه ربك عما لا يليق به، وصلِّ له واعبده وقتي الفجر والعصر، وخصّهما بالذكر لزيادة فضلهما وشرفهما ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي ومن الليل فصلِّ لله تهجدًا وأعقاب الصلوات المفروضة، قال ابن كثير: كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس، وثنتان قبل الغروب، وكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولًا ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ كل ذلك ليلة الإسراء بخمس صلوات، ويبقى منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[4] ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي واستمع يا محمد للنداء والصوت حين ينادي إسرافيل بالحشر من

---

(1) هذا القول مروي عن أنس وجابر بن عبد الله قالا: المزيد هو أن يتجلى الله تعالى لهم حتى يرونه وذلك في كل جمعة. انظر روح المعاني ٢٦/١٩٠.

(2) مختصر ابن كثير ٣/٣٧٨ (3) هذا قول قتادة والكلبي كذا في القرطبي ١٧/٢٤

(4) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٧٨ .

موضع قريب يصل صوته إلى الكل على السواء، قال أبو السعود: وفيه تهويل وتفظيع لشأن المخبر به، والمنادي هو إسرافيل عليه السلام يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء(١) ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ أي يوم يسمعون صيحة البعث التي تأتي بالحق وهي النفخة الثانية في الصور ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي ذلك هو يوم الخروج من القبور ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ أي نحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، وإلينا مرجعهم للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ أي يوم تتشقق الأرض عنهم فيخرجون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب استجابةً لنداء المنادي ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي ذلك جمع وبعث سهلٌ هيّنٌ علينا لا يحتاج إلى عناء ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أي نحن أعلم بما يقوله كفار قريش من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديدٌ لهم ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي وما أنت يا محمد بمسلّط عليهم تجبرهم على الإسلام، إنما بعثت مذكراً ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أي عظ بهذا القرآن من يخاف وعيدي.. ختم السورة الكريمة بالتذكير بالقرآن كما افتتحها بالقسم بالقرآن ليتناسق البدء مع الختام.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإظهار في موضع الإضمار ﴿فقال الكافرون﴾ بدل فقالوا لتسجيل عليهم بالكفر.

٢- الاستفهام الإنكاري لاستبعاد البعث ﴿أئذا متنا وكنا ترابا﴾؟

٣- الإضراب عن الأول لبيان ما هو أفظع وأشنع من التعجب ﴿بل كذبوا بالحق﴾ وهو التكذيب بآيات الله وبرسوله المؤيد بالمعجزات.

٤- التشبيه المرسل المجمل ﴿كذلك الخروج﴾ شبه خروج الموتى بخروج النبات من الأرض الميتة.

٥- الاستعارة التمثيلية ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ مثّل علمه تعالى بأحوال العبد وخطرات النفس بحبل الوريد القريب من القلب، وهو تمثيلٌ للقرب بطريق الاستعارة كقول العرب: هو مني مقعد القابلة، وهو مني معقد الإزار.

٦- الحذف للإيجاز ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أصله عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، وبين اليمين والشمال طباقٌ، وهو من المحسنات البديعية.

٧- الاستعارة التصريحية ﴿وجاءت سكرة الموت﴾ استعار لفظ السكرة للهول والشدة التي يلقاها المحتضر عند وفاته.

٨- الجناس الناقص بين ﴿مريب﴾ و ﴿منيب﴾ لتغاير حرفي الراء والنون.

٩- الطباق بين ﴿نحيي﴾ ﴿ونميت﴾.

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩٦

١٠ - توافق الفواصل والسجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ومثل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ .. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية، لما فيه من جميل الوقع على السمع

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التي تذرو الغبار، وتسيِّر المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدابير شؤون الخلق، وأقسم بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة، وأنه لا بدَّ من البعث والجزاء.

* ثم تحدثت عن كفار مكة المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة، فبينت حالهم في الدنيا، ومآلهم في الآخرة، حيث يعرضون على نار جهنم فيصلون عذابها ونكالها.

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين، وما أعدَّ الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، والإعذار والإنذار.

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون الفسيح، في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان في أبدع صورة وأجمل تكوين، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين.

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام، وعن مواقف الأمم الطاغية من أنبيائهم وما حلَّ بهم من العذاب والدمار، فذكرت قصة إبراهيم ولوط، وقصة موسى، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح، وفي ذكر القصص وتكرارها في القرآن تسلية للرسل الكرام، وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن، وهي معرفة الله جل وعلا، وعبادته وتوحيده، وإفراده بالإخلاص، والتوجه لوجهه الكريم بأنواع القربات والعبادات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ... إلى ... لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٧).

اللغَة: ﴿الْحُبُكِ﴾ الطرائق جمع حبيكة كطريقة وزناً ومعنى، قال الزجاج: الحُبُك: الطرائق الحسنة، والمحبوك في اللغة ما أُجيد عمله[١] وقال ابن الأعرابي: كلُّ شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد حبكته[٢] ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ جمع خرَّاص وهو الكذاب ﴿غَمْرَةٍ﴾ الغمرة: ستر الشيء وغطاؤه.

(١) زاد المسير ٨/٢٩ (٢) البحر المحيط ٨/١٣٣

والسمع والبصر والعقل [1] إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم، وقال قتادة: من تفكّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خُلق ولُيِّنت مفاصله للعبادة ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي وفي السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وما توعدون به من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء، قال الصاوي: والآية تتضمن الامتنان والوعد والوعيد [2] ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي أقسم بربّ السماء والأرض إن ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور لحقٌّ كائن لا محالة مثل نطقكم، فكما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون فكذلك يجب ألا تشكوا في الرزق والبعث. قال المفسرون: وهذا على سبيل التشبيه والتمثيل أي رزقكم مقسوم في السماء كنطقكم فلا تشكوا في ذلك، وهذا كقول القائل: هذا حق كما أنك ههنا، وهذا حقٌّ كما أنك ترى وتسمع [3]، فالرزق مثل النطق لا يفارق الشخص في حالٍ من الأحوال، وفي الحديث «لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» [4]. ثم ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلاني؟ يريد تشويقه إلى استماعه والمعنى: هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المكرمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام [5]، سُمّوا مكرمين لكرامتهم عند الله عز وجل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلّم عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: قال عليكم سلامٌ أنتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم؛ لأنهم قدموا عليه في صورة شبابٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم [6]، وقال أبو حيان: والذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك، إذْ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف [7] ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي مضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه؛ لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه في التأخير، قال ابن قتيبة: عدل إليهم في خفية ولا يكون الروغ إلا أن تُخفي ذهابك ومجيئك [8] ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: فجاءهم بعجلٍ سمينٍ مشوي، والعجل ولد البقرة وكان عامة ماله البقر، واختاره لهم سمينًا زيادة في إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي فأدناه منهم ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم في تلطف وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام؟ قال ابن كثير: وفي الآية تلطف في العبارة وعرض حسن، وهذه

(١) تفسير الخازن ٤/٢٠٣ . (٣) حاشية الصاوي ٤/١٢٤ .
(٢) انظر البحر المحيط ٨/١٣٧ .
(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/٤٢ وأسنده إلى الثعلبي .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/٤٤ . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٨٥
(٧) البحر المحيط ٨/١٣٩ (٨) تفسير ابن الجوزي ٨/٣٦

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأخرجنا من كان في قرى أهل لوط من المؤمنين لئلا يهلكوا ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي فما كان فيها بعد البحث والتفتيش غير أهل بيت واحد من المسلمين قال مجاهد: هم لوط وابنتاه، والغرضُ من الآية بيان قلة المؤمنين الناجين من العذاب، وكثرة الكافرين المستحقين للهلاك، قال الإمام الجلال: وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدقون بقلوبهم، عاملون بجوارحهم الطاعات[1] ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي أبقينا في تلك القرى المهلكة بعد هلاك الظالمين علامة على هلاكهم بجعل عاليها سافلها ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي للذين يخافون عذاب الله فإنهم المعتبرون به قال ابن كثير: ومعنى الآية ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم[2].

تنبيه: قال الإمام الرازي: في قصة ضيف إبراهيم تسلية لقلب النبي الكريم ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، واختار تعالى إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء، وفيه إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين[3].

○ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ... إلى ... ﴿مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من آية (٣٨) إلى آية (٦٠) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى قصة ضيف إبراهيم الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط، أتبعه بذكر قصص الأمم الطاغية، فذكر منهم فرعون وجنوده، وعاداً، وثمود، وقوم نوح، تسلية للنبي عليه السلام، وتذكيراً للأنام بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، ثم ذكر دلائل القدرة والوحدانية، وختم السورة الكريمة بإنذار المكذبين الضالين.

اللغة: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ طرحناهم ﴿الْيَمِّ﴾ البحر ﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه ﴿الرَّمِيمِ﴾ الشيء الهالك البالي قال الزجاج: الرميمُ الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم[4]، ورمَّ العظم إذا بلي فهو رمَّة ورميم، قال جرير يرثي ابنه:

تركتني حين كفَّ الدهر من بصري ... وإذ بقيتُ كعظم الرِّمَّة البالي[5]

﴿الْمَاهِدُونَ﴾ مهدت الفراش مهداً بسطته ووطأته، والتمهيد تسوية الشيء وإصلاحه ﴿ذَنُوبًا﴾ الذَّنوب بفتح الذال النصيب من العذاب.

---

(١) تفسير الجلالين ٤/٢٠٥.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٨٥.
(٣) التفسير الكبير ٢٦٦/٧.
(٤) زاد المسير ٨/٣٩.
(٥) تفسير القرطبي ١٧/٥١.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

التفسير: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى أيضاً آية وعبرة وقت إرسالنا له إلى فرعون ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة ودليل باهر ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي فأعرض عن الإيمان بموسى بمجموعه وأجناده، وقوته وسلطانه قال مجاهد: تعزز عدو الله بأصحابه[١] والغرض أن فرعون أعرض عن الإيمان بسبب ما كان يتقوى به من جنوده، لأنهم كانوا له كالركن الذي يعتمد عليه البنيان ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي وقال اللعين في شأن موسى: إنه ساحر، لإتيانه بهذه الخوارق، أو مجنون لدعواه الرسالة، وإنما قال ذلك تمويهاً على قومه لا شكاً منه في صدق موسى[٢] ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي فأخذنا فرعون مع أصحابه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي فطرحناهم في البحر لما أغضبونا وكذبوا رسولنا ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان.. ثم لما انتهى من قصة فرعون أعقبه بذكر قصة عاد فقال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أي وجعلنا في قصة عاد كذلك آية لمن تأمل حين أرسلنا عليهم الريح المدمرة التي لا خير فيها ولا بركة، لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر، وإنما هي للإهلاك، وهي الريح التي تسمى الدبور وفي الصحيح "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور" قال المفسرون: سميت ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ تشبيهاً لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد، ولما كانت هذه الريح لا تنشئ سحاباً ولا تلقح أشجاراً، ولا خير فيها ولا بركة، لأنها لا تحمل المطر شبهت بالمرأة العقيم ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي ما تترك شيئاً مرت عليه في طريقها مما أراد الله تدميره وإهلاكه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي إلا جعلته كالهشيم المتفتت البالي قال ابن عباس:

---

(١) المختصر ٣/٣٨٦ ونقل عن ابن عباس أن المراد (بركنه) أي بقوته وسلطانه، وقد جمعنا بين القولين في المعنى.

(٢) لفظة (أو) للشك، وذهب بعض المفسرين إلى أنها بمعنى الواو أي ساحر ومجنون؛ لأن اللعين قال الأمرين معاً فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ وهو اختيار القرطبي، وقال الألوسي: لا ضرورة إلى ذلك التأويل، لأن اللعين كان يتلون تلون الحرباء.

والاتساع أو سعة، مع الجبال والهضاب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرًا وأنثى، وحلوًا وحامضًا ونحو ذلك[1] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به، وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي الجأوا إلى الله، وارجعوا إلى توحيده وطاعته. قال أبو حيان: والأمر بالفرار إلى الله أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن، وإنما ذكر بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقابًا وعذابًا، وأمرًا حقه أن يُفرّ منه، فقد جمعت اللفظة بين التحذير والاستدعاء، ومثله قول النبي ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»[2] وقال ابن الجوزي: المعنى اهربوا مما يوجب العقاب من الكفر والعصيان، إلى ما يوجب الثواب من الطاعة والإيمان[3] ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ أي إني لكم نذير من عذاب الله وأخوفكم انتقامه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي واضحٌ أمري قد أيدني الله بالمعجزات الباهرات ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي لا تشركوا مع الله أحدًا من بشر أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كرر اللفظ للتأكيد والتنبيه إلى خطر الإشراك بالله. قال الخازن: وإنما كرر اللفظ عند الأمر بالطاعة، والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز وينجو عند الله إلا الجامع بينهما ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي كما كذبك قومك يا محمد، وقالوا عنك إنك ساحرٌ أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، فلا تحزن لما يقول المجرمون ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب؟ وهو استفهام للتعجب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، ثم أضرب عن هذا النفي والتوبيخ فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل حملهم الطغيان على التكذيب والعصيان فلذلك قالوا ما قالوا ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عنهم ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أي فلا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، وبذلت الجهد في النصح والإرشاد ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تدع التذكير والموعظة فإن النفوس المؤمنة تنتفع وتتأثر بالموعظة الحسنة. ثم ذكر تعالى الغاية من خلق الخلق فقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي وما خلقت الثقلين الإنس والجن إلا لعبادتي وتوحيدي، لا لطلب الدنيا والانهماك بها. قال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليقروا لي بالعبادة طوعًا أو كرهًا، وقال مجاهد: إلا ليعرفوني[4] قال الرازي: لما بيّن تعالى حال المكذبين ذكر هذه الآية ليبيّن سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله مع أن خلقهم لم يكن إلا

(١) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: يعني به المتقابلات كالذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والخير والشر وأمثال ذلك، انظر القرطبي ١٧/ ٥٢ وهو اختيار الطبري لدلالته على الحكمة والقدرة.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٤٢. (٣) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٤٢.
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٥٥.

للعبادة[1] ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي لا أريد منهم أن يرزقوني أو يرزقوا أنفسهم أو غيرهم بل أنا الرزاق المعطي ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي ولا أريد منهم أن يطعموا خلقي ولا أن يطعموني فأنا الغني الحميد، قال البيضاوي: والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم[2]، فكأنه سبحانه يقول: ما أريد أن أستعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي إنه جل وعلا هو الرازق، المتكفل بأرزاق العباد وحاجاتهم، أتى باسم الجلالة الظاهر للتفخيم والتعظيم، وأكد الجملة بإن والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق في أمور الرزق، وليقوي اعتمادهم على الله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي ذو القدرة الباهرة ﴿الْمَتِينُ﴾ أي شديد القوة لا يطرأ عليه عجزٌ ولا ضعف، قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إلى الله في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم، وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»[3] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي فإن لهؤلاء الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا كقوم نوح وعاد وثمود ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا يستعجلوا عذابي فإنه واقع لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب لهؤلاء الكفار في يوم القيامة الذي وعدهم الله به.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لأن السائل الطالب، والمحروم المتعفف.

٢ - تأكيد الخبر بالقسم وإنَّ واللام ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ويسمى هذا الضرب إنكاريًا؛ لأن المخاطب منكر لذلك.

٣ - أسلوب التشويق والتفخيم ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾

٤ - الاستعارة ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ استعار الركن للجموع والجنود؛ لأنه يحصل بهم التقوي والاعتماد كما يعتمد على الركن في البناء أو استعارة للقوة والشدة

٥ - المجاز العقلي ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول أي ملام على طغيانه.

٦ - الاستعارة التبعية ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة

٧ - حذف الإيجاز ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون ومثلها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز

٨ - التشبيه المرسل المجمل ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والهلاك، حذف منه وجه الشبه فهو مجمل.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٧/ ٦٨٥ (٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٨

(٣) أخرجه الترمذي وأحمد وانظر المختصر ٣/ ٣٨٧

٩ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ للمبالغة والتأكيد.

١٠ - السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في جمال الأسلوب ورونقه مثل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ .. ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: ذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فقال: يا سبحان الله من الذي أغضب الجليل حتى حلف! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ يا ويح الناس!!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

بين يدي السورة

سورة الطور من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية، وتبحث في أصول العقيدة وهي (الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء).

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب (موقف الحساب) وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة، لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع، وكان القسم بأمور خمسة تنبيهاً على أهمية الموضوع.

ثم تناولت الحديث عن المتقين وهم في جنات النعيم، على سرر متقابلين، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة: (الحور العين، واجتماع الشمل بالذرية والبنين، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب من فواكه وثمار، ولحوم متنوعة مما يشتهي ويستطاب) إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، وأمرته بالتذكير والإنذار للكفرة الفجار، غير عابىء بما يقوله المشركون وما يفتريه المفترون حول الرسالة والرسول، فليس محمد ﷺ بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون.

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد ﷺ وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وأقامت الدلائل على صدق رسالة محمد عليه السلام.

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع، وبينت شدة عنادهم، وفرط طغيانهم، وأمرت الرسول ﷺ بالصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي أمر الله.

التسمية: سميت (سورة الطور)؛ لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكاناً وبقعة مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ إلى ... ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٨).

اللغة: ﴿رَقٍّ﴾ الرق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه، وقال أبو عبيدة: الرقُّ الورق وفي

الصحاح : الرقّ بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق [١] ﴿الْمَسْجُورِ﴾ الموقد نارًا يقال : سجرت النار أي أوقدتها ﴿تَمُورُ﴾ مار الشيء يمور مورًا إذا تحرك واضطرب ، وجاء وذهب ، قال جرير :

وما زالت القتلى تمور دماؤها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل [٢]

﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعون بشدة وعنف ، والدَّعُّ : الدفع بشدة وإهانة ﴿أَلَتْنَاهُم﴾ أنقصناهم ﴿رَهِينٌ﴾ محبوس ﴿السَّمُومِ﴾ الريح الحارة النافذة في المسام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝﴾

التفسير : ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ أقسم تعالى بجبل الطور الذي كلّم الله عليه موسى ، وأقسم بالكتاب الذي أنزله الله على خاتم رسله وهو القرآن العظيم المكتوب ﴿فِي رَقٍّ﴾ أي في أديم من الجلد الرقيق ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي مبسوط غير مطوي وغير محتوم عليه ، قال القرطبي : أقسم الله تعالى بالطور - وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى - تشريفًا له وتكريمًا ، وتذكيرًا لما فيه من الآيات ، وأقسم بالكتاب المسطور أي المكتوب وهو القرآن يقرأه المؤمنون من المصاحف ، ويقرأه الملائكة من اللوح المحفوظ ، وقيل : يعني بالكتاب سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ لأن كل كتاب في رقّ ينشره أهله لقراءته ، والرقّ ما رُقّق من الجلد ليكتب فيه [٣] ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أي وأقسم بالبيت المعمور الذي تطوف به الملائكة الأبرار ، وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض ، وفي حديث الإسراء «ثم رفع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا؟ قال : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم» [٤] وقال ابن عباس : هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة - أي مقابلها

(١) الصحاح مادة رقّ

(٢) تفسير القرطبي ١٧/٥٨ .

(٣) تفسير القرطبي ١٧/٦٣ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه

وعمّارها - من الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة ثم لا يعودون إليه(1) ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أي والسماء العالية المرتفعة، الواقفة بقدرة الله بلا عمد، سمَّى السماء سقفًا لأنها للأرض كالسقف للبيت ودليله ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي والبحر المسجور الموقد نارًا يوم القيامة كقوله ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أضرمت حتى تصير نارًا ملتهبة تتأجج تحيط بأهل الموقف ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم أي إن عذاب الله لنازل بالكافرين لا محالة. قال ابن الجوزي: أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن عذاب المشركين حق(2) ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم. قال أبو حيان: والواو الأولى للقسم وما بعدها للعطف، والجملة المقسم عليها هي ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ وفي إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد، فبإضافته إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له ﷺ وأن العذاب واقع بمن كذبه، ولفظ واقع أشد من كائن، كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على من حلَّ به(3) ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي تتحرك السماء وتضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ذلك اليوم ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تنسف نسفًا عن وجه الأرض فتكون هباءً منثورًا كقوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ قال الخازن: والحكمة في مور السماء وسير الجبال، الإنذار والإعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا، وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك، فلما لم يبق لهم عودٌ إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة(4) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار وشدة عذاب للمكذبين أرسله الله في ذلك اليوم الرهيب ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي الذين هم في الدنيا يخوضون في الباطل غافلون لاهون عما يراد بهم ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعًا بشدة وعنف قال في البحر: وذلك أن خزنة جهنم يغلُّون أيدي الكفار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون بهم دفعًا إلى النار على وجوههم وزجًّا في أقفيتهم حتى يردوا إلى النار(5)، فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذه نار جهنم التي كنتم تهزءون وتكذبون بها في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي وتقول لهم الزبانية تقريعًا وتوبيخًا: هل هذا الذي ترونه بأعينكم من العذاب سحر، أم أنتم اليوم عمي كما كنتم في الدنيا عميًا عن الخير والإيمان؟ قال أبو السعود:

---

(1) مختصر ابن كثير ٣/٣٨٨. (2) زاد المسير ٨/٤٨.

(3) البحر المحيط ٨/١٤٧ والآية فيها إنذار وتهديد تنخلع لها قلب المؤمن، روي عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ إلى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفًا من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب.

(4) تفسير الخازن ٤/٢٠٧. (5) البحر المحيط ٨/١٤٧.

عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء من ثواب عملهم شيئاً، قال في البحر: والمعنى أنه تعالى يُلحق المقصّر بالمحسن ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً(١) ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره، سواء كان أباً أو ابناً، وقال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم(٢) وقال الخازن: المراد بالآية الكافر أي كل كافر بما عمل من الشرك مرتهن بعمله في النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً بعمله لقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ • إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾(٣) ثم ذكر ما يزيدهم به من الفضل والنعمة فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم - فوق ما لهم من النعيم - بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر، يتجاذبها بعضهم من بعض تلذذاً وتأنساً، قال الألوسي: أي يتجاذبونها تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى في الدنيا لشدة سرورهم(٤) ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي لا يقع بينهم بسبب شربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام، ولا يلحقهم إثم كما يلحق شارب الخمر في الدنيا، قال قتادة: نزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش، ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها، فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ • لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(٥) ثم قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي ويطوف عليهم للخدمة غلمان مماليك خصصهم تعالى بخدمتهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي كأنهم في الحسن والبياض والصفاء اللؤلؤ المصون في الصدف، قال القرطبي: وهؤلاء الغلمان قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة، وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على غاية النعيم(٦) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، تلذذاً بالحديث، واعترافاً بالنعمة ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي قال المسئولون: إنا كنا في دار الدنيا خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي فأكرمنا الله بالمغفرة والجنة، وأجارنا مما نخاف، وحمانا من عذاب جهنم النافذة في المسام نفوذ الريح الحارة الشديدة وهي التي تسمى ﴿السَّمُومِ﴾ قال الفخر الرازي: والآية إشارة إلى أن أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن السجن إلى الجنة، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم(٧) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي قال أهل الجنة: إنا كنا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب الله لنا

---

(١) البحر المحيط ٨/١٤٩ وهذا تأويل ابن عطية.
(٢) القرطبي ١٧/٦٨
(٣) تفسير الخازن ٤/٢٠٨.
(٤) روح المعاني ٢٧/٣٤.
(٥) مختصر ابن كثير ٣/٣٩٦
(٦) تفسير القرطبي ١٧/٦٩
(٧) التفسير الكبير للرازي ٢٧/٢٠٦

فأعطانا سؤلنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه تعالى هو المحسن، المتفضل على عباده بالرحمة والغفران، وهو كالتعليل لما سبق، عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم[1].

□□□

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى ... ﴿فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ من آية (٢٩) إلى آية (٤٩) نهاية السورة.

المناسبة: لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب بالكافرين، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى رسوله بالتذكير، إنذارًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، وختم السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ.

اللغة: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر وصروفه، والمنون هو الدهر قال أبو ذؤيب:

أمِنَ المنونِ وريبِه تتوجّعُ ... والدهرُ ليس بمُعتِبٍ من يجزعُ[2]

والمنون أيضًا الموت من المَنْ بمعنى القطع؛ لأنه يقطع الأعمار ﴿أَحْلَامُهُم﴾ عقولهم جمع حُلُم وهو العقل ﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المسيطر: المتسلط على الشيء ﴿كِسْفًا﴾ قطعة يقال: كِسْف بسكون السين وكِسفة أي قطعة وجمعه كِسَف بفتح السين ﴿مَّرْكُومٌ﴾ متجمع ومتراكب بعضه فوق بعض.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۞ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۞ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ۞﴾

التفسير: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي فذكّر يا محمد بالقرآن قومك وعظهم به، فما أنت بإنعام الله عليك بالنبوة وإكرامه لك بالرسالة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي لست كاهنًا تخبر بالأمور الغيبية من غير وحي، ولا مجنونًا كما زعم المشركون، إنما تنطق بالوحي، ثم أنكر عليهم مزاعمهم الباطلة في شأن الرسول فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي بل

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٩٢. (٢) زاد المسير ٨/ ٥٤ وانظر الصحاح للجوهري.

أيقول المشركون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك فنستريح منه؟ قال الخازن: وريبُ المنون حوادث الدهر وصروفه، وغرضهم أنه يهلك ويموت كما هلك من كان قبله من الشعراء، والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع، سُميا بذلك؛ لأنهما يقطعان الأجل [1] ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وهو تهكم بهم مع التهديد والوعيد ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾؟ أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ قال الخازن: وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل [2]، وهو تهكم آخر بالمشركين ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم مجاوزون الحد في الكفر والطغيان، والمكابرة والعناد ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي أم يقولون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه، قال القرطبي: والتقوّل تكلف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر، يقال: قوّلتني ما لم أقل أي ادعيته عليّ، وتقوّل عليه أي كذب عليه [3] ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل لا يصدقون بالقرآن استكبارًا وعنادًا ثم ألزمهم تعالى الحجة فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي فليأتوا بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسنه وبيانه، إن كانوا صادقين في قولهم إن محمدًا افتراه، وهو تعجيز لهم مع التوبيخ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي هل خُلقوا من غير رب ولا خالق؟ قال ابن عباس: من غير رب خلقهم وقدّرهم [4] ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي أم هم الخالقون لأنفسهم، حتى تجرءوا فأنكروا وجود الله جل وعلا؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أم هم خلقوا السموات والأرض؟ وإنما خصّ السموات والأرض بالذكر من بين سائر المخلوقات لعظمها وشرفها، ثم بيّن تعالى السبب في إنكارهم لوحدانية الله فقال ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي بل لا يصدقون ولا يؤمنون بوحدانية الله وقدرته على البعث ولذلك ينكرون الخالق، قال الخازن: ومعنى الآية هل خُلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق ضروري، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق، أم هم الخالقون؛ لأنفسهم؟ وذلك في البطلان أشدّ؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا فليؤمنوا به، وليوحدوه، وليعبدوه، وليُثبتوا أنه ربهم وخالقهم [5] ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾؟ أي أعندهم خزائن رزق الله ورحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمن شاءوا؟ قال ابن عباس ﴿خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ المطر والرزقُ وقال عكرمة: النبوة [6] ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾؟ أي أم هم الغالبون القاهرون حتى يتصرفوا في الخلق كما يشاءون؟ لا بل الله عز وجل هو الخالق المالك المتصرف وقال عطاء ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أم هم

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠٩ .
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٣ .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٤ .
(٥) تفسير الخازن ٤/ ٢١٠ .
(٦) تفسير القرطبي ١٧/ ٧٤ .

الأرباب فيفعلون ما يشاءون ولا يكونون تحت أمر ولا نهي ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ ؟ أي أم لهم مرقى ومصعد إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى فيعلمون أنهم على حق فهم به مستمسكون؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي فليأت من يزعم ذلك بحجة بينة واضحة على صدق استماعه كما أتى محمد بالبرهان القاطع. ثم وبخهم تعالى على ما هو أشنع وأقبح من تلك المزاعم الباطلة وهو نسبتهم إلى الله البنات، وجعلهم لله جل وعلا ما يكرهون لأنفسهم فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ؟ أي كيف تجعلون لله البنات - مع كراهتكم لهن - وتجعلون لأنفسكم البنين؟ أهذا هو المنطق والإنصاف؟ قال القرطبي: سفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا والمعنى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث. وقال أبو السعود: تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم، وإيذانٌ بأن من هذا رأيه لا يكاد يُعد من العقلاء، فضلاً عن الترقي إلى عالم الملكوت، والاطلاع على الأسرار الغيبية، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ. ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي هل تسألهم يا محمد أجرًا على تبليغ الرسالة وتعليم أحكام الدين؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم بسبب ذلك الأجر والغُرم الثقيل الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك، ولا يدخلون في الإسلام؟ فإن العادة أن من كلف إنسانًا مالاً وضرب عليه جُعلاً يصير مثقلاً وغارمًا بسببه فيكرهه ولا يسمع قوله ولا يمتثله ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ؟ أي أعندهم علم الغيب حتى يعلموا أنَّ ما يخبرهم به الرسول من أمور الآخرة والحشر والنشر باطلٌ فلذلك يكتبون هذه المعلومات عن معرفة ويقين؟ قال قتادة: هو ردٌّ لقولهم ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ والمعنى أعلموا أن محمدًا يموت قبلهم حتى يحكموا بذلك ؟ وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه، ويخبرون الناس بما فيه[4] ؟ ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ ؟ أي أيريد هؤلاء المجرمون أن يتآمروا عليك يا محمد؟ قال المفسرون: والآية إشارة إلى كيدهم في دار الندوة وتآمرهم على قتل الرسول كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي فالذين جحدوا رسالة محمد هم المجزيون بكيدهم، لأن ضرر ذلك عائد عليهم، ووباله راجع على أنفسهم كقوله. ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، قال الصاوي: وأوقع الظاهر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موقع المضمر تشنيعًا وتقبيحًا عليهم وتسجيلاً بصفة الكفر[6] ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ ؟ أي ألهم إله خالق رازق غير الله تعالى حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة؟ ويستنجدوا به لدفع الضر والعذاب عنهم؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس الله عما

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/٥٧. (٢) تفسير القرطبي ١٧/٧٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/١٧٥. (٤) تفسير ابن الجوزي ٨/٥٨.
(٥) تفسير القرطبي ١٧/٧٦. (٦) حاشية الصاوي ٤/١٣٤.

يشركون به من الأوثان والأصنام، قال الإمام الجلال: والاستفهام بـ(أم) في مواضعها الخمسة عشر للتوبيخ والتقريع والإنكار(١). ثم أخبر تعالى عن شدة طغيانهم وفرط عنادهم فقال ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو عاينوا قطعة من السماء نازلة عليهم لم ينتهوا ولم يرجعوا، ولقالوا في هذا النازل عنادًا واستهزاء: إنه سحاب مركوم ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي إنه سحاب متراكم بعضه فوق بعض قد سقط علينا، قال أبو حيان: كانت قريشٌ قد اقترحت على رسول الله ﷺ فيما اقترحت من قولهم ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عيانًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ويقولوا: هو سحابٌ مركوم أي سحاب تراكم بعضه فوق بعض ممطرنا، وليس بكسفٍ ساقط للعذاب(٢) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي اتركهم يا محمد، يتمادون في غيهم وضلالهم، حتى يلاقوا ذلك اليوم الرهيب، يوم القيامة، الذي يهلكون فيه من العذاب ويزول عقولهم ويسلب إحساسهم ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ولا يدفع عنهم شيئًا من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا هم يُمنعون من عذاب الله في الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي وإن للذين كفروا عذابًا شديدًا في الدنيا قبل عذاب الآخرة، قال ابن عباس: هو عذاب القبر، وقال مجاهد: هو الجوع والقحط سبع سنين(٣) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن العذاب نازل بهم ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه فيما حمّلك به من أعباء الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فإنك بحفظنا وكلاءتنا نحرسك ونرعاك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ونزّه ربك عما لا يليق به من صفات النقص حين تقوم من منامك ومن كل مجلس بأن تقول: سبحان الله وبحمده، قال ابن عباس: أي صلِّ لله حين تقوم من منامك(٤) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي ومن الليل فاذكره واعبده بالتلاوة والصلاة والناس نيام كما قال ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وصلِّ له في آخر الليل حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، وفي الحديث: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»(٥).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- جناس الاشتقاق ﴿تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

٢- الإهانة والتوبيخ ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ وبين قوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ طباق السلب، وهو من المحسنات البديعية.

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل

---

(١) تفسير الجلالين ٤/١٦٦ — (٢) تفسير البحر المحيط ٨/١٥٢

(٣) البحر المحيط ٨/١٥٣ — (٤) تفسير ابن الجوزي ٨/٦٦.

(٥) المختصر ٣/٣٩٥

٤ـ الاستعارة التبعية ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ شبهت حوادث الدهر بالريب الذي هو الشك بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة في كل منهما واستعير لفظ الريب لصروف الدهر ونوائبه بطريق الاستعارة التبعية.

٥ـ الأسلوب التهكمي ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ لأنه جاء بطريق التهكم والسخرية بعقولهم.

٦ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟.

٧ـ أسلوب الفرض والتقدير ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.

٨ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ومثل ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ وهلم جرا.

فائدة: عن جبير بن مطعم قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ .. فلما قرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير.

«تم بعون الله تفسير سورة الطور»

بين يدي السورة

* سورة النجم مكية، وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور شأن سائر السور المكية.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع (المعراج) الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع مما يدهش العقول ويحير الألباب، وذكّرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق، وعدم المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي.

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة، وبطلان عبادة غير الله، سواء في ذلك عبادة الأصنام أو عبادة الملائكة الكرام.

* ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، فينال المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، وينقسم الناس إلى فريقين: أبرار، وفجار.

* وقد ذكرت برهانًا على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه، وأنه لا تحمل نفسٌ وزر أخرى؛ لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم، وهو شرع الله المستقيم، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم، وفي الكتب السماوية السابقة.

* وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والإفقار، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

* وختمت السورة الكريمة بما حلّ بالأمم الطاغية كقوم عاد، وثمود، وقوم نوح ولوط، من أنواع العذاب والدمار، تذكيرًا لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وزجرًا لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ إلى ... ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢).

اللغَة: ﴿هَوَى﴾ هوى يهوي إذا سقط إلى أسفل ﴿مِرَّةٍ﴾ المِرة بكسر الميم القوة قال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مرة[1] ﴿تَدَلَّى﴾ التدلي: الامتداد من أعلى إلى أسفل يقال: تدلى الغصن إذا امتد نحو الأسفل ﴿قَابَ﴾ قدر [illegible] قاب والقاد والقيد

(١) تفسير القرطبي ٨٥/١٧.

مقتضية ذلك[1] ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي لا يتكلم ﷺ عن هوى نفسي ورأي شخصي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي لا يتكلم إلا عن وحيٍ من الله عزَّ وجل. قال البيضاوي: أي ما القرآن إلا وحيٌ يوحيه الله إليه[2] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي علَّمه القرآن ملكٌ شديدٌ قواه وهو جبريل الأمين، قال المفسرون: ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين، وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أو صعوده في أسرع من رجعة الطرف ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي ذو حصافة في العقل، وقوة في الجسم، فاستقرَّ جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي وهو بأفق السماء حيث تطلع الشمس جهة المشرق، قال ابن عباس: المراد بالأفق الأعلى مطلع الشمس[3]. قال الخازن: كان جبريل يأتي رسول الله ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله، فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه على صورته التي جُبل عليها، فأراه نفسه مرتين مرةً في الأرض، ومرةً في السماء، فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى أي جانب المشرق حيث كان رسول الله ﷺ بحراء فطلع عليه جبريل من ناحية المشرق وفتح جناحيه فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فخرَّ رسول الله ﷺ مغشيًا عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين فضمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحدٌ من الأنبياء على صورته الملكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ[4] ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي ثم اقترب جبريل من محمد وزاد في القرب منه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي فكان منه على مقدار قوسين أو أقل، قال الألوسي: والمراد إفادة شدة القرب فكأنه قيل: فكان قريبًا منه[5] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحى إليه من أوامر الله عزَّ وجل ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي ما كذب قلب محمد ما رآه ببصره من صورة جبريل الحقيقية، قال ابن مسعود: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم[6] ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ؟ أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج؟ قال في البحر: كانت قريش حين أخبرهم ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم ﷺ بيت المقدس، والجمهور على أن المرئي مرتين هو جبريل، وعن ابن عباس وعكرمة أن الرسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وأنكرت ذلك عائشة وقالت: إنه رأى جبريل في صورته مرتين ثم قال أبو حيان. والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

---

(1) تفسير أبي السعود (٥)
(2) تفسير البيضاوي ٤/١٢٦ .
(3) تفسير القرطبي ١٧/٨٨ .
(4) تفسير الخازن ٤/٢٦٣
(5) تفسير الألوسي ٢٧/٤٨ .
(6) أخرجه الإمام أحمد .

بأنه ينقضي مرة متقدمة (١) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي رأى الرسول جبريل في صورته الملكية مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ أي عند سدرة المنتهى التي هي في السماء السابعة قرب العرش، قال المفسرون: والسدرة شجرة النبق التي تنبع من أصلها الأنهار، وهي عن يمين العرش، وسميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحدٌ ما وراءها إلا الله جل وعلا وفي الحديث: «ثم صعد بي إلى السماء السابعة، ورفعت إلي سدرة المنتهى فإذا نبقها - أي ثمرها - مثل قلال هجر وإذا أوراقها كآذان الفيلة..» (٢) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي عند سدرة المنتهى الجنة التي يأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ أي وقت ما يغشى السدرة ما يغشى من العجائب، قال الحسن: غشيها نور رب العالمين فاستنارت، وقال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب (٣) وفي الحديث: «فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها» (٤) قال المفسرون: رأى عليه السلام شجرة سدرة المنتهى وقد غشيتها سبحات أنوار الله عز وجل، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وغشيتها الملائكة أمثال الطيور يعبدون الله عندها، ويجتمعون حولها مسبحين وزائرين كما يزور الناس الكعبة وفي الحديث: «رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً يسبح الله تعالى» (٥) ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ في ذلك المقام وفي تلك الحضرة يميناً وشمالاً ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي وما جاوز الحدَّ الذي رأى قال القرطبي: أي لم يمدَّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وهذا وصف أدب النبي ﷺ في ذلك المقام إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً (٦) وقال الخازن: لما تجلى رب العزة وظهر نوره، ثبت ﷺ في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول، وتزل فيه الأقدام، وتعمى فيه الأبصار (٧) ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى محمد - ليلة المعراج - عجائب ملكوت الله، رأى سدرة المنتهى، والبيت المعمور، والجنة والنار، ورأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السموات له ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سدَّ الأفق (٨) وغير ذلك من الآيات العظام، قال المفسر: وفي الآية دليل على أن النبي ﷺ رأى ليلة المعراج آيات ربه ولم ير الله كما قال البعض، ووجهه أن الله ختم قصة المعراج برؤية الآيات، وقال في الإسراء ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ

---

(١) البحر المحيط ٨/١٥٨ قلت: وما ذكره صاحب البحر قوي من حيث الدلالة، وذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج في السموات العلى رؤية بصرية، ولهم أدلة من السنة النبوية، أن الآيات الكريمة فالراجح ما قاله الجمهور، والله أعلم.

(٢) جزء من حديث أخرجه الشيخان.
(٣) الحديث رواه مسلم.
(٤) أخرجه مسلم أيضاً.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/١٤٧.
(٦) تفسير القرطبي ١٧/٩٨.
(٧) تفسير الخازن ٤/٢١٦.
(٨) رؤيته ﷺ الرفرف الأخضر الذي سد الأفق. أخرجه البخاري عن ابن مسعود.

شيئاً﴾ ولو كان بأن رآه بكل ذلك أعظم ما يمكن ولا أخبر تعالى به»[1] ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ أي أخبرونا يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التي تعبدونها (اللات والعزى ومناة) هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رب العزة شيء حتى زعمتم أنها آلهة؟ قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العُزّى، وكانت اللات بالطائف، والعُزّى بغطفان وقد هدمها خالد بن الوليد، ومناة صنم لخزاعة يعبده أهل مكة»[2] ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾؟ توبيخ وتقريع أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى؟ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي تلك القسمة قسمة جائرة غير عادلة حيث جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، قال الرازي: إنهم ما قالوا لنا البنون وله البنات، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك نسبة قسمة جائرة»[3] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي ما هذه الأوثان إلا أسماء مجردة لا معنى تحتها، لأنها لا تضر ولا تنفع، سمّيتموها آلهة أنتم وآباؤكم وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زيّنه لهم الشيطان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي والحال أنه قد جاءهم من ربهم البيان الساطع، والبرهان القاطع على أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار، قال ابن الجوزي: وفيه تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان»[4] ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام، قال الصاوي: والمراد بالإنسان الكافر، وهذه الآية تجر بذيلها على من يلتجىء لغير الله طلباً للدنيا، ويتبع هوى نفسه فيما تطلبه فليس له ما يشتهي، واتباع الهوى هو [illegible]»[5] ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أي فالسلطان كله لله يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهي الإنسان، بل هو تعالى يعطي من اتبع هداه وترك هواه. ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المقيمين في السموات ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ أي أن الملائكة مع علو منزلتهم ورفعة شأنهم لا تنفع شفاعتهم أحداً إلا بإذن الله، فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها؟! ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ أي إلا من بعد أن يأذن تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق

---

(1) التفسير الكبير ٧/ ٢٤٠. (2) تفسير الخازن ٤/ ٢٦٨.
(3) التفسير الكبير ٧/ ٢٤٣. (4) تفسير ابن الجوزي ٨/ ٧٤.
(5) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٢٩.

الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة الأصنام والأنداد عند الله تعالى؟(١) ثم أخبر تعالى عن ضلالات المشركين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث والحساب ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ﴾ أي ليزعمون أنهم إناث وأنهم بنات الله ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي لا علم لهم بما يقولون أصلاً، لأنهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، ولا عندهم عن الله حجة أو برهان ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في هذه الأقوال الباطلة إلا الظنون والأوهام ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي وإن الظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين الذين استكبروا عن الإيمان والقرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي وليس لهم همٌّ إلا الدنيا وما فيها من النعيم الزائل والمتعة الفانية. قال أبو السعود: والمراد النهي عن دعوة المعرض عن كلام الله وعدم الاعتناء بشأنه، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا بحيث صارت منتهى همته وقصارى سعيه، لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل(٢) ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وغاية إدراكهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي هو عالم بالفريقين: الضالين والمهتدين ويجازيهم بأعمالهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحد في ذلك شيء أصلاً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ليجازي المسيء بإساءته ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي وليجازي المحسن بالجنة جزاء إحسانه، قال ابن الجوزي: والآية إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾، لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن جازى كلاً بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك(٣) ثم ذكر تعالى صفات المحسنين المتقين فقال ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ أي يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي ويبتعدون عن الفواحش جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحها عقلاً وشرعاً كالزنى ونكاح زوجة الأب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ وقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب. قال القرطبي: وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله كالقبلة والغمزة والنظرة(٤) وفي الحديث «إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(٥) فإذا اجتنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بفضله وكرمه الصغائر لقوله تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٠٤ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٦٠ .
(٣) تفسير ابن الجوزي ٨/٧٥ .
(٤) تفسير القرطبي ١٧/١٠٦ .
(٥) أخرجه البخاري ومسلم .

ابن كثير: أي كما لا يُحمل عليه وزرُ غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه(١) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي وأن عمله سيُعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه قال الخازن: وفي الآية بشارة للمؤمن، وذلك أن الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها، ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً(٢) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي ثم يُجزى بعمله الجزاء الأتم الأكمل، وهو وعيدٌ للكافر ووعدٌ للمؤمن ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي إليه جل وعلا المرجع والمآب والمصير فيعاقب ويثيب .. ثم شرع تعالى في بيان آثار قدرته فقال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى، قال مجاهد: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار(٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي خلق الموت والحياة فهو جل وعلا القادر على الإماتة والإحياء لا غيره، ولهذا كرر الإسناد (هو) لبيان أن هذا من خصائص فعل الله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ أي أوجد الصنفين الذكر والأنثى من أولاد آدم ومن كل حيوان، قال الخازن: والغرض أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد، الضحك والبكاء، والإحياء والإماتة، والذكر والأنثى، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه، وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة، وفيه تنبيه على كمال قدرته؛ لأن النطفة شيء واحد خلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعاً متباينة، وخلق منها الذكر والأنثى، وهذا من عجيب صنعه وكمال قدرته(٤) ولهذا قال ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي خلق الذكر والأنثى من نطفةٍ إذا تدفقت من صلب الرجل، وصُبَّت في رحم المرأة ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ أي وأن عليه جل وعلا إعادة خلق الناس للحساب والجزاء، وإحياءهم بعد موتهم، قال في البحر: لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ فيها بقوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه(٥) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ أي أغنى من شاء، وأفقر من شاء(٦) وقال ابن عباس: أعطى فأرضى، أغنى الإنسان ثم رضّاه بما أعطاه ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ أي هو ربُّ الكوكب المضيء المسمى بالشعرى الذي كانوا يعبدونه، قال أبو السعود: أي هو رب معبودهم، وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم ذلك رجلٌ من أشرافهم هو (أبو كبشة)(٧) ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ أي أهلك قوم عاد القدماء، الذين بُعث لهم نبيُّ الله (هود) عليه السلام، وكانوا من أشد الناس وأعتاهم، وأطغاهم على الله وأظلمهم، فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، قال البيضاوي: سميت عاداً الأولى أي القدماء؛ لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام(٨) ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ أي وثمود دمَّرهم فلم يُبق منهم أحداً ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وقوم نوح قبل عادٍ وثمود

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٠٤.
(٢) تفسير الخازن ٤/٢٤٣
(٣) البحر المحيط ٨/١٦٨
(٤) تفسير الخازن ٤/٢٤٤
(٥) البحر المحيط ٨/١٦٨
(٦) هذا قول ابن زيد ثم قرأ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾
(٧) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣.
(٨) تفسير البيضاوي ٤/١٧٤

أهلكناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي كانوا أظلم من الفريقين، وأشد تمردًا وطغيانًا ممن سبقهم، قال في البحر: كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك، ولا يتأثرون بشيء مما يدعوهم إليه، قال قتادة: دعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، كلما هلك قرن نشأ قرن، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يمشي به إلى نوح فيحذره منه ويقول له: يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على بغض نوح(1) ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن اقتلعت بهم فصار عاليها سافلها، وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي فغطاها من فنون العذاب ما غطى، وفيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه، قال في البحر: والمؤتفكة هي مدائن قوم لوط، سميت بذلك لأنها انقلبت بأهلها، رفعها جبريل عليه السلام ثم أهوى بها إلى الأرض، ثم أمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود فذلك قوله: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾(2) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي فبأي نعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان وتكذب؟! ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي هذا هو محمد رسول منذر كسائر الرسل ومن جنس المنذرين الأولين وقد علمتم ما حلَّ بالمكذبين ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي دنت الساعة واقتربت القيامة قال القرطبي: سميت آزفة لدنوها وقرب قيامها(3) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي لا يقدر على كشفها وردها إذا غشيت الخلق بأهوالها وشدائدها إلا الله تعالى ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ استفهامٌ للتوبيخ أي أفمن هذا القرآن تعجبون يا معشر المشركين سخرية واستهزاء؟! ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي وتضحكون عند سماعه، ولا تبكون من زواجره وآياته؟ وقد كان حقكم أن تبكوا الدم بدل الدمع حزنًا على ما فرطتم ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ أي وأنتم لاهون غافلون؟ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي فاسجدوا لله الذي خلقكم وأفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى، ومناة والشعرى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا يليق السجود والعبادة إلا له جل وعلا.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الإبهام للتعظيم والتهويل ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ومثله ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ وكذلك ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

٢- الجناس ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ فالأول هوى بمعنى خر وسقط، والثاني بمعنى هوى النفس.

٣- الطباق بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿أَغْنَىٰ﴾ و﴿أَقْنَىٰ﴾ وبين ﴿الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ وبين ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

٤- المقابلة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ كما فيه إطناب في تكرار لفظ

---

(1) البحر المحيط ٨/ ١٧٠.
(2) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة.
(3) تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٢.

ضِيزَى وغيرهما من المحسنات البديعية.

٥- الاستفهام الذي يخرج مع الإنكار والتوبيخ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾

٦- الجناس الناقص بين ﴿أَغْنَىٰ﴾ .. ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ لتغير بعض الحروف.

٧- جناس الاشتقاق ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾

٨- عطف العام على الخاص ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾.

٩- مراعاة الفواصل ورؤوس الآيات، مما له أحسن الوقع على السمع مثل ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ومثله ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ ويسمى بالسجع.

تنبيه: كانت الأصنام التي عبدها المشركون كثيرة تقرب من ثلاثمائة وستين صنماً منصوبة حول الكعبة وقد حطمها ﷺ عند فتحه لمكة، وأشهر هذه الأصنام (اللات، والعزى، ومناة) وقد أرسل ﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليحطم العزى فحطمها وهو يقول:

يا عزُّ كُفرانكِ لا سبحانكِ ... إني رأيتُ الله قد أهانكِ

وانتهت بفتح مكة عبادة الأوثان والأصنام، ودخل الناس في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

تفسير سورة القمر

بين يدي السورة

* سورة القمر من السور المكية، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن، وطابع السورة الخاص: هو طابع التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك المعجزة (المعجزة الكونية) معجزة انشقاق القمر، التي هي إحدى المعجزات العديدة لسيد البشر ﷺ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة حسية تدل على صدقه، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ليشهدوا له بالرسالة، ومع ذلك عاندوا وكابروا ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزاً، ويحرك في النفس الرعب والفزع من هول ذلك اليوم العصيب ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

* وبعد الحديث عن كفار مكة، يأتي الحديث عن مصارع المكذبين، وما نالهم في الدنيا من صنوف العذاب والدمار بدءاً بقوم نوح ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة، الذين كذبوا الرسل فأهلكهم الله إهلاكاً فظيعاً، ودمرهم عن بكرة أبيهم، وقد تحدثت الآيات عن قوم (عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون) وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب، مع تصوير أنواع العذاب.

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة -مشاهد العذاب والنكال- الذي حل بالمكذبين لرسل الله صلى الله عليهم وسلم توجهت السورة إلى مخاطبة قريش، وحذرتهم مصرعاً كهذا المصرع بل ما هو أشد وأنكى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ الآيات. وختمت السورة ببيان مآل السعداء المتقين، بعد ذكر مآل الأشقياء المجرمين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، بأسلوبه العجيب ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ...﴾ إلى ﴿... فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٢).

اللغَة: ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين يقال: أهطع في سيره أي أسرع ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ المنهمر الماء نزل بقوة غزيراً ﴿دُسُرٍ﴾ الدُسر: المسامير التي تُشدُّ بها السفينة جمع

دُسُر كَكِتاب وكُتُب، قال في الصحاح: الدِّسَار واحد الدُّسُر وهي خيوط تُشد بها ألواح السفينة ويقال: هي المسامير[1] ﴿مُدَّكِرٍ﴾ متعظ خائف وأصله مذتكر قلبت التاء دالاً ثم أدغمت الذال فيها فصارت مدَّكر ﴿صَرْصَرًا﴾ الصرصر: الشديدة الصوت مع البرد مأخوذ من صرير الباب وهو الصوت ﴿أَعْجَازُ﴾ جمع عجز وهو مؤخر الشيء ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ المنقعر المنقلع من أصله يقال: قعرت الشجرة قعرًا قلعتها من أصلها فانقعرت ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون من قولهم: ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة قال الشاعر:

تخال بها سُعُرًا إذا السفر هزَّها[2]

﴿أَشِرٌ﴾ الأشِر: البَطِر، ورجلٌ أَشِر أي بطِر أبطرته النعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

التفسير: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ أي دنت القيامة وقد انشق القمر ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أي وإن ير كفار قريش علامة واضحة ومعجزة ساطعة، تدل على صدق محمد ﷺ يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا: هذا سحرٌ دائم، سحر به محمدٌ أعيننا قال المفسرون: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقًا فشُقَّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقَّ القمر نصف على جبل الصفا، ونصفٌ على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم!! فقال أبو جهل:

---

(١) الصحاح مادة دسر. (٢) تفسير القرطبي ١٢٨/١٧.

اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا. فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر أي دائم فأنزل الله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال الخازن: وانشقاق القمر من آيات رسول الله الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، يدل عليه ما أخرجه الشيخان عن أنس (أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين) وما روي عن ابن مسعود قال: (انشق القمر على عهد رسول الله شقتين، فقال رسول الله: اشهدوا) وما روي عن جبير بن مطعم قال: (انشق القمر على عهد رسول الله فصار فرقتين، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم) فهذه الأحاديث الصحيحة قد وردت بهذه المعجزة العظيمة، مع شهادة القرآن العظيم بذلك، فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن، وقيل في معنى الآية: ينشق القمر يوم القيامة، وهذا قول باطل لا يصح، وشاذ لا يثبت، لإجماع المفسرين على خلافه، ولأن الله ذكره بلفظ الماضي ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وحمل الماضي على المستقبل بعيد ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي وكذبوا النبي وما عاينوه من قدرة الله تعالى في انشقاق القمر، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، قال مقاتل: لكل حديث منتهى وحقيقة ينتهي إليها، وقال قتادة: إن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر، وكل أمر مستقر بأهله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم الماضية المكذبين للرسل، ما فيه واعظ لهم عن التمادي في الكفر والضلال ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن حكمة بالغة، بلغت النهاية في الهداية والبيان ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ أي أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على سمعه وقلبه؟! قال المفسرون: المعنى لقد جاءهم القرآن وهو حكمة تامة قد بلغت الغاية، فماذا تنفع الإنذارات والمواعيد لقوم أصموا آذانهم عن سماع كلام الله؟ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي يوم يدعو إسرافيل إلى شيء منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة وما فيه من البلاء والأهوال ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها من شدة الهول

---

(١) هذا قول جمهور المفسرين وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر، وذهب بعضهم إلى أن القمر سينشق يوم القيامة، قال ابن الجوزي: وهو قول شاذ لا يقاوم الإجماع.

(٢) رواه البخاري ومسلم. (٣) أخرجه الترمذي وغيره.

(٤) تفسير الخازن ٤/٢٢٦ (٥) تفسير ابن الجوزي ٨/٨٩

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر في الآفاق، لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة، قال ابن الجوزي: وإنما شبههم بالجراد المنتشر، لأن الجراد لا جهة له يقصدها، فهم يخرجون من القبور فزعين ليس لأحد منهم جهة يقصدها، والداعي هو إسرافيل (1) ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي مسرعين مادّي أعناقهم إلى الداعي لا يتلكئون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي يقول الكافرون هذا يومٌ صعبٌ شديد، قال الخازن: وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يومٌ شديد على الكافرين لا على المؤمنين (2) كقوله تعالى ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾. ثم ذكر تعالى وقائع الأمم المكذبين وما حلَّ بهم من العقاب والنكال تسلية لرسول الله ﷺ وتحذيرًا لكفار مكة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي كذب قبل قومك يا محمد قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي فكذبوا عبدنا نوحًا وقالوا: إنه مجنون، وانتهروه وزجروه عن دعوى النبوة بالسب والتخويف والوعيد بقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ قال في البحر: ثم نسبوا تكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون أي أنه يقول ما لا يقبله عاقل وذلك مبالغة في تكذيبهم، وإنما قال ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريفًا له وخصوصية بالعبودية (3) ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ أي فدعا نوح ربه وقال: يا رب إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء المجرمين، فانتقم لي منهم وانتصر لدينك، قال أبو حيان: وإنما دعا عليهم بعدما يئس منهم وتفاقم أمرهم، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشيًا عليه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (4) ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي فأرسلنا المطر من السماء منصبًا بقوة وغزارة، قال أبو السعود: وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدة انصبابها (5) ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي جعلنا الأرض كلها عيونًا متفجرة بالماء ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي فالتقى ماء السماء وماء الأرض على حالٍ قد قدَّرها الله في الأزل وقضاها بإهلاك المكذبين غرقًا قال قتادة: قضى عليهم في أم الكتاب إذا كفروا أن يغرقوا ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي وحملنا نوحًا على السفينة ذات الألواح الخشبية العريضة المشدودة بالمسامير قال في التسهيل: ذات الألواح والدسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام، ويفهم من هذين الوصفين أنها (السفينة) فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ونحوه: قميصي مسرودة من حديد أي درع، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح، والدُّسر: المسامير ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تسير على وجه الماء بحفظنا وكلاءتنا وتحت رعايتنا ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي أغرقنا قوم نوح انتصارًا لعبدنا نوح، لأنه كان قد كُذِّب وجُحد فضله، قال الألوسي: أي فعلنا ذلك جزاءً لنوح، لأنه كان نعمة أنعمها الله على قومه فكفروها.

---

(1) تفسير ابن الجوزي ٨/٩٦ .
(2) تفسير الخازن ٤/٢٥٨ .
(3) تفسير البحر المحيط ٨/١٧٦ .
(4) البحر المحيط ٨/١٧٦ .
(5) تفسير أبي السعود ٥/٧٥٦ .
(6) البحر المحيط ٨/١٧٧ .

وكذلك كل نبي نعمة من الله تعالى على أمته[1] ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي تركنا تلك الحادثة (الطوفان) عبرة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من معتبر ومتعظ؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام تهويل وتعجيب أي فكيف كان عذابي وإنذاري لمن كذب رسلي، ولم يتعظ بآياتي؟ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي والله لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ، لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبر ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي فهل من متعظ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟ قال الخازن: وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به؛ لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي، قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالى يُقرأ كله ظاهراً إلا القرآن[2]، وبالجملة فقد سهّل الله القرآن حفظاً وفهماً لمن أراد حفظه وفهمه، والاتعاظ به، فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي كذبت عادٌ رسولهم هوداً فكيف كان إنذاري لهم بالعذاب؟ ثم شرع في بيان ما حل بهم من العذاب الفظيع المدمر فقال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي أرسلنا عليهم ريحاً عاصفة باردة شديدة الهبوب والصوت، قال ابن عباس: الصرصر: الشديدة البرد، وقال السدي: الشديدة الصوت[3] ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي في يوم مشئوم دائم الشؤم، استمر عليهم بشؤمه فلم يبق منهم أحدٌ إلا هلك فيه. قال ابن كثير: استمر عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ أي تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتتركهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض، شبهوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم، قال الخازن: كانت الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم، وتفصل رؤوسهم من أجسادهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض[4] ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تهويلٌ لما حلَّ بهم من العذاب وتعجيبٌ من أمرهم أي كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن هائلاً فظيعاً؟! ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرره للتنبيه على فضل الله على المؤمنين بتيسير حفظ القرآن، أي ولقد سهلنا القرآن للحفظ والفهم، فهل من متعظٍ ومعتبر بزواجر القرآن؟! ثم أخبر تعالى عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح عليه السلام فقال. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ أي أنتبع إنساناً مثلنا من آحاد الناس، ليس من الأشراف ولا العظماء، ونحن جماعة كثيرون؟ قال في البحر: قالوا ذلك حسداً منهم واستبعاداً أن يكون نوع البشر يفضل

---

(1) روح المعاني ٢٧/٨٣. (2) تفسير الخازن ٤/٢٢٨.

(3) قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال: والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فقد كانت ريحاً شديدة قوية، وكانت باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج. اهـ وهذا القول هو الذي اخترناه.

(4) تفسير الخازن ٤/٢٢٩.

بعضه ببعض هذا الفضل، فقالوا: أنكون جميعًا ونتبع واحدًا منا؟ ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويفيض نور الهدى على من يرضيه[1] ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي إنا إذًا لبعدنا في خطأ وذهاب عن الحق واضح، وجنون دائم قال ابن عباس: سُعُر أي جنون من قولهم: ناقة مسعورة كأنها من شدة نشاطها مجنونة[2] ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكاري أي هل خُصَّ بالوحي والرسالة وحده دوننا، وفينا من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً؟ قال الإمام الفخر: وفي الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريق المبالغة، وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة، فكأنهم قالوا: الملك جسيم والسماء بعيدة فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة؟ وقولهم ﴿عَلَيْهِ﴾ إنكار آخر كأنهم قالوا: ما أُلقي عليه ذكرٌ أصلاً، وعلى فرض نزوله فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ وقولهم ﴿أَؤُلْقِيَ﴾ بدلاً من قولهم «ألقى الله» إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى[3] ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي بل هو كذاب في دعوى النبوة، متجاوز في حد الكذب، متكبرٌ بطِرٌ يريد العلو علينا. وإنما وصفوه بأنه ﴿أَشِرٌ﴾ مبالغة منهم في رفض دعواه كأنهم قالوا: إنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى الخلاص كما يكذب الضعيف، وإنما تكبّر وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد أن تتبعوه فكذب على الله، فلا يلتفت إلى كلامه، لأنه جمع بين رذيلتين: الكذب والتكبر، وكلٌّ منهما مانع من اتباعه. قال تعالى تهديدًا لهم وردًّا لبهتانهم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أي سيعلمون في الآخرة من هو الكذاب الأشر، هل هو صالح عليه السلام أم قومه المكذبون المجرمون؟ قال الألوسي: المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماءً إلى أنه مما لا يكاد يخفى[4] ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي مخرجوا الناقة من الصخرة الصماء محنة لهم واختبارًا كما شاءوا وطلبوا قال ابن كثير: أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به[5] ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أي فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون وما يُصنع بهم، واصبر على أذاهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي وأعلمهم أن الماء الذي يمر بواديهم مقسومٌ بين ثمود وبين الناقة كقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال ابن عباس: إذا كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تُبقِ لهم شيئًا[6] وإنما قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تغليبًا للعقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي كل نصيب وحصة من الماء يحضرها من كانت نوبته، فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم واسمه قدار بن

---

(١) تفسير البحر المحيط ١٨٠/٨ .

(٢) تفسير القرطبي ١٣٨/١٧

(٣) التفسير الكبير للرازي ٦٩٩/٧

(٤) روح المعاني ٨٨/٢٧

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٦/٣ .

(٦) تفسير القرطبي ١٤٠/١٧ .

سالف فقتل الناقة فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعاً شديداً؟! ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي أهلكناهم بصيحة واحدة صاح بها جبريل عليه السلام فلم تبق منهم عين تطرف ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس الشجر إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام. قال الإمام الجلال: المحتظر هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو كالهشيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي يسرناه للحفظ والاتعاظ فهل من معتبر؟

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ .. إلى .. عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ من آية (٣٣) إلى آية (٥٥) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى المكذبين من قوم (عاد وثمود) ذكر هنا قوم لوط وقوم فرعون وما حل بهم من العذاب والدمار، مذكراً لكفار مكة بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله، وختم السورة الكريمة ببيان سنة الله في عقاب الكفرة المجرمين.

اللغة: ﴿حَاصِبًا﴾ الحاصب: الحجارة وقيل: هي الريح الشديدة التي تثير الحصباء وهي الحصى ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقابنا الشديد ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية جمع زبور وهو الكتاب الإلهي ﴿أَدْهَىٰ﴾ أفظع من الداهية وهي الأمر المنكر العظيم ﴿سُعُرٍ﴾ خسران وجنون ﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها.

سبب النزول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [١].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۞ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۞ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۞ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۞ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۞ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۞ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۞ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۞ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۞ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۞ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

---

[١] أخرجه مسلم والترمذي.

للناظرين. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم لوط عليه السلام ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي أرسلنا عليهم حجارة قذفوا بها من السماء، قال ابن كثير: أمر تعالى جبريل فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبعت بحجارة من سجيل منضود، والحاصب هي الحجارة(١) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أي غير لوط وأتباعه المؤمنين ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي نجيناهم من الهلاك قُبيل الصبح وقت السحر ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي إنعامًا منّا عليهم نجيناهم من العذاب ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم، نجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أي ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أي طلبوا منه أن يسلّم لهم أضيافه وهم الملائكة ليفجروا بهم بطريق اللواطة ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أعمينا أعينهم وأزلنا أثرها حتى فقدوا أبصارهم، قال المفسرون: لما جاءت الملائكة إلى لوط في صورة شباب مرد حسان، أضافهم لوط عليه السلام، فجاء قومه يهرعون إليه لقصد الفاحشة بهم، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، فخرج عليهم جبريل فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وعموا(٢) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا عقابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي جاءهم وقت الصبح عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة، قال الصاوي: وذلك أن جبريل قلع بلادهم فرفعها ثم قلبها بهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل، واتصل عذاب الدنيا بعذاب الآخرة فلا يزول عنهم حتى يصلوا إلى النار(٣) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فذوقوا أيها المجرمون عذابي الأليم، وإنذاري لكم على لسان رسولي ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي ولقد يسرنا القرآن للحفظ والتدبر فهل من متعظ ومعتبر؟ قال المفسرون: حكمة تكرار ذلك في كل قصة، التنبيه على الاتعاظ والتدبر في أنباء الغابرين، وللإشارة إلى أن تكذيب كل رسول مقتضٍ لنزول العذاب كما كرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقريرًا للنعم المختلفة المعدودة، فكلما ذكر نعمةً وبّخ على التكذيب بها(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي جاء فرعون وقومه الإنذارات المتكررة فلم يعتبروا، قال أبو السعود: صُدِّرت قصتهم بالقسم المؤكد لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، وفرعون رأس الطغيان(٥) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي كذّبوا بالمعجزات التسع التي أعطيها موسى(٦) ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أي فانتقمنا منهم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٢.

(٢) انظر تفسير الخازن ٤/٢٣٠ وتفسير الرازي ٨/٨٠٥.

(٣) حاشية الصاوي ٤/١٥٠. (٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٧/٨١٠.

(٥) تفسير أبي السعود ٥/١٦٨.

(٦) قال القرطبي: المراد المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة موسى وهي: العصا، واليد، والسنين، والطمس، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

١ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ .

٣ ـ الكناية ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ كناية عن السفينة التي تحوي الأخشاب والمسامير.

٤ ـ التشبيه المرسل والمجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ومثله ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾

٥ ـ صيغة المبالغة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي كثير الكذب عظيم البطر؛ لأن فعّال وفعل للمبالغة.

٦ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ لزيادة التخويف والتهويل.

٧ ـ المقابلة بين المجرمين والمتقين ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ و ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ .

٨ ـ الطباق بين ﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ .

٩ ـ السجع المرصّع غير المتكلف الذي يزيد في جمال اللفظ وموسيقاه اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ إلخ

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكرًا، وأحسنه في أبواب الدين أثرًا، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية(١) ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق، والمراد بالإنسان الجنس ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان. قال البيضاوي: والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان، حثًا على شكره، وتنبيهًا على تقصيرهم فيه، وإنما قدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان، لأنه أعظم النعم الدينية فقدّم الأهم(٢) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي الشمس والقمر يجريان بحساب معلوم في بروجهما، ويتنقلان في منازلهما لمصالح العباد. قال ابن كثير: أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب(٣) ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي والنجم والشجر ينقادان للرحمن فيما يريده منهما، هذا بالتنقل بالبروج، وذلك بخروج الثمار(٤) ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي والسماء خلقها عالية محكمة البناء رفيعة القدر والشأن، وأمر بالميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي لئلا تبخسوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي اجعلوا الوزن مستقيمًا بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تطففوا الوزن ولا تُنقصوه، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي والأرض بسطها لأجل الخلق، ليستقروا عليها، وينتفعوا بما خلق الله على ظهرها. قال ابن كثير: أي أرساها بالجبال الشامخات لتستقر بما على وجهها من الأنام وهم الخلائق، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أقطارها(٥) ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أي وفيها النخل الذي يطلع فيها أوعية الثمر. قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا، والأكمام هي أوعية الطلع كما قال ابن عباس، وهو الذي يطلع فيه القنو، ثم ينشق عنه العنقود فيكون بُسرًا ثم رُطبًا، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه(٦) ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ أي وفيها أنواع الحب كالحنطة والشعير وسائر ما يُتغذى به، ذو التبن الذي هو غذاء الحيوان ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها كل مشموم طيب الريح من النبات كالورد، والفل، والياسمين وما شاكلها. قال في البحر: ذكر تعالى الفاكهة أولاً ونكّر لفظها، لأن الانتفاع بها نفسها، ثم ثنّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار،

---

(١) تفسير الخازن ٤/١٤٦.
(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٢٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٥.
(٤) الأصح أن المراد بالنجم هو النجم الذي في السماء، وهو قول مجاهد واختيار ابن كثير، وروي عن ابن عباس أن المراد بالنجم هو كل نبات ينجم من الأرض وليس له ساق لمقابلته بالشجر الذي له ساق، واختار هذا القول ابن جرير، والأول أظهر.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٦.
(٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٦.

وثمر، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق، ووصفه بقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ تنبيهًا على إنعامه عليهم بما يقوتهم به من الحب، وما يقوت بهائمهم من ورقه وهو التبن، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ليحصل ما به يتفكه، وما به يتقوّت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة[1] ولما عدَّد نعمه خاطب الإنس والجن بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تُحصى؟ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: ما لي أسمع الجنَّ أحسن جوابًا لربها منكم؟ ما أتيتُ على قول الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذِّب فلك الحمد[2].. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي خلق أباكم آدم من طين يابس يسمع له صلصلة أي صوتٌ إذا نُقر، قال المفسرون: ذكر تعالى في هذه السورة أنه خلق آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وفي سورة الحجر ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي من طين أسود متغير، وفي الصافات ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي يلتصق باليد، وفي آل عمران ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ ولا تنافي بينهما، وذلك لأن الله تعالى أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طينًا لازبًا أي متلاصقًا يلتصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأً مسنونًا أي طينًا أسود منتنًا، ثم صوّره كما تُصوَّر الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نُقر صوَّت، فالمذكور هنا آخر الأطوار[3] ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي وخلق الجنَّ من لهبٍ خالص لا دخان فيه من النار، قال ابن عباس: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي لهب خالص لا دخان فيه، وقال مجاهد: هو اللهب المختلط بسواد النار[4]، وفي الحديث (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم)[5] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ قال أبو حيان: والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد والتنبيه والتحريك، وقال ابن قتيبة: إن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم، فكلما ذكر نعمةً كرر قوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6] وقد ذُكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، والاستفهام فيها للتقريع والتوبيخ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي هو جل وعلا ربُّ مشرق الشمس والقمر، وربُّ مغربهما، ولمّا ذكر الشمس والقمر في قوله ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ذكر هنا أنه رب مشرقهما ومغربهما ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله التي لا تحصى تكذبان؟ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي أرسل البحر الملح والبحر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينهما

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩٠ . (٢) أخرجه الترمذي وصححه الحاكم .
(٣) انظر حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٣٠ وحاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٤
(٤) روح المعاني ٢٧/ ١٠٥ . (٥) أخرجه مسلم وأحمد .
(٦) البحر المحيط ٨/ ١٩٠

من في السموات والأرض، ويطلبون منه الأمور والرزق بلسان المقال أو بلسان الحال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي كل ساعة ولحظة هو تعالى في شأن من شئون الخلق، يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين، قال المفسرون: هي شئونٌ يُبديها ولا يبتديها أي يظهرها للخلق ولا يبتدئها من جديد؛ لأن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، فهو تعالى يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويشفي سقيماً ويمرض سليماً، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً، ويفقر غنياً ويغني فقيراً قال مقاتل: إن الآية نزلت في اليهود قالوا: إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً، فرد الله عليهم بذلك[1] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان أيها الإنس والجان؟ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ أي سنحاسبكم على أعمالكم يا معشر الإنس والجن قال ابن عباس: هذا وعيد من الله تعالى للعباد، وليس بالله تعالى شغل وهو فارغ[2] قال في البحر: أي ننظر في أموركم يوم القيامة، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ منه، وجرى هذا على كلام العرب يقول الرجل لمن يتهدده: سأفرغ لك أي سأتجرد للانتقام منك من كل ما يشغلني[3] وقال البيضاوي: أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده: سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء يكون أقوى عليه، وأجدّ فيه، والثقلان: الإنس والجن سُمّيا بذلك لثقلهما على الأرض[4] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم من عقابه، والأمر للتعجيز ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي لا تقدرون على الخروج إلا بقوة وقهر وغلبة، وأنّى لكم ذلك؟ قال ابن كثير: معنى الآية أنكم لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم. وهذا في مقام المحشر حيث الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان أي إلا بأمر الله وإرادته ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾[5] وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا بدليل قوله تعالى بعده: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾[6] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧/١١١.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/١٩٤.
(٤) تفسير البيضاوي ٣/٤٣٤.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤١٩.
(٦) ذهب بعض المتأخرين في هذه الأيام إلى تفسير الآية تفسيراً خاطئاً فزعموا أن الإنسان يمكنه الصعود إلى السموات وإلى الكواكب وفسروا السلطان بالعلم وهو مخالف لأقوال المفسرين وبعيد عن سياق الآية وسباقها، فإن الآية سيقت لبيان أهوال الآخرة وشدائدها بدليل قوله تعالى قبلها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وقوله بعدها ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ﴾ وقد اتفق المفسرون على أنها في الآخرة، ونحن لا نستبعد إمكان وصول الإنسان بالصواريخ والمخترعات الحديثة إلى القمر أو بعض الكواكب، فإن ذلك في مقدور الإنسان ويستطيع بواسطة العلم أن يدور حول الأرض ويصعد في الأجواء ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى السماء، فقد جعلها الله سقفاً محفوظاً، أما القمر وسائر الكواكب

تقدم تفسيره ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي يرسل عليكما يوم القيامة لهب النار المحرقة ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي ونحاسٌ مذاب يصبُّ فوق رؤوسكم قال مجاهد: هو الصفر المعروف يصب على رؤوسهم يوم القيامة وقال ابن عباس: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ هو الدخان الذي لا لهب فيه، وقول مجاهد أظهر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا ينصر بعضكم بعضًا، ولا يخلصه من عذاب الله قال ابن كثير: ومعنى الآية لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة وزبانية جهنم، بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا فلا تجدون لكم ناصرًا [1] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ أي فإذا انصدعت يوم القيامة لنزول الملائكة منها لتحيط بالخلائق من كل جانب ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي فكانت مثل الورد الأحمر من حرارة النار، ومثل الأديم الأحمر أي الجلد الأحمر قاله ابن عباس، وذلك من شدة الهول، ومن رهبة ذلك اليوم العظيم ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي ففي ذلك اليوم الرهيب يوم تنشق السماء، لا يُسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه، لأن للمذنب علامات تدل على ذنبه [2] كسواد الوجوه، وزرقة العيون، قال الإمام الفخر: لا يُسأل أحد عن ذنبه، فلا يقال له: أنت المذنب أو غيرك؟ ولا يقال: من المذنب منكم؟ بل يعرفونه بسواد وجوههم وغيره [3] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي يُعرف يوم القيامة أهل الإجرام بعلامات تظهر عليهم وهي ما يغشاهم من الكآبة والحزن، قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين كقوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في جهنم، قال ابن عباس: يؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يلقى في النار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم، قال ابن كثير: أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عيانًا [4] ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حارٍ بلغ النهاية في الحرارة قال قتادة: يطوفون مرةً بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب الذي انتهى حره ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجان؟

٭ ٭ ٭

في دون السماء الدنيا ويمكن الوصول إليها، ولكننا ننكر ونتعجب من يقحم على القرآن ما ليس فيه ولا يعلم، ويقول في كتاب الله برأيه دون الرجوع إلى أقوال المفسرين المعتمدين، وانظر ما كتب في مجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٨ حول الوصول إلى القمر.

(1) مختصر تفسير ابن كثير ٤١٩/٣.
(2) تفسير القرطبي ١٧٥/١٧.
(3) التفسير الكبير للرازي ١١٨/٢٩.
(4) مختصر ابن كثير ٤٢٦/٣.

[illegible] ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ إلى ... ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من آية (٤٦) إلى آية (٧٨) نهاية السورة

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال أهل النار، ذكر ما أعدَّه للمؤمنين الأبرار من الجنان والولدان والحور الحسان، ليتميز الفارق الهائل بين منازل المجرمين ومراتب المتقين، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب.

اللغة: ﴿أَفْنَانٍ﴾ جمع فَنَن وهو الغصن قال الشاعر يصف حمامة:

ربَّ ورقاء هتوف في الضحى ... ذات شدوٍ صدحت في فنن
ذكرت إلفًا ودهرًا صالحًا ... فبكت شوقًا فهاجت حزني

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ من الديباج وخشُن ﴿وَجَنَى﴾ الجني: ما يُجتنى من الشجر ويقطف ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ الطمث: الجماع المؤدي إلى خروج دم البكر ثم أطلق على كل جماع، ومعنى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد، قال الفراء: الطمث: الافتضاض وهو النكاح بالتدمية[1] ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ سوداوان من شدة الخضرة، والدهمة في اللغة السواد ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ طنافس جمع عبقرية أي طنفسة ثخينة فيها أنواع النقوش، قال الفراء: العبقري الطنافس الثخان منها، وقال أبو عبيدة: كل ثوب وشي عند العرب فهو عبقري منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي، قال ذو الرمة:

حتى كأن رياض القف ألبسها ... من وشي عبقر تجليل وتنجيد[2]

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

التفسير: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ أي وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب جنتان: جنةٌ لسكنه، وجنةٌ لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصر

(١) تفسير القرطبي ١٧/١٨١ (٢) البحر ٨/١٨٦.

يناله القاعد والقائم والنائم، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍّ وتعب، قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ الله إن شاء قائمًا، وإن شاء قاعدًا، وإن شاء مضطجعًا[1] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم، كما هو حال المخدَّرات العفائف ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي لم يمسسهن ولم يجامعهن أحدٌ قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن، بل هنَّ أبكار عذارى، قال الألوسي: وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم، ثم على كل جماع وإن لم يكن فيه خروج دم[2] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي كأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن، قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه[3] وفي الحديث (إن المرأة من نساء أهل الجنة لَيُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير، حتى يُرى مخُّها)[4] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة، قال أبو السعود: أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب[5] والغرض أن من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين والأخريان لأصحاب اليمين، ولا شك أن مقام السابقين أعظم وأرفع لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟ ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة والري، قال الألوسي: والمراد أنهما شديدتا الخضرة، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من كثرة الري بالماء[6] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء لا تنقطعان، وقال ابن مسعود وابن عباس: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كرشِّ المطر[7] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي في الجنتين من أنواع الفواكه كلها وأنواع النخل والرمان، وإنما ذكر النخل والرمان تنبيهًا على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه ولأنهما غالب فاكهة العرب، قال الألوسي: ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء ما

---

(١) تفسير الخازن ٤/ ٢٠١ (٢) تفسير الألوسي ٢٧/ ١١٩

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩٥

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، قال ابن كثير: والموقوف أصح.

(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٧ (٦) روح المعاني ٢٧/ ١٢١

(٧) تفسير القرطبي ١٧/ ١٨٥

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- المقابلة اللطيفة بين ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ وبين ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ وكذلك المقابلة بين ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

٢- التشبيه المرسل المجمل ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي كالجبال في العظم.

٣- المجاز المرسل ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذات ربك المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٤- الاستعارة التمثيلية ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ شبه انتهاء الدنيا وما فيها من تدبير شئون الخلق ومجيء الآخرة وبقاء شأن واحد وهو محاسبة الإنس والجن بفراغ من يشغله أمور فتفرغ لأمر واحد، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، وإنما هو على سبيل التمثيل.

٥- الأمر التعجيزي ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ ... فَٱنفُذُوا۟﴾ فالأمر هنا للتعجيز.

٦- التشبيه البليغ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي كالوردة في الحمرة حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً.

٧- الجناس الناقص ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ لتغير الشكل والحروف، ويسمى جناس الاشتقاق.

٨- الإيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء قاصرات الطرف على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم.

٩- السجع المرصع غير المتكلف كأنه حبات در منظومة في سلك واحد اقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وأمثاله في السورة كثير.

فائدة: تسمى سورة الرحمن «عروس القرآن» لما ورد «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»(١).

تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٥٣.

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، أصحاب الشمال، السابقون)

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبينت عاقبة كل منهم، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام.

فضلها:

أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»(١).

ب- وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة «عبد الله بن مسعود» بسنده عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» فكان أبو ظبية لا يدعها(٢).

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ .. إلى .. هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٥٦).

اللغة: ﴿رُجَّتِ﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً … حتى صارت كالدقيق المبسوس ﴿هَبَاءً﴾ الهباء: ما تطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة من ثللت الشيء أي قطعته قاله الزجاج فمعنى ثلة كمعنى فرقة وزناً ومعنى ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ منسوجة محكمة النسج كأن

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى وابن عساكر. (٢) مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٤٤١.

أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي وظل دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس، لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ وفي الحديث «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[1] وقال الرازي: ومعنى ﴿مَّمْدُودٍ﴾ أي لا زوال له فهو دائم ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي دائم، والظلُّ ليس ظلَّ الأشجار، بل ظل يخلقه الله تعالى[2] ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي وماءٍ جارٍ دائمًا لا ينقطع، يجري من غير أخدود، قال القرطبي: كانت العرب أصحاب بادية، والأنهار في بلادهم عزيزة، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء، فوعدوا بالجنة بأسباب النزهة وهي الأشجار وظلالها، والماء والأنهار وجريانها[3] ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي وفاكهة كثيرة متنوعة، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعة عن أحد، قال ابن عباس: لا تنقطع إذا جُنيت، ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها[4] وفي الحديث «ما قُطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أعاد مكانها أخرى»[5] ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة وفي الحديث «ارتفاعها كما بين السماء والأرض، ومسيرة ما بينهما خمس مائة عام»[6] قال الألوسي: ولا تستبعد هذا من حيث العروجُ والنزولُ، فذاك عالم آخر وراء طور عقلك[7] تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ثم ترتفع به، والله على كل شيء قدير ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ أي خلقنا نساء الجنة خلقًا جديدًا، وأبدعناهن إبداعًا عجيبًا. قال في التسهيل: ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقًا آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا، فالعجوز ترجع شابة، والقبيحة ترجع جميلة[8]، قال ابن عباس: يعني الآدميات العجائز الشمط خلقهن الله بعد الكبر والهرم خلقًا آخر[9] ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي فجعلناهن عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهي المتحببة لزوجها العاشقة له، قال مجاهد: هن العاشقات لأزواجهن المتحببات لهن اللواتي يشتهين أزواجهن[10] ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السنّ مع أزواجهن، في سنّ أبناء ثلاث وثلاثين، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت «سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ فقال: يا أم سلمة هن اللواتي قُبضن في الدنيا عجائز، رُمصًا، شُمطًا، جعلهن الله بعد الكبر أترابًا على ميلادٍ واحد في الاستواء»[11] وفي الحديث أن امرأة عجوزًا جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولَّت تبكي، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ١٦٤.
(٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٠٨.
(٤) تفسير الخازن ٤/ ١٨.
(٥) أخرجه الطبراني.
(٦) أخرجه النسائي والترمذي.
(٧) روح المعاني ٢٧/ ١٤١.
(٨) التسهيل ٤/ ٨٠.
(٩) تفسير الخازن ٤/ ١٨.
(١٠) تفسير الألوسي ٢٧/ ١٤٣.
(١١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢١٠ والحديث أخرجه الترمذي عن أنس مرفوعًا.

أخبرتها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (1) ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي خلقنا هؤلاء الأبكار لأصحاب اليمين ليستمتعوا بهن في الجنة، ثم قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي هم جماعة من الأولين من الأمم الماضية، وجماعة من المتأخرين من أمة محمد ﷺ، قال في البحر: ولا تنافي بين هذه الآية ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وبين الآية التي سبقتها وهي قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ لأن الثانية في السابقين فلذلك قال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وهذه في أصحاب اليمين ولذلك قال: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (2) ثم شرع تعالى في بيان الصنف الثالث وهم أهل النار فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم أي وأصحاب الشمال وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم - ما أصحاب الشمال؟ أي ما حالهم وكيف مآلهم؟ ثم فصّل تعالى حالهم فقال: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ أي في ريح حارة من النار تنفذ في المسام، وماء شديد الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي وفي ظل من دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ أي ليس هذا الظل بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وليس حسن المنظر يُسرُّ به من يستظل بظله قال الخازن: إن فائدة الظل ترجع إلى أمرين

أحدهما: دفع الحر، والثاني: حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً، وظل أهل النار بخلاف ذلك لأنهم في ظل من دخان أسود حار (3) ثم بيّن تعالى سبب استحقاقهم ذلك فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا منعّمين، مقبلين على الشهوات والملذات ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك بالله، قال المفسرون: لفظ الإصرار يدل على المداومة على المعصية، والحنث هو الذنب الكبير والمراد به هنا الكفر بالله كما قاله ابن عباس ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي هل سنبعث بعد أن تصبح أجسادنا تراباً وعظامنا نخرة؟ وهذا استبعادٌ منهم لأمر البعث وتكذيب له ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾؟ تأكيد للإنكار ومبالغة فيه أي وهل سيبعث آباؤنا الأولون بعد أن بليت أجسامهم وتفتت عظامهم؟ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين، سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أي ثم إنكم يا معشر كفار مكة، الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والنشور، لآكلون من شجر الزقوم الذي ينبت في أصل الجحيم ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ أي فمالئون بطونكم من تلك الشجرة الخبيثة لغلبة الجوع عليكم ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ أي فشاربون عليه الماء الحار الذي اشتد غليانه

---

(1) أخرجه الترمذي في الشمائل. (2) البحر المحيط ٨/٢٠٧.
(3) تفسير الخازن ٤/٢١٧.

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ أي فشاربون شرب الإِبل العطاش قال ابن عباس: الهيم الإِبل العطاش التي لا تروى لداءٍ يصيبها(١) وقال أبو السعود: إنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل، فإذا ملأوا منه بطونهم -وهو في غاية الحرارة والمرارة- سُلّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم وهي الإِبل التي بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى(٢) ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذه ضيافتهم وكرامتهم يوم القيامة، وفيه تهكم بهم قال الصاوي: والنُّزُل في الأصل ما يهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة، فتسمية الزقوم نزلاً تهكمٌ بهم.

☐ ☐ ☐

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إلى ... ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ من آية (٥٧) إلى آية (٩٦) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، ليقيم الحجة على المنكر المكذّب بوجود الله، وختم السورة الكريمة بالتذكير بذكر أهل السعادة، وأهل الشقاوة، والسابقين إلى الخيرات، ليكون ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإِجمال، والإِشادة بذكر مآثر المقربين في الدنيا والآخرة.

اللغة: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تفكّه بالشيء تمتّع به، ورجلٌ فَكِهٌ: منبسط النفس غير مكترث بشيء ﴿الْمُزْنِ﴾ السحاب جمع مُزنة قال الشاعر:

ونحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيلُ(٣)

﴿تُورُونَ﴾ توري النار من الزناد: تقدحها ﴿الْمُقْوِينَ﴾ المسافرين يقال: أقوى الرجل إذا دخل القواء وهو القفر، والقوى: الجوع قال الشاعر:

وإني لأختار القوى طاوي الحشا ... محافظةً من أن يُقال لئيمُ(٤)

﴿مُدْهِنُونَ﴾ المدهن: الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شُبّه بالدهن في سهولة ظاهره ومنه المداهنة ﴿مَدِينِينَ﴾ مجزيين ومحاسبين من الدين بمعنى الجزاء ﴿رَوْحٌ﴾ الروح بفتح الراء: الاستراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ الريحان: كل مشموم طيب الريح من النبات.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢١٤
(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٣٣
(٣) تفسير القرطبي ١٧/٢٢٠
(٤) نفس المرجع السابق ١٧/٢٢٢

ولسنا بعاجزين أيضاً أن نعيدكم يوم القيامة في خلقةٍ لا تعلمونها ولا تصل إليها عقولكم، والغرضُ أن الله قادر على أن يهلكهم وأن يبدلهم وأن يبعثهم يوم القيامة، ففي الآية تهديد واحتجاج على البعث[1] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؟! ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته أي أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الطين ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾؟ أي أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون زرعاً فيه السنبل والحب أم نحن الفاعلون لذلك؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذي يخرج الحبَّ وينبت الزرع، فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض؟! ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيماً متكسراً لا ينتفع به في مطعم ولا غيره، قال القرطبي: والحطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبههم بذلك على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النعم في زرعهم ليشكروه، الثاني: ليعتبروا في أنفسهم فكما أنه تعالى يجعل الزرع حُطاماً إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا[2] ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي فظللتم بسببه تتعجبون وتحزنون على الزرع مما حلَّ به وتقولون ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي إنا لمحملون الغرم[3] في إتلافنا حيث ذهب زرعنا وغرمنا الحب الذي بذرناه ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بل نحن محرومون الرزق، غرمنا ثمن البذر، وحرمنا خروج الزرع ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتسكنوا به غلة العطش ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ أي هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون له بقدرتنا؟ قال الخازن: ذكّرهم تعالى نعمته عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله عز وجل[4] ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي لو شئنا لجعلناه ملحاً شديد الملوحة لا يصلح لشرب ولا زرع، قال ابن عباس: ﴿أُجَاجًا﴾ شديد الملوحة وقال الحسن: مُرّاً زُعاقاً، لا يمكن شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا تشكرون ربكم على نعمه الجليلة عليكم؟! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[5] ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ أي هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون؟ قال ابن كثير: وللعرب شجرتان: إحداهما المرخ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٩١.   (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢١٨.

(٣) قال الضحاك: المغرم من الغرم والغرم هو الذي ذهب ماله بغير عوض، وقال ابن عباس: معذبون والغرام: العذاب.

(٤) تفسير الخازن ٤/٢٣.   (٥) أخرجه ابن أبي حاتم.

والأخرى العَفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحُكَّ أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار، وقيل: أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، لما روي عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنّاب ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي جعلت نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى نار جهنم، إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى الله ويخاف عقابه وفي الحديث: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا يا رسول الله: إن كانت لكافية!! فقال: والذي نفسي بيده لقد فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها» ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي ومنفعة للمسافرين. قال ابن عباس: المقوين: المسافرين، وقال مجاهد: للحاضر والمسافر، المستمتعين بالنار من الناس أجمعين. قال الخازن: والمقوي النازلُ في الأرض القواء - وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران - والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسُّفّار، فإن منفعتهم أكثر من المقيم، فإنهم يوقدون النار بالليل لتهرب السباع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع وهو قول أكثر المفسرين. ولما ذكر دلائل القدرة والوحدانية في الإنسان، والنبات، والماء، والنار، أمر رسوله بتسبيح الله الواحد القهار فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي نزِّه يا محمد ربك عما أضافه إليه المشركون من صفات العجز والنقص وقل: سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخَّرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه!! عدَّد سبحانه وتعالى نعمه على عباده، فبدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ثم بما به قوامه ومعيشته وهو الزرع فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ثم بما به حياته وبقاؤه وهو الماء فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ثم بما يصنع به طعامه، ويصلح به اللحوم والخضار وهو النار فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ فيا له من إله كريم، ومنعم عظيم!! ثم شرع بالقسم على جلال القرآن ورفعته، وعلو شأنه ومنزلته، وأنه تنزيل العزيز الحكيم فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ اللام لتأكيد الكلام وتقويته، وزيادة «لا» كثير في كلام العرب ومشهور قال الشاعر:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابة ... وكاد نياطُ القلب لا يتقطع

أي كاد يتقطع، قال القرطبي: «لا» صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى (فأقسم) بدليل قوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ أي لأقسم بمنازل النجوم وأماكن دورانها في أفلاكها وبروجها ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وإن هذا القسم العظيم جليل، لو عرفتم عظمته لآمنتم وانتفعتم

مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٣٨ — حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٦٦

أخرجه الشيخان ومالك — مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٣٨

تفسير الخازن ٤/٩٤

تفسير القرطبي ١٧/٢٢٣ وانظر تفصيل الأقوال وترجيحها في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» الجزء الثاني ص٥٠٥

مهلاً تردون نفس من يعزّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به (١). ثم ذكر تعالى طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبيَّن درجاتهم في الآخرة فقال ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها قال القرطبي: والمراد بالمقربين السابقون المذكورون في أول السورة (٢) ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي وأما إن كان هذا المحتضر من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي فسلامٌ لك يا محمد منهم، لأنهم في خير وسعادة ونعيم ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين للبعث، الضالين عن الهدى والحق ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي فضيافتهم التي يكرمون بها أول قدومهم، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته قال في التسهيل: النُّزُل أول شيء يُقدم للضيف (٣) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي ولهم إصلاءٌ بنار جهنم وإذاقة لهم من حرها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من جزاء المتقين، والسعداء، والأشقياء لهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي نزّه ربك عن النقص والسوء، وعمّا يصفه به الظالمون. لما نزلت هذه الآية الكريمة قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» (٤).

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ والجناس الناقص في قوله ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

٢ - الطباق بين ﴿الْمَيْمَنَةِ﴾ .. ﴿الْمَشْأَمَةِ﴾ وبين ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ .. ﴿الْآخِرِينَ﴾ وبين ﴿خَافِضَةٌ﴾ .. ﴿رَّافِعَةٌ﴾ وفي إسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي، لأن الخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده، يرفع أولياءه ويخفض أعداءه، ونسب إلى القيامة مجازًا كقولهم: نهاره صائم.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه، حذف منه وجه الشبه فهو مرسل مجمل.

٤ - التفخيم والتعظيم ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ كرره بطريق الاستفهام تفخيمًا.

٥ - التفنن بذكر أصحاب الميمنة ثم بذكر أصحاب اليمين، وكذلك بذكر أصحاب المشأمة وذكر أصحاب الشمال ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.

٦ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالاستثناء ليس من جنس اللغو والتأثيم، فهو مدح لهم بإفشاء السلام، وهذا كقول القائل «لا ذنب لي إلا محبتك».

---

(١) تفسير الخازن ٤/٢٢. (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٣٢.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٩٤. (٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم.

٧- التهكم والاستهزاء ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي هذا العذاب أول ضيافتهم يوم القيامة، سخرية وتهكم بهم، لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة.

٨- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك ملتفتاً عن خطابهم ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وذلك للتحقير من شأنهم، والأصل هذا نزلكم.

٩- الجملة الاعتراضية وفائدتها لفت الأنظار إلى أهمية القسم ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ جاءت الجملة الاعتراضية ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بين الصفة والموصوف للتهويل من شأن القسم.

١٠- توافق الفواصل في الحرف الأخير مما يزيد في رونق الكلام وجماله مثل ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ومثل ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ ويسمى هذا بالسجع المرصع، وهو من المحسنات البديعية.

لطيفة: المناسبة بين المقسم به وهو النجوم وبين المقسم عليه وهو القرآن ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أن النجوم جعلها الله ليهتدى بها الناس في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والضلالة، وتلك ظلمات حسية، وهذه ظلمات معنوية، فالقسم هنا جاء جامعاً بين الهدايتين: الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن، فهذا وجه المناسبة والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة»

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

* وقد تناولت السورة الكريمة «سورة الحديد» ثلاثة مواضيع رئيسية وهي:

أولاً: أن الكون كله لله جل وعلا، هو خالقه ومبدعه، والمتصرف فيه بما يشاء.

ثانياً: وجوب التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله، ورفع منار الإسلام.

ثالثاً: تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع حتى لا يغتر بها الإنسان.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جل وعلا الذي سبّح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر، وإنسان، وحيوان، وجماد، فالكل ناطق بعظمته شاهد بوحدانيته.

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى، وأسماءه العليا، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد، وهو الخالق للإنسان والمدبر للأكوان.

* ثم تلتها الآيات التي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله بما يحقق عزة الإسلام ويرفع شأنه، فلا بُدّ للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان، وأهل النفاق، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون يتخبطون في الظلمات، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم في ظلمات الجهل والغي والضلال.

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وصورتهما أدق تصوير، فالدنيا دار الفناء، فهي زائلة ذاهبة، كمثل الزرع الخصيب الذي ينبت بنزول الغيث، ثم يصفر ويذبل حتى يصبح هشيماً وحطاماً تذروه الرياح، بينما الآخرة دار الخلود والبقاء، التي لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن بعثة الرسل الكرام، والأمر بتقوى الله عز وجل، والاقتداء بهدي رسله وأنبيائه.

التسمية: سميت السورة «سورة الحديد» لذكر الحديد فيها، وهو قوة الإنسان في السلم والحرب، وعدته في البنيان والعمران، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة، وتشاد العمائر،

الأنوار هناك، قال أبو حيان: وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناطٌ لهم[١] ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ أي فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمة وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النار، قال ابن كثير: هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب[٢] ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، ونحضر الجمعة والجماعات، ونقاتل معكم في الغزوات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي قال لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا في الظاهر ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي انتظرتم بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي خدعتكم الأماني الفارغة بسعة رحمة الله ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي وخدعكم الشيطان الماكر بقوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم، قال قتادة: ما زالوا على خُدعةٍ من الشيطان حتى قذفهم الله في نار جهنم[٣] قال المفسرون: الغَرور (بفتح الغين) الشيطان لأنه يغر ويخدع الإنسان قال تعالى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ففي هذا اليوم العصيب لا يقبل منكم بدلٌ ولا عوضٌ يا معشر المنافقين، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وآياته وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول للكافر: أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تبارك وتعالى: قد سألتك ما هو أيسر من ذلك وأنت في ظهر أبيك آدم، أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك»[٤] ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي مقامكم ومنزلكم نار جهنم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي هي عونكم وسندكم وناصركم لا ناصر لكم غيرها، وهو تهكم بهم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم.

قال بعض العلماء: «السعيد من لا يغتر بالطمع ولا يركن إلى الخدع، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل»[٥]

□□□

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ .. إلى قوله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ من آية (١٦) إلى آية (٢٩) نهاية السورة.

---

(١) البحر المحيط ٨/٢٢١ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٠ .
(٣) تفسير الخازن ٤/٢٤ .
(٤) تفسير الألوسي ٢٧/١٧٨ والحديث في الصحاح .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/٢٤٧ .

المناسَبَة: لما ذكر تعالى اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها المخادع الكاذب، وختم السورة الكريمة ببيان فضيلة التقوى والعمل الصالح، وأرشد المؤمنين إلى مضاعفة الأجر بإيمانهم باتباعهم هدي الرسول ﷺ.

اللغَة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ ألم يحن، يقال: أنى يأني مثل رمى يرمي أي حان، قال الشاعر:

ألم يأنِ لي يا قلبُ أن أترك الجهلا ... وأن يُحدثَ الشيبُ المنيرُ لنا عقلا

﴿قَسَتْ﴾ غلظت ويبست ﴿الأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿يَهِيجُ﴾ هاج الزرع إذا جف ويبس بعد خضرته ونضارته ﴿حُطَامًا﴾ فتاتاً يتلاشى بالرياح ﴿قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا وأرسلنا ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مثنى كفل وهو النصيب.

سبب النزول: لما قدم المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنوات»[2].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

(١) تفسير القرطبي ١٧/٢٤٨ (٢) أخرجه مسلم

بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً، لا يخالجه شك ولا ارتياب ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصدِّيقية والشهادة في سبيل الله، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صدِّيقٌ وشهيد (١) ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم في الآخرة الثواب الجزيل، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وكذبوا بآياته أولئك هم المخلدون في دار الجحيم، قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن الصيغة تشعر بالاختصاص ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والصحبة تدل على الملازمة (٢). ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أي اعلموا يا معشر الناس أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعبٌ يلعب الناس فيها بأنفسهم كلعب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وزينة يتزين بها الجهلاء، كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أي ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال الشاعر:

أرى أهل القصور إذا أُميتوا ... بنوا فوق المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاةً وفخراً ... على الفقراء حتى في القبور (٣)

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي مباهاة بكثرة الأموال والأولاد. قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه في مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض (٤) ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل مطرٍ غزيرٍ أصاب أرضاً، فأعجب الزُّرَّاع نباته الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي ثم ييبس بعد خضرته ونضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيماً تذروه الرياح كذلك حال الدنيا، قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاع، لأنهم يغطون البذر، ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه بخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو في غاية الحسن (٥) ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي والجزاء في الآخرة إما عذاب شديد للفجار، وإما مغفرة من الله ورضوان للأبرار ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي وما الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل، قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٦ (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٥٣

(٣) كنت سمعت هذين البيتين من شيخنا الجليل فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة عالم الشهباء، أمدّ الله في عمره.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٣٣ (٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٥.

الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة(1).. ولما حقر الدنيا وصغر أمرها، وعظم الآخرة وفخم شأنها، حث على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية في دار الخلود والجزاء فقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي سابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم، قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوا﴾ كأنهم في ميدان سباق يجرون إلى غاية مستطيلين إليها، والمعنى: سابقوا إلى سبب مغفرة وهو الإيمان وعمل الطاعات(2) ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وسارعوا إلى جنةٍ واسعة فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة، قال السدي: إن الله تعالى شبَّه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها، فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك(3) وقال البيضاوي: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول(4) ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدقين بالله ورسله قال المفسرون: وفي الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة، لأن ما لم يخلق بعد لا يوصف بأنه أُعد وهُيئ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي ذو العطاء الواسع والإحسان الجزيل ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما يحدث في الأرض مصيبة من المصائب كالقحط، والزلازل، والعاهة في الزروع، والنقص في الثمار ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي من الأمراض، والأوصاب، والفقر، وذهاب الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها، قال في التسهيل: المعنى أن الأمور كلها مقدرة في الأزل، مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، وفي الحديث: «إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»(5) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيِّنٌ على الله عز وجل وإن كان عسيراً على العباد.. ثم بيَّن تعالى لنا الحكمة في إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي أثبت وكتب ذلك كي لا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي ولكي لا تبطروا بما أعطاكم الله من زهرة الدنيا ونعيمها، قال المفسرون: والمراد بالحزن: الحزنُ الذي يوجب القنوط، وبالفرح: الفرح الذي يورث الأشر والبطر، ولهذا قال ابن عباس: ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً(6) ومعنى الآية: لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ولهذا قال بعده

---

(1) التفسير الكبير ٢٣١/٢٩
(2) البحر المحيط ٢٢٥/٨
(3) التفسير الكبير ٢٣٤/٢٩
(4) تفسير البيضاوي ٤٩٤/٣
(5) التسهيل لعلوم التنزيل ٩٩/٤
(6) تفسير القرطبي ٢٥٨/١٧

السور، ويقارعهم بالحجة والبرهان، فلما قامت الحجة على من خالف أمر الله، شرع الله الهجرة وأمر المؤمنين بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب، ولهذا قال عليه السلام «بُعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(١) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز ينصر من شاء من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضهم ببعض(٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ لما ذكر بعثة الرسل ذكر هنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام، وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبيَّن أنه جعل في نسلهما النبوة والكتب السماوية أي وبالله لقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا النبوة في نسلهما، كما أنزلنا الكتب الأربعة وهي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن على ذريتهما، وإنما خصَّ نوحًا وإبراهيم بالذكر تشريفًا لهما وتمجيدًا لمآثرهما الحميدة ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي فمن ذرية نوح وإبراهيم أناس مهتدون، وكثيرٌ منهم عصاةٌ خارجون عن الطاعة وعن الطريق المستقيم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم أتبعنا بعدهم برسلنا الكرام، أرسلناهم رسولاً بعد رسول كموسى، وإلياس، وداود، وسليمان، ويونس ... وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي وجعلناه بعد أولئك الرسل؛ لأنه كان آخر الأنبياء من بني إسرائيل ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ أي وأنزلنا عليه الإنجيل الذي فيه البشارة بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين، قال في التسهيل: هذا ثناء من الله عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف تعالى أصحاب سيدنا محمد ﷺ بأنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٣) ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ورهبانية ابتدعها القسس والرهبان وأحدثوها من تلقاء أنفسهم، ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قال أبو حيان: والرهبانية رفض النساء وشهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع ومعنى ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها من عند أنفسهم(٤) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله، والاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بها حق القيام، ولا حافظوا عليها كما ينبغي، قال ابن كثير: وهذا ذمٌّ لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل(٥)، وفي الحديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»(٦) ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين آمنوا

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٠٠.
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/٢٢٨.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٥٦.
(٦) أخرجه الإمام أحمد.

على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مضاعفًا ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي وكثير من النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله كقوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ أي يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ودوموا واثبتوا على الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي يعطكم ضعفين من رحمته ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي ويجعل لكم في الآخرة نورًا تمشون به على الصراط ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصي ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي إنما بالغنا في هذا البيان ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة فيهم، فـ(لا) في قوله ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة والمعنى: ليعلم. قال المفسرون: إن أهل الكتاب كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين، فردَّ الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي وأن أمر النبوة والهداية والإيمان بيد الرحمن يعطيه من يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وبين ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

٢- المقابلة بين ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وبين ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

٣- رد العجز على الصدر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤- حذف الإيجاز ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ حذف منه جملة (ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل) وذلك لدلالة الكلام عليه، ويسمى هذا الحذف بالإيجاز.

٥- الاستعارة اللطيفة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، استعار لفظ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ للكفر والضلالة ولفظ ﴿النُّورِ﴾ للإيمان والهداية وقد تقدم.

٦- الاستعارة التمثيلية ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مثَّل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله مخلصًا في عمله بمن يقرض ربه قرضًا واجب الوفاء بطريق الاستعارة التمثيلية.

٧- الأسلوب التهكمي ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم وهو تهكم بهم.

٨- المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وقوله: ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

٩- التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ...﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

١٠- الجناس الناقص ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف.

١١- السجع المرصع كأنه العقد المنظوم ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وقوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو كثير في القرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .. إلى .. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠).

اللغَة: ﴿تَحَاوُرَكُمَا﴾ المحاورة: المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع، ومنه الدعاء المأثور "نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر" قال عنترة في فرسه:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

﴿يُظَاهِرُونَ﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال: ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي ﴿مُنكَرًا﴾ المنكر: كل ما قبّحه الشرع وحرّمه ونفّر منه، وهو خلاف المعروف ﴿يُحَادُّونَ﴾ المحادة: المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة، قال الزجاج: المحادة أن تكون في حدٍّ يخالف حد صاحبك، وأصلها الممانعة ﴿كُبِتُوا﴾ الكبت: القهر والإذلال والخزي يقال: كبته أي قهره وأخزاه ﴿نَجْوَى﴾ النجوى: الكلام بين اثنين فأكثر سرًّا، تناجى القوم: تحدثوا فيما بينهم سرًّا ﴿حَسْبُهُمْ﴾ كافيهم.

سَبَبُ النّزول

أ - روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت، أراد زوجها مواقعتها يومًا فأبت، فغضب وظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إن أوسًا ظاهر مني بعد أن كبرت سني، ورقّ عظمي، وإنّ لي منه صبيةً صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فما ترى؟ فقال لها: ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليه، فقالت: يا رسول الله والله ما ذكر طلاقًا وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله: ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليه، وهي تكرر قولها، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..﴾ الآيات.

ب - وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي وسع سمعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلة - خولة بنت ثعلبة - فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك!! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا

---

(١) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي.

وراءه(1) ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أُذلوا وأُهينوا كما أُذل من قبلهم من المتحزبين والكفار الذين حادُّوا الله ورسوله وأُذلوا وأُهينوا ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات، فيها الحلال والحرام، والفرائض والأحكام ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يهينهم ويُذهب عزَّهم، قال الصاوي: وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصود بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيُذلون ويُخذلون ويُفرَّق جمعهم فلا تخشوا بأسهم(2) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيدٍ واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو جلَّ وعلا مطَّلع وناظر لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء.. ثم بيَّن تعالى سعة علمه، وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه تعالى يرى الخلائق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مطلع على كل ذرة في الكون، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ما يقع من حديثٍ سرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركًا لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ أي ولا يقع مناجاة وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلا والله معهم يعلم ما يجري بينهم من حديث ونجوى، والغرض: أنه تعالى حاضر مع عباده مطَّلع على أحوالهم وأعمالهم، وما تهجس به نفوسهم، لا يخفى عليه شيء من أمور العباد، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيء ويجازيهم عليه يوم القيامة، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء، قال المفسرون: ابتدأ الله هذه الآية بالعلم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكليات، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات، لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، قال ابن كثير: وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، فسمعه مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء(3).. ثم أخبر تعالى عن

---

(1) تفسير أبي السعود ٥/١٤٤.
(2) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٨٨.
(3) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٦.

أحوال اليهود والمنافقين فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ قال القرطبي: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت[1] ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهوا عنها، قال أبو السعود: والهمزة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجيب من حالهم، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للدلالة على تكرر عودهم وتجدده، واستحضار صورته العجيبة[2] ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين. قال أبو حيان: بدأ بالإثم لعمومه ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد، ثم ترقّى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي هذا طعنٌ على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك[3] ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي وإذا حضروا عندك يا محمد حيّوك بتحية فاسدة لم يشرعها الله ولم يأذن فيها، وهي قولهم: «السامُ عليكم» أي الموت عليكم، قال المفسرون: كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السامُ عليكم بدلاً من السلام عليكم، والسامُ: الموتُ وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وعليكم» لا يزيد عليها، فسمعتهم عائشة يومًا فقالت: بل عليكم السامُ واللعنة! أقلقها التصرف فقال لها رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يكره الفُحش والتفحش» فقالت: يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟ فقال لها: «أما سمعتِ ما قلتُ لهم؟ إني قلت لهم: وعليكم، فيستجيب الله لي فيهم، ولا يستجيب لهم فيّ» ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي ويقولون فيما بينهم: هلاّ يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبيًا؟ فلو كان نبيًا حقًا لعذبنا الله على هذا الكلام، قال تعالى ردًا عليهم: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يكفيهم عذابًا أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئست جهنم مرجعًا ومستقرًا لهم. قال ابن العربي: كانوا يقولون: لو كان محمد نبيًا لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليمٌ لا يعاجل بالعقوبة لمن عصاه فكيف من سبّ نبيه؟! وقد ثبت في الصحيح «لا أحد أصبر على الأذى من الله، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم» فأنزل الله تعالى هذا كشفًا لسرائرهم، وفضحًا لبواطنهم، وتكريمًا لرسوله ﷺ[4]، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كرامته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمةً للعالمين. ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سرًا فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول، أو بما هو عدوان على الغير، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٌ وطاعة وإحسان، قال القرطبي: نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩١ — (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢٥
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٦ — (٤) نقلاً عن تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٣

نهى الله عنه[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وخافوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، الذي سيجمعكم للحساب، ويجازي كلاً بعمله ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان، ليُدخل بها الحزن على المؤمنين، قال ابن كثير: أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله[2] ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍّ للمؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد وليثق المؤمنون، ولا يبالوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم، وفي الحديث «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[3].

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ... إلى ... أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة.

المناسبة: لما نهى تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض، ثم حذر من موالاة أعداء الله، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين.

اللغة: ﴿تَفَسَّحُوا﴾ توسّعوا يقال: فسح له في المجلس أي وسّع له، ومنه مكان فسيح أي واسع ﴿انشُزُوا﴾ انهضوا وارتفعوا يقال: نشز ينشُز إذا تنحى من مجلسه وارتفع منه، وأصله من النَّشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جُنَّةً﴾ (بضم الجيم) وقاية ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ الأذلاء المقهورين في الذل والهوان.

سبب النزول

أ- عن مقاتل قال: كان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم «ثابت بن قيس» وقد سُبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بعدد الواقفين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل مع هؤلاء، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!! فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ...﴾[4] الآية.

ب- عن ابن عباس قال: إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩٤. (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٣.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) انظر القرطبي ١٧/ ٢٩٧ والتفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٦٨.

عن سبيل الله﴾ أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإِسلام، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء والمكر والخداع بالمسلمين ﴿فلهم عذاب مهين﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإِهانة ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعاً للحساب والجزاء ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذباً أنهم مسلمون. قال ابن عباس: هو قولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾(١) ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ أي يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدفع القتل عنهم، قال أبو حيان: والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علام الغيوب، ويُجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم، والمقصود أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا(٢) ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم وتملّك نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة، لأنهم فوّتوا على أنفسهم النعيم الدائم وعرّضوها للعذاب المقيم ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله﴾ أي يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين ﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي هو تعالى قوي على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه، لا يُقهر ولا يُغلب، قال مقاتل: لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا: نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن سلول: أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها؟! والله إنهم لأكثر عدداً، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك!! فنزلت ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾(٣) ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يصدّقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه، كما لا يجتمع النور والظلام، قال المفسرون: غرضُ الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة الإِخبار مبالغةً في النهي والتحذير قال الإِمام الفخر: المعنى أنه لا يجتمع الإِيمان مع حب أعداء الله، وذلك لأن من أحبَّ أحداً امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٥. (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٨.
(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ وتفسير الألوسي ٢٨/ ٣٤

بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية، والمحور الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن غزوة بني النضير، وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة "سورة بني النضير" وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود، وبالاختصار هي سورة: الغزوات والجهاد، والفيء والغنائم.

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده، فالكون كله بما فيه من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته، ومظاهر عزته، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يخطر في حسبانهم ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ...﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة، فبينت شروطه وأحكامه، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء، لئلا يستأثر به الأغنياء، ولكيلا يكون تداوله بين طبقات المجتمع، مما فيه من الحيف، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ...﴾ الآية.

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر، فنوهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﷺ، والأنصار آثروا إخوانهم المهاجرين بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ...﴾ الآيات.

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار، ذكرت السورة المنافقين الأشرار، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، وضربت لهم أسوأ الأمثال، فمثلهم كالشيطان الذي يغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ...﴾ الآيات.

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب،

ولا ينفع فيه جاه ولا مال، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار، وبين مصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ..﴾ الآيات.

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ..﴾ الآيات وهكذا يتناسق البدء مع الختام، أبدع تناسق والتئام!

* * *

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. إلى.. رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠).

اللغة: ﴿الْحَشْرِ﴾ الجمع، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ أي جمع له جنوده ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿الْجَلَاءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شَاقُّوا﴾ عادوا وخالفوا ﴿لِّينَةٍ﴾ (بكسر اللام) النخلة القريبة من الأرض الكريمة الطيبة، سميت لينة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش:

قد شجاني الحمام حين تغنّى ... بفراق الأحباب من فوق لينة[1]

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ الوجيف: سرعة السير يقال: أوجف البعير إذا حثّه وحمله على السير السريع ﴿دُولَةً﴾ (بضم الدال) الشيء الذي يتداول من الأموال، وينتقل من يد إلى يد ﴿خَصَاصَةٌ﴾ فقر واحتياج ﴿غِلًّا﴾ حقداً وضغينة.

سبب النزول: لما نقض اليهود «بنو النضير» العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانةً لهم وإرعاباً لقلوبهم، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك نبي؟ وأنك تنهى عن الفساد؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها؟! فأنزل الله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ..﴾ الآية[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٥. (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٣.

وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نزّه الله تعالى ومجّده، وقدّسه جميع ما في السموات والأرض من ملَك، وإنسان، وجماد، وشجر كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى أنَّ جميع ما في السموات والأرض يسبح له ويمجده ويقدّسه ويوحّده[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه، الحكيمُ في صنعه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ بيانٌ لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك. قال البيضاوي: لما قدم ﷺ المدينة صالح «بني النضير» على ألاّ يكونوا معه ولا عليه، فلما ظهر يومَ بدر قالوا: إنه النبي المنعوتُ في التوراة بالنصر؛ لا تُردُّ له راية، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا، وخرج «كعب بن الأشرف» في أربعين راكبًا إلى مكة وحالفوا «أبا سفيان»، فأمر رسول الله ﷺ «محمد بن مسلمة» أخا كعبٍ من الرضاعة فقتله غيلةً، ثم صبّحهم بالكتائب وحاصرهم، حتى صالحوا على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر، فذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[2] قال الألوسي: ومعنى ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حُشروا وأُخرجوا، ونبّه بلفظ ﴿أَوَّلِ﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءٌ قبله[3] ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان؛ لعزتهم ومنعتهم، وشدة بأسهم، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار، ونخيل وثمار ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه، قال البيضاوي: والأصل أن يقال: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله، وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة[4] ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٩.
(2) تفسير البيضاوي ٣/٤٦٩.
(3) تفسير الألوسي ٢٨/٣٩.
(4) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٧٠.

حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر ببالهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد، مما أضعف قوتهم، وسلبهم الأمن والطمأنينة، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث «نُصرت بالرعب من مسيرة شهر»[1] ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل، وأيدي المؤمنين من الخارج، قال المفسرون: كان بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العُمُد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران، لئلا يسكنها المؤمنون حسدًا منهم وبغضًا، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادوه وعصوا أمره، وارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم، ونقض للعهود في حق رسوله ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله، ويعاديه فالله ينتقم منه لأن عذابه شديد، وعقابه أليم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ .. ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل، وحرق بعض الأشجار المثمرة، إنما كان بأمر الله وإرادته فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من لينة نخيل، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي وليغيظ اليهود ويذلهم بقطع أشجارهم ونخيلهم، قال الرازي: المعنى إنما أذن تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار، وتتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم[2] قال المفسرون: لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم إهانة لهم وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا: ما هذا الإفساد يا محمد؟ إنك كنت تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟! فأنزل الله هذه الآية الكريمة[3] ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي وما أعاده الله ورده غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي لم تسيروا إليه خيلكم ولا إبلكم، ولا تعبتم في تحصيله، قال القرطبي: يقال: وجف البعير وجيفًا إذا أسرع السير، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع، والركاب: ما يُركب من الإبل، والمعنى: لم تقطعوا إليها شُقة، ولا تجشمتم فيها حربًا ولا مشقة، وإنما كانت من المدينة على ميلين، فافتتحها

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٨٣.

(٣) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧٦ والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤ باللفظ حسب الترتيب السابق.

رسول الله ﷺ صلحاً ، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم ، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء[1] ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه ، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو تعالى قادر على كل شيء ، لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزه شيء . ـ ثم بيَّن تعالى حكم الفيء عامة ـ وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب ـ فقال : ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي ما جعله الله غنيمة لرسوله بدون قتال من أموال الكفار ، قال ابن عباس : هي قريظة ، والنضير ، وفدك ، وخيبر[2] ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث شاء ، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب ، ولليتامى الذين مات آباؤهم ، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره ، قال في التسهيل : لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب ، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين ، وأما هذه فهي في حكم الفيء وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء ، وأن حكمهما مختلف . فالغنيمة : ما أُخذت بالقتال ، والفيء : ما أخذ صلحاً ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾[3] ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أي لئلا يتمتع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء ، مع شدة حاجة الفقراء للمال ، قال القرطبي : أي فعلنا ذلك كي لا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه ، وهو المرباع ، ثم يصطفي منها أيضاً ما يشاء[4] ، قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذٍ فقراء ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فإنهم كانوا أغنياء ، فقال بعض الأنصار : لنا سهمنا من هذا الفيء ، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح ، وينهى عن كل شرٍّ وفساد ، قال المفسرون : والآية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب ، أو مندوب ، أو مستحب ، أو محرم ، فيدخل فيها الفيء وغيره[5] ، عن ابن مسعود أنه قال : «لعن الله الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها «أم يعقوب» ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فأتته فقالت :

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/١٠ .
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٠٨ .
(٣) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/٢٨٦ .
(٤) تفسير الخازن ٤/٦٠ .
(٥) تفسير القرطبي ١٨/١٦ .

ما حديثٌ بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا؟! فذكرته له، فقال ابن مسعود: وما لي لا ألعنُ من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته! فقال: إن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأتِ قول الله عز وجل ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١)؟ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ هذا متعلقٌ بما سبق من حكم الفيء، كأنه يقول: الفيء والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم، فتركوا الديار والأموال ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة هم الصادقون في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله ولرسوله، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع (٢). ثم مدح تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً ومسكنًا وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار. قال القرطبي: أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوء: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد: آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم (٣) ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم (٤) ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازة وغيظًا وحسدًا مما أعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم. قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثةً منهم، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يفضِّلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن حماه الله وسلّمه من البخل فقد أفلح ونجح، والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الحرص والطمع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها. قال ابن عمر: ليس الشح أن يمنع الرجل ماله، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له. وفي الحديث «اتقوا الشُّحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء: الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل، والمتنمصة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك، والنامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحسن، وكل ذلك منهيٌّ عنه لأن فيه تغييرًا لخلق الله.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/١٩. (٣) تفسير القرطبي ١٨/٢٠.

(٤) تفسير الخازن ٤/١٢٤. (٥) حاشية الصاوي ٤/١٩٠.

دعا لهم بأن يحشروا في جوارهما(١) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والإفضال، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي يدعون لهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، قال أبو السعود: وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم، لأن أخوة الدين عندهم أعز وأشرف من النسب(٢) ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا حقداً وحسداً لأحد من المؤمنين ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا. قال ابن كثير: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين(٣). وقال شيخ زاده: بيّن تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات، وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، أُمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة(٤). اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ...﴾ إلى قوله ﴿... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٤) نهاية السورة.

المناسبة: لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، وأنهم لا يستوون في الأحوال ولا المآل، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

اللغة: ﴿شَتَّى﴾ متفرقة مشتتة جمع شتيت أي متفرق ﴿خَاشِعًا﴾ ذليلاً خاضعاً ﴿مُتَصَدِّعًا﴾ متشققاً متصدع البنيان أي متشقق ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه عن كل نقص وعيب ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ المصدّق لرسله بالمعجزات ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ﴿الْجَبَّارُ﴾ العظيم القاهر صاحب العظمة والجبروت ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البالغ في الكبرياء والعظمة ﴿الْبَارِئُ﴾ المبدع المخترع ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور.

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٥٢.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/٤٧٥.
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٧٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ۝ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التفسير ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ تعجيبٌ من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكم منها قال في التسهيل: نزلت في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم، فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم[1]، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحد إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ أي وإن قاتلكم أحد لننصرنكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به... ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي لئن أُخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ أي ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي: وفي هذا دليل على صحة نبوّة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب، لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنه القرآن[2] ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم -على سبيل الفرض والتقدير- فسوف ينهزمون، ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين قال

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١١٠. (٢) تفسير القرطبي ١٨/٣٤.

الإمام الفخر: أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أُخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم، وقد كان الأمر كذلك، فإن بني النضير لما أُخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقوتلوا كذلك فما نصروهم. وأما قوله تعالى: ﴿ولئن نصروهم﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا[1] ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشدُّ خوفاً وخشيةً في قلوب المنافقين من الله، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشدَّ من رهبتهم من الله ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حقَّ خشيته قال القرطبي: أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته[2]. ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين في قلاعهم وحصونهم فقال: ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة﴾ أي لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق ﴿أو من وراء جدر﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها لفرط جبنهم وهلعهم ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ذوي ألفةٍ في الصورة، ذوي الكلمة والاتحاد، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن آراءهم مختلفة، وقلوبهم متفرقة قال قتادة: أهل الباطل مختلفةٌ آراؤهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفةٌ شهاداتهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[3] ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي ذلك التفرق والتشتت بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله قال في البحر: وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة[4] ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ أي صفة بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل كصفة كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر [illegible]، أي مثل اليهود كمثل أهل بدر أو المهلكين من الأمم الماضية من زمانٍ قريب[5] ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة جرمهم في الدنيا ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم عذاب شديد موجع في الآخرة ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فلما كفر قال إني بريء منك﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال: ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل: هذا مثلٌ، مثّل الله للمنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان الذي يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه، والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس[6]، وقول الشيطان ﴿إني أخاف الله﴾ كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه[7] ﴿فكان

---

(1) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٦.
(2) تفسير القرطبي ١٨/٣٥.
(3) تفسير الخازن ٤/٦٦.
(4) البحر ٨/٢٤٩.
(5) تفسير البيضاوي ٣/٤٢٨.
(6) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١١٠.
(7) قال ابن كثير: أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال: إني أخاف الله رب العالمين. مختصر ٣/٤٧٦.

عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي فكان عاقبة المنافقين واليهود - مثل عاقبة الشيطان والإنسان، حيث صارا إلى النار المؤبدة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وذلك عقاب كل ظالم فاجر، منتهك لحرمات الله والدين.. ولمّا ذكر صفات كلٍّ من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال، وعظ المؤمنين بموعظة حسنة، تحذيرًا من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي ولتنظر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة قال ابن كثير: انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم[1]، وسمّي يوم القيامة غدًا لقرب مجيئه ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ والتنكير فيه للتفخيم والتهويل[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرّره للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان: وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظّ أنفسهم[3]، حتى لم يقدموا لها خيرًا ينفعها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء - أهل النار وأهل الجنة - في الفضل والرتبة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.. ثم ذكر تعالى روعة القرآن، وتأثيره على الصمِّ الراسيات من الجبال فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلاً وتمييزًا كما خلقنا للإنسان، وأنزلنا عليه هذا القرآن، بوعده ووعيده، لخشع وخضع وتشقق خوفًا من الله تعالى، ومهابةً له، وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن، وقوة تأثيره، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ - على شدته وصلابته - لرأيته ذليلاً متصدعًا من خشية الله، والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن، بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن، ودناءة حال الإنسان[4] وقال في البحر: والغرضُ توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تأثره بهذا الذي لو أُنزل على الجبل لتخشَّع وتصدَّع، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر[5] ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٧٧/٣ .
(٢) تفسير أبي السعود ٤٥٤/٥ .
(٣) تفسير البحر المحيط ٢٥١/٨ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٤٧٩/٣ .
(٥) تفسير البحر المحيط ٢٥١/٨

وتلك الأمثال نفصّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون. ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة، أتبعه بشرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو جلَّ وعلا الإِله المعبود بحقٍّ لا إله ولا ربَّ سواه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي عالم السرِّ والعلن، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه، وما شاهدوه وعلموه ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد أي لا معبود ولا ربَّ سواه ﴿الْمَلِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي، والإِيجاد والإِعدام ﴿الْقُدُّوسُ﴾ أي المنزَّه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل: القُدُّوسُ مشتقٌ من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين، وعن كل نقصٍ وعيب، والصيغة للمبالغة كالسُّبُّوح(1) وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها: سُبُّوحٌ قُدُّوس، ربُّ الملائكة والروح ﴿السَّلَامُ﴾ أي الذي سلم الخلق من عقابه وأمنوا من جوره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال البيضاوي: أي ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهو مصدر وُصف به للمبالغة(2) ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ أي الرقيب الحفيظ لكل شيء، وقال ابن عباس: الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء(3) ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي القهار العالي الجناب الذي يذل له من دونه قال ابن عباس: هو العظيم الذي إذا أراد أمراً فعله، وجبروت الله عظمته(4) ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي الذي له الكبرياء حقاً ولا يليق إلا به وفي الحديث القدسي «العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي»(5) قال الإمام الفخر: واعلم أن التكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكبر، وذلك نقصٌ في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس معه إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس، وأما الحقُّ سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جلَّ وعلا(6)، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله وتقدس في جلاله وعظمته عمّا يلحقونه به من الشركاء والأنداد ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ أي هو جلَّ وعلا الإِله الخالق لجميع الأشياء، الموجد لها من العدم، المنشئ لها بطريق الاختراع ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ قال الخازن: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريد(7) ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٠١
(٢) تفسير البيضاوي ٤/١٢
(٣) تفسير القرطبي ١٨/٤٦
(٤) تفسير الخازن ٤/٧٣
(٥) تفسير القرطبي ١٨/٤٧
(٦) التفسير الكبير ٢٩/٢٩٤
(٧) تفسير الخازن ٤/٧٣

على محاسن المعاني ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة بالتسبيح كما ابتدأها به إشارة إلى أنه المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيهه عما تصوّره العقول(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبين ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

٣ - وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ شبه الإيمان المتمكن في نفوسهم بمنزل ومستقر للإنسان نزل فيه وتمكن منه حتى صار مستقرًا له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ...﴾ الآية.

٦ - الطباق بين (جميعًا) و(شتى) في قوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ...﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ كنّى عن القيامة بالغد لقربها.

٩ - الطباق بين ﴿الْغَيْبِ ... وَالشَّهَادَةِ﴾ وبين ﴿الْجَنَّةِ ... النَّارِ﴾ إلخ.

لطيفة: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مجهود - أي اشتد بي الجوع والفاقة - فأرسل إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: من يضيف هذه الليلة يرحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار يقال له «أبو طلحة» فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله - أي إلى منزله - فقال لها: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئًا وأكرميه! فقالت: ما عندي إلا قوت الصبيان، فقال: علِّليهم بشيء ونوّميهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه، ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم، ثم قال: لقد عجب الله من صنيعكما الليلة بضيفكما وأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر»

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٩٩.

محذوف دلّ عليه مقام الكلام كأنه قال: لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي[1] ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي تُسرّون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسرائركم وعلانيتكم، لا يخفى عليّ شيءٌ من أحوالكم، والغرض منه التوبيخ والعتاب ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ومن يصادق أعداء الله، ويفشي أسرار الرسول، فقد حاد عن طريق الحق والصواب، ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة هؤلاء الكفار، وأنها عداوة مستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم، يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم والسب ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري: وإنما أورده بلفظ الماضي ﴿وَوَدُّوا﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿يَكُونُوا﴾ لأنهم أرادوا ارتدادهم قبل كل شيء[2] كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئاً، فلن يجلبوا لكم نفعاً، ولن يدفعوا عنكم ضراً قال الصاوي: هذا تخطئةٌ لحاطب في رأيه كأنه قال: لا تحملكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم[3] ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين، فيدخل المؤمنين جنات النعيم، ويدخل المجرمين دركات الجحيم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قدوة حسنةٌ في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي حين قالوا للكفار: إنا متبرئون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ أي ظهرت بيننا وبينكم العداوة والبغضاء إلى الأبد ما دمتم على هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون: أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه في عداوة المشركين، والتبرؤ منهم، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به فيه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ هذا من تتمة كلام إبراهيم لأبيه أي ما أغني عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به، ولا أملك لك شيئاً غير الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي

---

(1) تفسير الألوسي ٢٨/٦٧. (2) الكشاف ٤/٣٥٥.

(3) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٩٤.

وإليك رجعنا رجعنا وتبنا ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة فقد استثنى المفسرون : إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ واستغفر له بالقول فعلاً كما في سورة الشعراء ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ وكل هذا كان رجاء إسلامه ، ثم رجع عن ذلك لما تيقن كفره كما في سورة التوبة ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه[1] وقال مجاهد : أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أنت يا الله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة ، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع والجؤار ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من المؤمنين قدوةٌ حسنة في التبرؤ من الكفار قال أبو السعود : والتكرير للمبالغة في الحثِّ على الاقتداء به عليه السلام ولذلك صُدِّر بالقسم[2] ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالى ، ويخاف عقابه في الآخرة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومن يُعرض عن الإيمان وطاعة الرحمن ، فإن الله مستغنٍ عن أمثاله وعن الخلق أجمعين ، وهو المحمود في ذاته وصفاته ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي لعل الله جلّ وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم من أقربائكم المشركين محبةً ومودة ، بعد البغضاء ، وألفة بعد الشحناء قال في التسهيل : لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم ، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودة ، وعلم الله صدقهم ، آنسهم بهذه الآية ، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة أي محبة ، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذٍ سائر قريش[3] . وجمع الله الشمل بعد التفرق وقال الرازي : و(عسى) وعدٌ من الله تعالى وقد حقق تعالى ما وعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسلمين ، ومخالطتهم لهم حين فتح مكة[4] ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم ، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان ، ولفظة ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ في موضع جر بدلاً من أي لا ينهاكم جلّ وعلا عن البر والإحسان لهؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي تعدلوا معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

---

(1) القول الأول مروي عن ابن عباس ، والثاني قول مجاهد والأرجح الأول لأنه دعاء لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم وهو اختيار ابن عطية.

(2) تفسير أبي السعود ٥/١٥٧ .

(3) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١١٤ .

(4) التفسير الكبير ٢٩/٣٠٣ .

المقسطين﴾ أي يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخّص الله في برهم والإِحسان إليهم[1]. وروي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: قدمت أمي وهي مشركة - في عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ - يعني في صلح الحديبية - فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمتْ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك[2] فأنزل الله ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين...﴾ الآية ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة، وقاتلوكم لأجل دينكم، وعاونوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم، أن تتولوهم فتتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ أي اختبروهنَّ لتعلموا صدق إيمانهن قال المفسرون: كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يردّ إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة - يعني المشركين - ردّ إليهم، فجاءت «أم كلثوم» بنت عقبة بن أبي مُعيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ فخرج في أثرها أخواها «عُمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: ردّها علينا بالشرط، فقال ﷺ: كان الشرط في الرجال لا في النساء، فأنزل الله الآية، قال ابن عباس: كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضاً لزوجها، ولا طمعاً في الدنيا، وأنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله، ورغبةً في دين الإِسلام[3] ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ أي والله أعلم بصدقهن في دعوى الإِيمان؛ لأنه تعالى المطلع على قلوبهن، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ أي فإن تحققتم إيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهنَّ إلى أزواجهن الكفار ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشرك، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي: والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك[4] ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر: أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت، فلا يجتمع عليه خسران الزوجة والمالية[5] ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهن قال الخازن: أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإِسلام وإن كان لهن أزواج كفار

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/٣٠٤. (٢) أخرجه الشيخان وأحمد.
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/٢٥٦. (٤) تفسير الألوسي ٢٨/٧٦.
(٥) البحر المحيط ٨/٢٥٧.

منه فتقول له: هذا ولدي منك قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولدًا ونسبته له ليبقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحًا[1] قال ابن عباس: لا تُلحق بزوجها ولدًا ليس منه، وقال الفراء: كانت المرأة تلتقطُ المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[2] ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط، واطلب لهنَّ من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة قال أبو حيان: كانت ابيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، بعدما فرغ من بيعة الرجال، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه، يبايعهنَّ بأمره ويبلغهنَّ عنه، وما مست يده عليه الصلاة والسلام يد امرأة أجنبية قط، وقالت «أسماء بنت السكن»: كنتُ في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله ابسط يدك نبايعك، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «إني لا أصافح النساء، لكنْ آخذ عليهنَّ ما أخذ اللهُ عليهنَّ» وكانت «هند بنت عتبة» -وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد- متنكرة في النساء، فلما قرأ عليهن الآية ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت وهي متنكرة: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني لأصيب الهنة -أي القليل وبعض الشيء- من ماله، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنتُ عتبة؟» قالت: نعم فاعفُ عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك. فلما قرأ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: أو تزني الحرة؟! فلما قرأ ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا فأنتم وهم أعلم -وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر- فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قالت هند: والله إن البهتان لأمرٌ قبيح، ولا يأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء[3] وأخرج الإمام أحمد عن «أميمة بنت رقيقة» -أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء- قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية وقال: «فيما استطعتنَّ وأطقتنَّ» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة»[4] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تصادقوا

---

(١) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٠٠ وتفسير أبي السعود ٥/ ١٥٨ وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨.
(٢) روح المعاني للآلوسي ٢٨/ ٨٠.
(٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٨ وانظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٣٠٧.
(٤) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية، التي تُعنى بالأحكام التشريعية، وهذه السورة تتحدث عن موضوع «القتال» وجهاد أعداء الله، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف.

* ابتدأت السورة الكريمة -بعد تسبيح الله وتمجيده- بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾.

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته، لأنه يقاتل من أجل غرضٍ نبيل، وهو رفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ...﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه، وأنبيائه، وأوليائه، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾ الآيات.

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ...﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام.

□□□

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... إلى ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٩).

اللغة: ﴿سَبَّحَ﴾ التسبيح: تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مَقْتًا﴾ بغضاً قال الزمخشري: المقت: أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه[1] ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء: رصصتُ البناء إذا لاءمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة[2] ﴿زَاغُوا﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات.

سَبَبُ النّزول: روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا!! فلما فرض الله الجهاد كرهه بعضهم فنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

التفسير: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي نزَّه الله وقدَّسه ومجَّده جميع ما في السموات والأرض من ملك، وإنسان، ونبات، وجماد ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ قال الإمام الفخر: أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض[4] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لِمَ تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه؟ ولأي شيءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير: هذا إنكارٌ على من يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، وفي الصحيحين «آية المنافق ثلاث: إذا وعد

---

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٤٠٢ (٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٩ (٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٠.

أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان»[1] ثم أكد الإنكار عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ أي عظُم فعلكم هذا بغضًا عند ربكم ﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أن تقولوا شيئًا ثم لا تفعلونه، وأن تعدوا بشيء ثم لا تفون به. قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين -قبل أن يُفرض الجهاد- يقولون: لوددنا أن الله عز وجلَّ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[2] وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾؟ ثم أخبر تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أي يحب المجاهدين الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفًّا، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي كأنهم في تراصّهم وثبوتهم في المعركة بناءٌ قد رُصَّ بعضه ببعض، وأُلصق وأُحكم حتى صار شيئًا واحدًا. قال القرطبي: ومعنى الآية أنه تعالى يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم[3]. ولما ذكر تعالى أمر الجهاد، بيَّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وأوذيا بسبب ذلك فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبد الله وكليمه موسى بن عمران، حين قال لقومه بني إسرائيل: لمَ تقصدون ما يؤذيني[4] ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي والحال أنكم تعلمون علمًا قطعيًّا مما شاهدتموه من المعجزات الباهرة أني رسول الله إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي فلما مالوا عن الحق، أمال الله قلوبهم عن الهدى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي والله لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الله. قال الرازي: وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[5]. ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة أيضًا حين قال عيسى لبني إسرائيل: إني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التوراة. قال القرطبي:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٩٤.
(٢) المختصر ٣/٤٩٢، وهذا القول هو اختيار الطبري.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/٨٢.
(٤) قال القرطبي: وأذيته عليه السلام حين رموه بالأدرة، وهو انتفاخ الخصية - ومن الأذى: اتهموا موسى بامرأة ادعت عليه الفجور، ومن الأذى قولهم ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وقولهم ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾.
(٥) التفسير الكبير ٢٩/٣١٣.

ولم يقل: «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه[1] فإنه لم يكن له فيهم أب ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي حال كوني مصدِّقاً ومعترفاً بأحكام التوراة، وكتب الله وأنبيائه جميعاً، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا عني ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي وجئت لأبشركم بمقدم رسولٍ يأتي بعدي يسمى «أحمد» قال الألوسي: وهذا الاسم الكريم علمٌ لنبينا محمد ﷺ كما قال حسان:

صلى الإلهُ ومن يحفُّ بعرشه والطيبون على المبارَك أحمدِ[2]

وفي الحديث «لي خمسة أسماء: أنا محمدٌ، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناسُ على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب»[3] ومعنى العاقب: الذي لا نبيَّ بعده، وروي أن الصحابة قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك! فقال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام»[4] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة[5] ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قالوا عن عيسى: هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح، والإشارة بقولهم «سحر» إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام، قال المفسرون: بشَّر كلُّ نبيٍ قومه بنبيِّنا محمد ﷺ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبيٍّ قبل نبينا ﷺ، فبيَّن تعالى أن البشارة به عمَّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحراً، وتسمية آيات الله المنزلة سحراً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجراً ظالماً ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم قال الفخر الرازي: وإطفاء نور الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: إنه سحر، شُبِّهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه[6] وفيه تهكم وسخريةٌ بهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ أي والله مظهرٌ دينه، وناشره في الآفاق، ومُعليه على الأديان، كما جاء في الحديث «إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها...» الحديث[7] والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٨٣.
(٢) تفسير الألوسي ٢٨/٨٦.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) سيرة ابن إسحاق قال ابن كثير: إسناده جيد.
(٥) هذا هو الظاهر أن الضمير في «جاءهم» يعود إلى عيسى لأنه المحدث عنه، وقيل: يعود إلى «أحمد» الذي بشروا به، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب المحيط، وهو الأظهر.
(٦) التفسير الكبير ٢٩/٣١٤.
(٧) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، ومعنى «زوى لي الأرض» أي جمعها حتى رأيتها صلوات الله عليه.

مشارق الدنيا ومغاربها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون والمجرمون. قال الشيخ زاده: بيّن تعالى شأن هذا الدين وعظمه رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي: كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق، من أجل ترغيبهم في الشرك والضلال، فكان العرب إذا ألفوا وارتضوا بالطاعة يكرهون التوحيد، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين، بل المراد أن يكون أهله عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان إلى آخر الزمان[1] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي هو جلّ وعلا بعظمته وحكمته بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن العظيم، والدين الساطع ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان المخالفة له من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أي ولو كره ذلك أعداء الله، المشركون بالله غيره. قال أبو السعود: ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام، حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام[2].

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ .. إلى .. فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ من آية (١٠) إلى آية (١٤) نهاية السورة.

المناسبة: لما بيّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله، وبيّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

اللغة: ﴿تُنجِيكُم﴾ تخلّصكم وتنقذكم ﴿الْحَوَارِيِّينَ﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿وَأَيَّدْنَا﴾ قوّينا وساعدنا ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان.

سبب النزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا نبيّ الله: لوددنا أن نعلم أيّ التجارات أحب إلى الله فنتجر فيها!! فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] الآيات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حقَّ الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي تخلّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بيّن تلك التجارة ووضحها فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

---

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٩٠. (٢) تفسير أبي السعود ٥/١٦٤.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/٨٢.

﴿وَرَسُولِهِ﴾ إيماناً صادقاً، لا يشوبه شكٌ ولا نفاق ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله قال المفسرون: جعل الإيمان والجهاد في سبيله تجارة؛ تشبيهاً لهما بالتجارة، لأنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء، طمعاً في الربح، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه، لنيل ما عند ربه من جزيل ثوابه، والنجاة من أليم عقابه، فشبه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثة أنواع

١- جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات

٢- وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم

٣- وجهادٌ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله[1] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أي يسترها عليكم، ويمحها بفضله عنكم ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإقامة ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي ويعطكم خصلة أخرى تحبونها وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي نصرٌ يعزكم على أعدائكم، وفتح مكة، وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشّر يا محمد المؤمنين بهذا الفضل العظيم قال في البحر: لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة، ذكر لهم ما يسرّهم في العاجلة، وهو ما يفتح الله عليهم من البلاد[2] فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا منارة ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من ينصرني ويكون معي لتبليغ دعوة الله، ونصرة دينه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال أتباع عيسى -وهم المؤمنون المخلصون من خاصته المستجيبون لدعوته- نحن ننصر دين الله قال البيضاوي: والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به، مشتقٌ من الحور وهو البياض، وكانوا اثني عشر رجلاً[3] وقال الرازي: والتشبيه في الآية محمولٌ على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله[4] ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين: جماعة آمنت به وصدّقته، وجماعة كفرت وكذبت برسالته

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٣١٦. (٢) تفسير البحر المحيط ٨/٢٦٣.
(٣) حاشية البيضاوي ٣/٤٩٢. (٤) التفسير الكبير ٢٩/٣١٩.

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع، والمحور الذي تدور عليه السورة هو بيان أحكام «صلاة الجمعة» التي فرضها الله على المؤمنين.

* ابتدأت السورة الكريمة ببعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبينت أنه الرحمة المهداة، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال، وأكرم به الإنسانية، فكانت رسالته بلسمًا لأمراض المجتمع البشري، بعد أن كان يتخبط في الظلام.

* ثم تحدثت السورة عن اليهود، وانحرافهم عن شريعة الله، حيث كُلِّفوا العمل بأحكام التوراة، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم، وضربت مثلاً لهم بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة، ولكنه لا ينال منها إلا العناء والتعب، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة.

* ثم تناولت أحكام «صلاة الجمعة» فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها، وختمت بالتحذير من الانشغال عن الصلاة بالتجارة وغيرها كحال المنافقين، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... إلى ... وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ من آية (١) إلى آية (١١) نهاية السورة.

اللغَة: ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُمّوا بذلك لاشتهارهم بالأمية وعدم معرفة القراءة والكتابة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي التطهير من دنس الشرك والمعاصي ﴿أَسْفَارًا﴾ جمع سِفر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغرائر[1]

﴿هَادُوا﴾ تدينوا باليهودية ﴿انْفَضُّوا﴾ تفرقوا وانصرفوا.

سبب النزول: عن جابر رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائمًا، إذ قدمت عيرٌ من المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ...﴾ الآية.[2]

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/٢٦٦.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير روح المعاني للألوسي ٢٨/١٠٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزّه الله ويمجده ويقدّسه كلُّ شيء في الكون من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونباتٍ، وجمادٍ، وصيغةُ المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿الْمَلِكِ﴾ أي هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام ﴿الْقُدُّوسِ﴾ أي المقدّس والمنزّه عن النقائص، المتصف بصفات الكمال ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ أي هو جلّ وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم، أميّاً مثلهم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسرون: سُمي العرب أميين لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عليه الصلاة والسلام: «نحن أمةٌ أمية، لا نكتب ولا نحسب...»[1] الحديث والحكمةُ في الاقتصار على ذكر الأميين، مع أنه رسولٌ إلى كافة الخلق: تشريفُ العرب حيث أُضيف صلوات الله عليه إليهم، وكفى بذلك شرفاً للعرب ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابن عباس: أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان[2] ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلالٍ واضح عن النهج القويم، والصراط المستقيم قال ابن كثير: بعث الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، وطموسٍ من السُّبُل، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكّاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدّلوا كتبهم

(١) أخرجه البخاري ومسلم. (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٢.

وحرّفوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم، شامل كامل، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم. وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين والآخرين[1] ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي ويبعث الرسول إلى قوم آخرين، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة قال الصاوي: والمعنى أنه بعث إلى المؤمنين الموجودين في زمانه، وإلى الآتين منهم بعدهم، فليست رسالته خاصة بمن كان موجوداً في زمانه، بل هي عامة لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة[2]. وفي الحديث عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال. وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء»[3] قال مجاهد في تفسير الآية: هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب[4] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي لشيء الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر، وهو كونه مبعوثاً إلى كافة الناس، وما شرَّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم، وإرسال خاتم الرسل إليهم - هو فضل الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة. ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها، وشبَّههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي مثل اليهود الذين أعطوا التوراة، وكُلِّفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي ثم لم يعملوا بها، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي: شبههم تعالى -والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها- بالحمار يحمل كتباً، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها[5] وقال في حاشية البيضاوي: ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قرأوا التوراة، وعالمون بما فيها، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين، وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع، مع الكدِّ والتعب[6] ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[7] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يوفق للخير، ولا

(١) مختصر ابن كثير ٣/٤٩٧ (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٠٤ .
(٣) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم . (٤) مختصر ابن كثير ٣/٤٩٨
(٥) تفسير القرطبي ١٨/٩٥ (٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٩٤ .
(٧) أقول: هذه الآية الكريمة فيها تعريضٌ بما عليه معظم المسلمين اليوم إذ تركوا أحكام القرآن وتعطيل مضمونه على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة

يرشد للإيمان من كان ظالمًا فاسقًا قال عطاء: هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء(١) ثم كذّب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحباب الله فقال ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهوّدوا وتمسكوا بملة اليهودية ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقًا كما تدعون ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم لتنتقلوا سريعًا إلى دار كرامته المعدّة لأوليائه، إن كنتم صادقين في هذه الدعوى قال أبو السعود: كان اليهود يقولون ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ويدّعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة، ويقولون ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهارًا لكذبهم: إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت لتنتقلوا من دار البلاء إلى دار الكرامة، فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة، أحبّ أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرّ الأكدار(٢) قال تعالى ناعيًا عليهم، ومبيّنًا كذبهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث «والذي نفسي بيده لو تمنّوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات»(٣) قال الألوسي: لم يتمنَّ أحدٌ الموت منهم لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، وهذه إحدى المعجزات، وجاء في سورة البقرة نفيُ هذا التمني بلفظ ﴿لن﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور(٤) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي عالمٌ بهم وبما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي، ووضع الظاهر موضع الضمير (عليمٌ بهم) ذمًّا لهم، وتسجيلاً عليهم بأنهم ظالمون(٥) ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن هذا الموت الذي تهربون منه، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ لأنه قدرٌ محتوم، ولا يغني حذرٌ عن قدر ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم، وفيه وعيدٌ وتهديد.. ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرابحة قال في التسهيل: والسعيُ في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري(٦) لحديث «إذا أقيمت الصلاة فلا

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٠/٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣.
(٣) تفسير القرطبي ١٨/٩٦.
(٤) تفسير أبي السعود ٥/١٦٣.
(٥) روح المعاني ٢٨/٩٦.
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١١٩.

تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، عليكم السكينة»[1] .. وقال الحسن: والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكنه سعيٌ بالقلوب، والنية، والخشوع[2] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله، وترك البيع والشراء خيرٌ لكم وأنفع من تجارة الدنيا، فإن نفع الآخرة أجلُّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم، والفهم السليم ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فتفرقوا في الأرض وانبثوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه، فإن الرزق بيده جلَّ وعلا وهو المنعم المتفضل، الذي لا يُضيع عمل العامل، ولا يخيب أمل السائل ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي واذكروا ربكم ذكرًا كثيرًا، باللسان والجنان، لا وقت الصلاة فحسب ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير: ذكرُ الله: طاعته، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر ولو كان كثير التسبيح[3] .. ثم أخبر تعالى أنَّ فريقًا من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويفضلون العاجل على الآجل فقال ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائمًا يخطب يوم الجمعة، والمعنى: إذا سمعوا بتجارة رابحة، أو صفقة قادمة، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ لأنها المقصود الأهم ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي وتركوا الرسول قائمًا على المنبر يخطب قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عيرٌ من الشام بطعام، قدم بها دحية الكلبي - وكان أصاب أهل المدينة جوعٌ وغلاء سعر - وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهل المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم، فنزلت الآية[4] قال ابن كثير: وينبغي أن يُعلم أن هذه القصة كانت لمَّا كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين، كما روى ذلك أبو داود[5] ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنَّ ما عند الله من الثواب والنعيم - خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من رزق وأعطى، فاطلبوا منه الرزق، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ لأن

---

(١) أخرجه الستة.
(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/٤٩٦.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٢.
(٤) تفسير القرطبي ١٨/١٠٣.
(٥) انظر سبب النزول المتقدم.

ووجه الشبه منتزع من متعدد أي مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء.

٢- طباق السلب ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ .. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾.

٣- الطباق بين ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٤- الفن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فقدّم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم، فقدّم ما هو أهم في الموضعين.

٥- المجاز المرسل ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها.

تنبيه: يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة، وقد كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ومعناه الرحمة كما قال السهيلي، وأول من سمّاه جمعة «كعب بن لؤي» وأول من صلى بالمسلمين الجمعة «أسعد بن زرارة» صلى بهم ركعتين وذكّرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام[١].

فائدة: كان «عراك بن مالك» إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين»[٢].

لطيفة: التعبير بقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فيه لطيفة، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة، وجد ونشاط؛ لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم، ولهذا قال الحسن البصري: والله ما هو سعيٌ على الأقدام، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة»

---

(١) روح المعاني ٢٨/١٠٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/١٠٣.

المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه - ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم، فسمعه زيد بن أرقم، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وكذَّب زيداً، فنزلت السورة إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ (١) الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾

التفسير: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقاً ورياءً: نشهد بأنك يا محمد رسول الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود: أكَّدوا كلامهم بإنَّ واللام ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم، وخلوص اعتقادهم، ووفور رغبتهم ونشاطهم (٢) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي والله جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسوله حقاً، لأنه هو الذي أرسلك، والجملة اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوى رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كذبٌ في حدِّ ذاته، قال في التسهيل: وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة (٣) ثم قال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٢٢ وانظر البخاري.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٦٤.
(٣) التسهيل ٤/١٢٣.

كلما وقع أمر أو عرفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم[1] قال مقاتل: إذا سمعوا نشدان ضالة، أو صياحًا بأي وجه كان، طارت عقولهم، وظنوا ذلك إيقاعًا بهم[2] ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام، فاحذرهم ولا تأمنهم على سرّ؛ لأنهم عيونٌ لأعدائك ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ جملة دعائية أي أخزاهم الله ولعنهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟! وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نُهبة، وغنيمتهم غلول، لا يقربون المساجد إلا هُجرًا، ولا يأتون الصلاة إلا دُبرًا، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلفون، خُشُبٌ بالليل، صُخُبٌ بالنهار»[3] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي وتراهم يعرضون عمّا دُعوا إليه، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد[4].

قال المفسرون: لمّا نزلت الآيات بفضح المنافقين وكشف الأستار عنهم، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم!! فأبوا وحركوا رؤوسهم سخرية واستهزاءً فنزلت الآية، ثم جاءوا إلى «ابن سلول» وقالوا له: امضِ إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك يستغفر لك، فلوّى رأسه إنكارًا لهذا الرأي ثم قال لهم: لقد أشرتم عليّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد!! ثم بيّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم، لأنهم مردوا على النفاق فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يستوي الأمر بالنسبة لهم فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئًا؛ لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي: والآية للتيئيس من إيمانهم أي إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء؛ فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم[5] ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر، وإصرارهم على العصيان، ثم علّله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يوفق للإيمان من كان فاسقًا خارجًا عن طاعة الرحمن. ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ أي

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٠٤.
(٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ١١١.
(٣) أخرجه أحمد، كذا في ابن كثير ٣/ ٥٠٤.
(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٣.
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٩.

تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموت بالإنسان، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي فيقول عند تيقنه بالموت: يا ربِّ هلاَّ أمهلتني وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقيًّا صالحًا قال ابن كثير: كلُّ مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[1] ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ أي ولن يمهل الله أحدًا أيًّا كان إذا انتهى أجله، ولن يزيد في عمره، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذرًا أن يجيء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع وعالم بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢- الجملة الاعتراضية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة، والأصل ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ... وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما.

٣- الاستعارة ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ الجنة في أصل اللغة: ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.

٤- الطباق بين ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وبين ﴿الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥- التشبيه المرسل المجمل ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ وهو من روائع التشبيه.

٦- طباق السلب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

٧- الجملة الدعائية ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ وهي دعاء عليهم باللعنة والخزي والهلاك.

٨- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام.

تنبيه: النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ الإسلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يظهرون الإسلام ليصونوا دماءهم وأموالهم كما قال الشاعر:

وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصون دمائهم أن لا تُسالا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٦.

فائدة: العزة غير الكبر، ولا يحل للمسلم أن يذلّ نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكبر جهل الإنسان بنفسه، قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: إن الناس يزعمون أن فيك كبراً وتيهاً فقال: ليس بتيه ولكنه عزة المسلم، ثم تلا الآية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لطيفة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق الله إنما يسأل الرجعة الكفار!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ...﴾ الآية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون»

بين يدي السورة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع، ولكنّ جوّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم تناولت موضوع الإنسان المعرض عن ربه، وإنكار الكافر الجاحد لآلاء الله.

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية، والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وما حلّ بهم من العذاب والدمار نتيجة كفرهم وعنادهم وضلالهم.

* وأقسمت السورة على أن البعث حق لا بد منه، أقرّ به المشركون أو أنكروه.

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله، وحذرت من الإعراض عن دعوة الله.

* كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة.

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وهو شطر الجهاد في سبيل الله.

اللغَة: ﴿صوّركم﴾ التصوير: التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نبأ﴾ النبأ: الخبر الهام ﴿وبال﴾ الوبال: العقوبة والنكال ﴿زعم﴾ ادّعى، والزعم هو القول بالظن ومنه قولهم "زعموا" مطية الكذب، قال شريح: "لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا"(١) ﴿التغابن﴾ الغبن: النقص، يقال: غبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، وسمي يوم القيامة يوم التغابن لأنه يظهر فيه غبن الكافر بترك الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان.

سبب النزول: روي أن رجالاً من أهل مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم، فأطاعوهم وتركوا الهجرة، فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾(٢) الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/١٣٥ (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٠٦

فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾.

التفسير: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات، تنزيهاً دائماً مستمراً بدون انقطاع، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي له جل وعلا الملك التام والتصرف الكامل في خلقه، وهو المستحق للثناء والحمد، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى، وقدّم الجار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء، يغني ويفقر، ويعز ويذل، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ هذا تفصيلٌ لبعض آثار قدرته أي هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الإيمان به، لكنْ منكم من كفر به، ومنكم من آمن وصدّق بخالقه قال الطبري: أي فمنكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدّق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه[1]. وقدّم الكافر على المؤمن لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عالمٌ بأحوالكم، مطّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها. ثم فصّل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٧٨.

الدنيا والدين، لا عبثاً ولا لهواً ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم كقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه[1] ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلاً بعمله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي يعلم ما في السموات والأرض من أجرام ومخلوقات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من نياتكم وأعمالكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة؟ قال في البحر: نبّه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب[2].. ثم ذكّرهم تعالى بما حلّ بالكفار قبلهم فقال ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود، ماذا حلّ بهم من العذاب والنكال!؟ ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، والبراهين الساطعات، الدالة على صدقهم ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب: أرسلٌ من البشر يهدوننا؟ قال الرازي: أنكروا أن يكون الرسول بشراً، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً[3]، وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ أي فكفروا بالرسل، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري: أي استغنى الله عنهم وعن إيمانهم به وبرسله[4] ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غنيٌّ عن خلقه، محمودٌ في ذاته وصفاته، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية؛ لأنه مستغن عن العالمين.. ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أي ادّعى كفار مكة وظنوا أن الله لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبداً ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي قل لهم يا محمد: ليس الأمر كما زعمتم، وأقسم بربي لتخرجنّ من قبوركم أحياء ولتبعثنّ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي ثم لتخبرنّ بجميع

---

(١) فإن قيل: إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل، فالجواب: أن ذلك لا يخرجه عن حسن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه.

(٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٧. (٣) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٧٨.

أعمالكم، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وتجزون بها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي وذلك البعث والجزاء، سهلٌ هينٌ على الله؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي: أنكروا البعث بعد أن يصيروا ترابًا، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهون في العقول من إنشائهم[١]. ولما بالغ في الإخبار عن البعث، وذكر أحوال الأمم المكذبة، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ أي فصدّقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ فإنه النور الوضاء، المبدّد للشبهات، كما يبدد النور الظلمات ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير: سُمّي (يوم الجمع) لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[٢] ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر غبن الكافرين قال الخازن: وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته، والمغبونُ من غُبِن أهله ومنازله في الجنة، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسلم، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافر بتركه الإيمان، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان[٣] ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي ومن يصدّق بالله ويعمل عملاً صالحًا، يمح الله تعالى عنه ذنوبه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي ويدخله جنات النعيم، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه، والسعادة التي لا سعادة بعدها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي أولئك مآلهم جهنم، ماكثين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومستقرًا لأهل الكفر والضلال.. ثم أخبر تعالى بأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقال ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في نفسه أو ماله أو ولده، إلا بقضاء الله وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي ومن يصدّق بالله ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره، يهد قلبه للصبر والرضا ويثبته على الإيمان قال ابن عباس: يهدِ قلبه لليقين، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[٤] وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣٠/٢٣.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٠٩.
(٣) تفسير الخازن ٤/١٠٤.
(٤) تفسير الطبري ٢٨/٨٠.

بها ويُسلِّم لقضاء الله[1] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو تعالى عالمٌ بكل الأشياء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء قال القرطبي: أي لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلَّم لأمره، ولا كراهة من كرهه[2] ولم يرض بقضائه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم، إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله جلَّ وعلا لا معبود سواه، ولا خالق غيره، عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم قال الصاوي: وهو تحريضٌ وحثٌ للنبي ﷺ على التوكل على الله، والالتجاء إليه، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك[3]، حتى يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم، يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم قال المفسرون: إن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد تفقهوا في الدين، فندموا وأسفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة[4]، والآية تعم كلَّ من اشتغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ أي وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحتم عما صدر منهم، وغفرتم لهم زلاتهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي ليست الأموال والأولاد إلا اختبارٌ وابتلاءٌ من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، وقدَّم المال لأن فتنته أشد ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله، والآية ترغيبٌ في الآخرة وترهيبٌ في الدنيا، وفي الأموال والأولاد التي فتن الناس بها ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون: هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإنسان منها بقدر طاقته، وأما في المحظورات فلابدَّ من اجتنابها بالكلية ويدل عليه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما

(١) مختصر ابن كثير ٣/٥١٠.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/١٤٠.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٦٤.
(٤) انظر سبب النزول المتقدم.

(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين: كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع ... إلى غير ما هنالك من أحكام.

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق -الطلاق السني، والطلاق البدعي- فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق عند تعذر استمرار الحياة الزوجية، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع، وهو أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها.

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية؛ فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله، ولولا الضرورات القصوى لما أبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة.

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها؛ لئلا تختلط الأنساب، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر ودعت إلى الوقوف عند حدود الله، وعدم عصيان أوامره.

* وتناولت السورة أحكام العدة، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبر أو مرض، وكذلك عدة الصغيرة وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد.

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى تقوى الله بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة.

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله، وما ذاقت من الوبال والدمار، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق، ومثلهن الأرضين، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين.

□ □ □

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ … إلى … وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ من بداية السورة الكريمة إلى نهايتها.

اللغة: ﴿الْعِدَّةَ﴾ المدة التي تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها ﴿وَأَحْصُوا﴾ اضبطوا بطريق العدد ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ كاشفة ﴿وُجْدِكُمْ﴾ طاقتكم ووسعكم ﴿ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم ﴿وَكَأَيِّن﴾ كثير ﴿عَتَتْ﴾ تكبرت وتجبرت وأعرضت ﴿نُكْرًا﴾ منكرًا شنيعًا وفظيعًا ﴿خُسْرًا﴾ خسارًا وهلاكًا.

سبب النزول:

أ- روى البخاري أن عبد الله بن عمر طلّق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر

أمره كفاه ما أهمه، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، لأنه مأمور به ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب[1]، وفي الحديث «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي بالغٌ أمره في جميع خلقه، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء قال في التسهيل: وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيدٌ له، لأنَّ العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكل على الله وحده ولم يعوّل على سواه[3] ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور مقدارًا معلومًا، ووقتًا محدودًا، حسب الحكمة الأزلية قال القرطبي: أي جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلًا ينتهي إليه[4]. ثم بيَّن سبحانه حكم المطلَّقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنَّ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن فهذا حكمهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي فعدة الواحدة منهن ثلاثة أشهر، كل شهر يقوم مقام حيضة ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، سواءً كانت مطلقة، أو متوفى عنها زوجها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي ومن يخش الله في أقواله وأفعاله، ويجتنب ما حرَّم الله عليه، يسهِّل عليه أمره ويوفقه لكل خير ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به، وتعملوا بمقتضاه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ أي ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والثواب قال الصاوي: كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى[5] وقال في البحر: لمَّا كان الكلام في أمر المطلقات، وكنَّ لا يطلَّقن إلا عن بغض أزواجهنَّ لهنَّ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينها وينفِّر الخطَّاب عنها، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى، وجاء مبرزًا في صورة شرط وجزاء ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل﴾[6] الآية ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها، على قدر طاقتكم ومقدرتكم، فإن كان موسرًا وسَّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيرًا فعلى قدر الطاقة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي ولا تضيقوا عليهن في المسكن والنفقة حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ أي وإذا كانت المطلَّقة حاملًا ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي فعلى الزوج أن ينفق عليها -ولو طالت مدة الحمل- حتى تضع حملها ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢١٥.
(٢) أخرجه الترمذي.
(٣) التسهيل ٤/ ١٢٨.
(٤) القرطبي ١٨/ ١٦٧.
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٢١٧.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤.

والأصل أن يكون بطريق الغيب «لا يدري».

٤ - إيجاز الحذف ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ حذف منه الخبر أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

٥ - تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ الآية

٦ - المجاز المرسل ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل.

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر، واستعار النور للهدى والإيمان، وهو من روائع البيان، وجلائل تعبير القرآن.

٨ - السجع المرصع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ .. ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ .. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .. ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق»

(٦٦) سورة التحريم مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشؤون التشريعية، وهي هنا تعالج قضايا وأحكامًا تتعلق «ببيت النبوة» وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة.

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته «مارية القبطية» على نفسه، وامتناعه عن معاشرتها إرضاءً لرغبة بعض زوجاته الطاهرات، وجاء العتاب له لطيفًا رقيقًا، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيّق على نفسه ما وسّعه الله له ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ..﴾ الآية.

* ثم تناولت السورة أمرًا على جانب كبير من الخطورة ألا وهو «إفشاء السر» الذي يكون بين الزوجين، والذي يهدّد الحياة الزوجية، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة بسرٍّ واستكتمها إياه، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع، مما أغضب الرسول حتى همَّ بتطليق أزواجه ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا..﴾ الآية.

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس، وغيرة بعضهن من بعض لأمورٍ يسيرة، وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساء خير منهن، انتصارًا لرسول الله ﷺ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ..﴾ الآية.

* وختمت السورة بضرب مثلين: مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن، ومثلاً للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر، تنبيهًا للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحًا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ..﴾ الآيات. وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان.

□□□

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ..﴾ إلى .. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ من آية (١) إلى آية (١٢) نهاية السورة.

اللغَة: ﴿تَحِلَّةَ﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صَغَتْ﴾ مالت عن الحق وزاغت، وأصغى الإناء

أمثاله ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نَّصُوحًا﴾ خالصة صادقة، والتوبةُ النصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب، سميت نصوحًا لما فيها من الصدق والإخلاص يقال: هذا عسلٌ ناصح إذا خلص من الشمع[1] ﴿غِلَاظٌ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أَحْصَنَتْ﴾ عفّت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة.

سبب النزول

أ - روي أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها، فلما خرجت أرسل إلى جاريته «مارية القبطية» فباشرها في بيت حفصة، فرجعت فوجدتها في بيتها، فغارت غيرةً شديدة، وقالت: أدخلتها بيتي في غيابي وباشرتها على فراشي؟! ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضيًا لها: «إني حرّمتها عليَّ ولا تخبري بذلك أحدًا»، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة -وكانتا متصافيتين- وأخبرتها بسرّ النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهرًا واعتزلهن فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...﴾[2] الآية.

ب - وروي أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه «زينب» رضي الله عنها فيشرب عندها عسلًا، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها: أكلت مغافير -وهو صمغ حلوٌ كريه الريح- فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة- فقال عليه السلام: (لا ولكني شربت عسلًا عند زينب ولن أعود له وحلف) فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...﴾[3] الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝

---

(1) القرطبي ١٨/١٩٩. (2) انظر تفسير الطبري ٢٨/١٠١ وحاشية الصاوي ٤/٢٦٩.

(3) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول، وهي أن الرسول ﷺ حرّم على نفسه مارية القبطية وقد أخرجها الدارقطني عن ابن عباس، والرواية الثانية ذكرت في الصحيحين بأوسع من هذا وهي أصح إسنادًا من الأولى، ولكن كونها سببًا للنزول مستبعد، والذي يرجح الرواية الأولى أمور: أ - أن مثل تحريم بعض الأمة مما يُغري به إرضاء بعض الزوجات، لا شرب العسل. ثانيًا: أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهن، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين نصراء لرسول الله ﷺ يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة بعضهن من بعض، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلًا حتى حرّم بعض جواريه إرضاء لهن، واستكتم البعض بعض الأمر فأفشى السرّ، وهذا يرجح ما ذكرناه، وقد قال العلامة ابن كثير: وذكر قصة شرب العسل سببًا للنزول فيه نظر. والله أعلم

للحلال كما زعم حتى يعتبر مخالفة ومعصية، وإنما امتنع عن بعض المباحات تطييباً لخاطر بعض أزواجه، فعاتبه الله تعالى عليه رفقاً به، وتنويهاً بقدره، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه، جرياً على ما ألف من لطف الله تعالى به[١] ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي والله وليكم وناصركم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي وهو العالم بخلقه الحكيم في صنعه، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.. ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ أي واذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجته حفصة خبراً واستكتمها إياه قال ابن عباس: هو ما أسرَّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه، كما أخبرها بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[٢]، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحداً ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرت بذلك السر عائشة وأفشته لها ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسر ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن: ما استقصى كريمٌ قط، وقال سفيان: ما زال التغافل من شيم الكرام[٣] قال الخازن: ومعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[٤] ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سره ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي قالت: من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيت سرك؟ قال أبو حيان: ظنت حفصة أن عائشة فضحتها -وكانت قد استكتمتها- فقالت: من أنبأك هذا؟ على سبيل التثبت، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلَّمت[٥] ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي فقال عليه السلام: أخبرني بذلك ربي العزيز العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ الخطاب لحفصة وعائشة، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيراً لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب

---

(١) شنَّ صاحب الانتصاف على الكشاف الغارة على الزمخشري وشنع عليه وهو محق في ذلك لأنه لم ينظر بلطف الله . عرف حقيقة الأمر وصوابه.

(٢) قال الرازي: لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها بشيئين: تحريم الأمة على نفسه، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر اهـ. التفسير الكبير ٣٠/٤٣.

(٣) روح المعاني ٢٨/١٥٤. (٤) تفسير الخازن ٤/١٦٧.

(٥) البحر المحيط ٨/٢٩٠.

وهذا إطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة تفضلاً منه وتكرماً؛ لأن العظيم إذا وعد وفى، وعادة الملوك أنهم إذا أرادوا فعلاً قالوا: عسى، فهو بمنزلة المحقق[1] ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار، بل يعزهم ويكرمهم قال أبو السعود: وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم اللهُ تعالى من أهل الكفر والفسوق[2] ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، كإضاءة القمر في سواد الليل[3] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ أي يدعون الله قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين[4]، يدعون ربهم به إشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب. ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان، والمنافقين بالحجة والبرهان؛ لأن المنافقين يظهرون الإيمان، فهم مسلمون ظاهراً ولذلك لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي وشدد عليهم في الخطاب، ولا تعاملهم بالرأفة واللين، إرهاباً وإذلالاً لهم، لتكسر صلابتهم وتلين شكيمتهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبئست جهنم مستقراً ومصيراً للمجرمين. ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح؛ لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي مثّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما نوح ولوط عليهما السلام، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الإيمان[5]؛ فلم يدفعا عن امرأتيهما -مع نبوتهما- شيئاً من عذاب الله ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ أي ويقول

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي ٢٨/١٦٠.   (٢) تفسير أبي السعود ٥/١٧٥.

(٣) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم؟ فقال: «إنهم يكونون غراً محجلين من آثار الوضوء» أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من أثر الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ.

(٤) تفسير القرطبي ١٨/٢٠١.

(٥) الخيانة هنا مراد بها: خيانة في الدين لا في العرض، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور، بل هنَّ شريفات مصونات لحرمة الأنبياء، وقد قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين. فتدبره فإنه دقيق.

لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين من الكفرة والمجرمين. قال القرطبي: ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهًا على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب، إذا فرّق بينهما الدين، فكما لم ينفع نوحٌ ولوطٌ مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا شيئًا من عذاب الله[1] ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا مثلٌ آخر للمؤمن في عدم تضرره بقرابة قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمنًا. قال أبو السعود: أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله "فرعون" وهي في أعلى غرف الجنة[2]. قال المفسرون: واسمها "آسية بنت مزاحم" آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجاها الله من شره، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم يغنِ امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ أي حين دعت ربها قائلة: يا رب اجعل لي قصرًا مشيدًا بجوار رحمتك في جنة النعيم. قال بعض العلماء: ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت: ﴿ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي وأنقذني من الأقباط أتباع فرعون الطاغين، قال الحسن: لما دعت بالنجاة نجاها الله تعالى أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم[3] ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ أي ومريم ابنة عمران مثلٌ آخر في الإيمان ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظت فرجها وصانته عن مقارفة الفواحش، فهي عفيفة شريفة طاهرة، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي نفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى. قال ابن كثير: إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام[4] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ أي آمنت بشرائع الله المقدسة، وكتبه السماوية ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ أي وكانت من القوم المطيعين، العابدين لله عز وجل، وهو ثناء عليها بكثرة العبادة والطاعة، والخشوع، وفي الحديث "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[5].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين حرّم وأحلّ ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ﴾ وبين ﴿عَرَّفَ ... وَأَعْرَضَ﴾ وبين ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٠٢

(٢) تفسير أبي السعود ٥/١٧٦

(٣) البحر المحيط ٨/٢٩٥

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٢٦

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

خلقه ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، من طابق النعل بالنعل إذا قطعه بقدره وجعله فوقه ﴿فُطُورٍ﴾ شقوق وخروق، من فطر بمعنى شق، قال الشاعر:

بنى لكمو بلا عمدٍ سماءً ... وزيّنها فما فيها فطورُ (1)

﴿حَسِيرٌ﴾ ذليل، من الحسور وهو الإعياء يقال: حسر البعير إذا كلّ وانقطع قال الشاعر:

نظرتُ إليها بالمحصّب من منى ... فعاد إليّ الطرف وهو حسيرُ (2)

﴿شَهِيقًا﴾ صوتًا منكرًا كصوت الحمير ﴿تَمَيَّزُ﴾ تتقطع وينفصل بعضها من بعض، وأصلها تتميز حذفت إحدى التاءين تخفيفًا ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ أطرافها ونواحيها، وأصل المنكب الجانب ومنه منكب الرجل ﴿لَجُّوا﴾ تمادوا وأصروا ﴿تَمُورُ﴾ ترتج وتضطرب ﴿زُلْفَةً﴾ قريبًا منهم ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا في الأرض.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

---

(1) البحر المحيط ٨/٢٩٨ . (2) القرطبي ١٨/٢١٠ .

التفسير: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي تمجَّد وتعالى اللهُ العلي الكبير، المهيمن على المخلوقات من قوى الخيرات، الذي بقبضة قدرته ملكُ السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء. قال ابن عباس: بيده المُلك، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع[1] ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على كل شيء، له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع. ثم بيَّن تعالى آثار قدرته، وجليل حكمته فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي أوجد في الدنيا الحياة والموت، فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار، وإنما قدم الموت لأنه أهيب في النفوس وأفزع قال العلماء: ليس الموت فناءً وانقطاعًا بالكلية عن الحياة، وإنما هو انتقال من دار إلى دار، ولهذا ثبت في الصحيح أن الميت يسمع، ويرى، ويحسُّ وهو في قبره كما قال عليه السلام: «إنَّ أحدكم إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم»[2] الحديث وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم لكنهم لا يجيبون» فالموتُ هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها لجسده ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليمتحنكم ويختبركم أيها الناس فيرى المحسن منكم من المسيء، قال القرطبي: أي يعاملكم معاملة المختبر، فيجازي الله تعالى عباده بالمطيع والعاصي[3] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الغالب في انتقامه ممن عصاه ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب من ذنبه وأناب إليه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي خلق سبع سموات متطابقة، بعضها فوق بعض، كل سماءٍ كالقبة للأخرى ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ أي لست ترى أيها السامع في خلق الرحمن البديع من نقص أو خلل، أو اختلاف أو تنافر، بل هي في غاية الإحكام والإتقان، وإنما قال: ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ ولم يقل: فيهن تعظيمًا لخلقهن، وتنبيهًا على باهر قدرة الله ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي فكرِّر النظر في السموات وردِّده في خلقهن المحكم، هل ترى من شقوق وصدوع؟ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي ثم ردِّد النظر مرة بعد أخرى، وانظر بعين الاعتبار في هذه السموات العجيبة مرةً بعد مرة ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك بصرك خاشعًا ذليلًا، لم ير ما تريد ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي وهو كليلٌ متعب قد بلغ الغاية في الإعياء، قال الإمام الفخر: المعنى إنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجود الخلل والعيب بل رجع خاسئًا صاغرًا لم ير ما يهوى مع الكلال والإعياء[4] وقال القرطبي: أي اردد طرفك وقلِّب البصر في السماء ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرة بعد أخرى، يرجع إليك البصر خاشعًا صاغرًا، متباعدًا عن أن يرى شيئًا من ذلك العيب والخلل، وإنما أمر بالنظر كرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، والمراد بالكرتين التكثير بدليل قوله ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾

---

(١) القرطبي ٢٠٦/١٨.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) تفسير القرطبي ٢٠٧/١٨.
(٤) التفسير الكبير للرازي ٥٨/٣٠.

﴿ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو دليلٌ على كثرة النظر[1] .. ثم بيَّن تعالى ما زين به السماء من النجوم الزاهرة والكواكب الساطعة فقال: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ اللام لام القسم و ﴿ قد ﴾ للتحقيق والمعنى والله لقد زينا السماء القريبة منكم أيها الناس بكواكب مضيئة ساطعة، هي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض قال المفسرون: سميت الكواكب مصابيح لإضاءتها بالليل إضاءة السراج ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ أي وجعلنا لها فائدةً أخرى وهي رجم أعدائكم الشياطين، الذين يسترقون السمع قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاثٍ. زينةً للسماء ورجومًا للشياطين وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر[2] وقال الخازن: فإن قيل: كيف تكون زينة للسماء، ورجومًا للشياطين؟ وكونها زينة يقتضي بقاءها، وكونها رجومًا يقتضي زوالها، فكيف الجمع بين هاتين الحالتين؟ فالجواب: أنه ليس المراد أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن تنفصل من الكواكب شعلة وتُرمى الشياطين بتلك الشعلة وهي الشهب، ومثلها كمثل قبس يؤخذ من النار وهي على حالها[3]، أقول: ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ فعلى هذا الكواكب لا يرجم بها، وإنما يكون الرجم بالشهب ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أي وهيأنا وأعددنا للشياطين في الآخرة - بعد الإحراق بالشهب في الدنيا - العذاب المستعر، وهو النار الموقدة ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ أي وللكافرين بربهم عذاب جهنم أيضًا، فليس العذاب مختصًا بالشياطين بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي وبئست النار مرجعًا ومصيرًا للكافرين .. ثم وصف تعالى جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال فقال: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا ﴾ أي إذا قذفوا وطرحوا في جهنم كما يطرح الحطبُ في النار العظيمة ﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ أي سمعوا لجهنم صوتًا منكرًا فظيعًا كصوت الحمار لشدة توقدها وغليانها[4] قال ابن عباس: الشهيقُ لجهنم عند إلقاء الكفار فيها، تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفرُ زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[5] ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ أي وهي تغلي بهم كما يغلي المرجل - القدر - من شدة الغضب ومن شدة التلهب قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحَبُّ القليل في الماء الكثير ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أي تكاد جهنم تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها وحنقها على أعداء الله ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي كلما طرح فيها جماعةٌ من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي سألهم الملائكة الموكلون على جهنم - وهم الزبانية - سؤال توبيخ وتقريع ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي ألم يأتكم رسولٌ ينذركم ويخوفكم من هذا اليوم الرهيب؟ قال المفسرون:

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٠٩ . (٢) البحر المحيط ٨/٢٩٩ .
(٣) تفسير الخازن ٤/١٢٥ .
(٤) قال في التسهيل: الشهيق أنكر ما يكون من صوت الحمار، ويعني به ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانها وفورانها.
(٥) التسهيل ٤/١٣٤ ؛ تفسير القرطبي (١٨/ ٢١١) .

وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم، وعذابًا فوق عذابهم ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ أي أجابوا نعم لقد جاءنا رسول منذر، وتلا علينا آيات الله، ولكنا كذبناه وأنكرنا رسالته ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي وقلنا إمعانًا في التكذيب وتمدينًا في التكبر: ما أنزل الله شيئًا من الوحي على أحد قال الرازي: هذا اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل الكرام، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا: ما نزّل الله من شيء ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ هذا من تتمة كلام الكفار أي ما أنتم يا معشر الرسل إلا في بعد عن الحق وضلال واضح عميق ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي وقال الكفار: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو كنا نسمع سمع طالب للحق، ملتمس للهدى ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي ما كنا نستوجب الخلود في جهنم ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ أي أقروا بإجرامهم وتكذيبهم للرسل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي فبعدًا وهلاكًا لأهل النار، قال ابن كثير: عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، والجملة دعائية أي أبعدهم الله من رحمته وسحقهم سحقًا. ثم لما ذكر حال الأشقياء الكفار أتبعه بذكر حال السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، ويكفُّون عن المعاصي طلبًا لمرضاة الله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي لهم عند الله مغفرة عظيمة لذنوبهم، وثواب جزيل لا يعلم قدره غير الله تعالى ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ الخطاب لجميع الخلق أي أخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه، سواءٌ أخفيتموه أو أظهرتموه فإن الله يعلمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي لأنه تعالى العالم بالخفايا والنوايا، يعلم ما يخطر في القلوب، وما توسوس به الصدور قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولكم حتى لا يسمع إله محمد، فأخبر الله أنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ أي ألا يعلم الخالق مخلوقاته؟ كيف لا يعلم من خلق الأشياء، وأوجدها من العدم وجهره؟ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي والحال أنه اللطيف بالعباد، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا تتحرك ذرة، ولا يسكن أو يضطرب نفس إلا وعنده خبرها. ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار فضله وامتنانه على العباد فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي الله جل وعلا جعل لكم الأرض لينة سهلة الممالك ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي فاسلكوا أيها الناس في جوانبها وأطرافها قال ابن كثير: أي سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها للمكاسب والتجارات ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أي وانتفعوا بما أنعم به جل وعلا عليكم من أنواع المكاسب والرزق قال الألوسي: كثيرًا ما يُعبر عن وجوه الانتفاع بالأكل لأنه الأهم الأعم، وفي الآية دليل على ندب التسبب والكسب، وهو لا ينافي التوكل، فقد مرَّ

التفسير الكبير للرازي (٣٠/٦٥). مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٢٨).
القرطبي (١٨/٢١٢) والألوسي (٢٩/١٣). مختصر ابن كثير (٣/٥١٨).

عمر رضي الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون! فقال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل رجلٌ ألقى حبة في بطن الأرض وتوكل على ربه عز وجل[1] ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي وإليه تعالى المرجع بعد الموت والفناء، للحساب والجزاء.. ثم توعَّد تعالى كفار مكة المكذبين لرسول الله ﷺ فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي هل أمنتم يا معشر الكفار ربكم العليَّ الكبير أن يخسف بكم الأرض فيغيِّبكم في مجاهلها، بعد ما جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها؟ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي فإذا بها تضطرب وتهتز بكم هزًا شديدًا عنيفًا قال الرازي: والمراد أنَّ الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها فيذهبون، والأرض فوقهم تمور فتقلبهم إلى أسفل سافلين[2] ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي أم أمنتم الله العليَّ الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل؟ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي فستعلمون عند معاينة العذاب كيف يكون إنذاري وعقابي للمكذبين!! وفيه وعيد وتهديدٌ شديد، وأصلها «نذيري» و«نكيري» حذفت الياء مراعاةً لرءوس الآيات ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ولقد كذَّب كفار الأمم السابقة رسلهم، كقوم نوح وعادٍ وثمود وأمثالهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم بنزول العذاب؟ ألم يكن في غاية الهول والفظاعة؟ ثم لما حذَّرهم ما عسى أن يحل بهم من الخسف وإرسال الحاصب، نبَّههم على الاعتبار بالطير، وما أحكم الله من خلقها، وعن عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيء من ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي أولم ينظروا نظر اعتبار إلى الطيور فوقهم، باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها وتحليقها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتًا بعد وقت؟ ولما كان الغالب هو فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبَّر عنه بالاسم ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وكان القبض متجددًا عبَّر عنه بالفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ قال في التسهيل: فإن قيل لِمَ لَمْ يقل «قابضات» على طريقة ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكره بصيغة اسم الفاعل ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ لدوامه وكثرته، وأما قبضُ الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فلذلك ذكره بلفظ الفعل لقلته[3] ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي ما يمسكهن في الجو عن السقوط في حال البسط والقبض، إلا الخالق الرحمن الذي وسعت رحمته كل ما في الأكوان قال الرازي: وذلك أنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، وبإلهامها إلى كيفية البسط والقبض المطابق للمصلحة من رحمة الرحمن[4] ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي يعلم كيف يخلق، وكيف يبدع العجائب بمقتضى علمه وحكمته.. ثم وبَّخ تعالى المشركين في

---

(١) تفسير الآلوسي (٢٩/١٥).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/٧٠).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٣٦).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/٧١).

{إن كنتم صادقين} أي متى يكون الحشر والعذاب الذي تعدوننا به؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر، وهذا استهزاء منهم {قل إنما العلم عند الله} أي قل لهم يا محمد: علم وقت قيام الساعة ووقت العذاب عند الله تعالى لا يعلمه غيره {وإنما أنا نذير مبين} أي وما أنا إلا رسول منذر أخوفكم عذاب الله امتثالاً لأمره.. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين في ذلك اليوم العصيب فقال {فلما رأوه زلفة} أي فلما رأوا العذاب قريباً منهم، وعاينوا أهوال القيامة {سيئت وجوه الذين كفروا} أي ظهرت على وجوههم آثار الاستياء، وعلتها الكآبة والغم والحسرة، وغشيها الذل والانكسار، قال في البحر: أي ساءت رؤية العذاب وجوههم، وظهر فيها السوء والكآبة، كمن يساق إلى القتل(١) {وقيل هذا الذي كنتم به تدعون} أي وقالت لهم الملائكة توبيخاً وتبكيتاً: هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءً وتكذيباً {قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا} أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتمنون هلاكك: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو أبقانا وأخر آجالنا {فمن يجير الكافرين من عذاب أليم} أي فمن يحميكم من عذاب الله الأليم، ووضع لفظ {الكافرين} عوضاً عن الضمير (يجيركم) تسجيلاً وتسجيلاً عليهم بالكفر، قال المفسرون: كان الكفار يتمنون هلاك النبي ﷺ والمؤمنين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله بالإماتة وأهلك من معي، فأي راحة لكم في موتنا؟ ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟ هل تظنون أن الأصنام تخلصكم وتنقذكم من العذاب الأليم؟(٢) {قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا} أي قل لهم: إننا نعبد الواحد الأحد، وعليه اعتمدنا في جميع أمورنا لا على الأموال والرجال {فستعلمون من هو في ضلال مبين} أي فسوف تعلمون عن قريب من هو في الضلالة، نحن أم أنتم؟ وفيه تهديد للمشركين {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً} أي قل لهم يا محمد: أخبروني إن صار الماء غائراً ذاهباً في أعماق الأرض بحيث لا تستطيعون إخراجه {فمن يأتيكم بماء معين} أي فمن الذي يخرجه لكم حتى يكون ظاهراً جارياً على وجه الأرض؟ لا أحد يأتيكم به إلا الله، فلمَ تشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟!

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين {الموت .. والحياة} وبين {أسروا .. أو اجهروا} وبين {صافات .. ويقبضن} لأن المعنى: باسطات وقابضات.

٢- وضع الموصول للتفخيم والتعظيم {الذي بيده الملك} أي له الملك والسلطان، والتصرف في الأكوان.

٣- الإطناب بتكرار الجملة زيادة في التذكير والتنبيه {فارجع البصر .. ثم ارجع البصر}

---

(١) البحر ٨/٣٠٤.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي (٣٠/٧٤).

وكذلك ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ .. ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

٤ - الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ؟

٥ - المقابلة ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قابله بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٦ - الاستعارة المكنية ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ شبه جهنم في شدة غليانها ولهيبها بإنسان شديد الغيظ والحنق على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد بطريق الاستعارة المكنية .

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا على طريق التمثيل للمؤمن والكافر ، فالمؤمن يمشي سويًا على صراط مستقيم ، والكافر يمشي مكبًا على وجهه إلى طريق الجحيم ، ويا لها من استعارة رائعة !!

٨ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ومثل ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ إلخ

تم بعونه تعالى تفسير سورة الملك

* * *

وانصرافهم عن الهدى؟ قال القرطبي: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، ومعظم السورة نزل في «الوليد بن المغيرة» و«أبي جهل» وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطاناً، وعنوا بالمفتون هذا، فقال الله تعالى سيعلمون غداً بأيهم المفتون أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي فلا تطع رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه، قال الرازي: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم[2] ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك. قال في التسهيل: المداهنة هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية[3] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي ولا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل، الذي يكثر من الحلف مستهيناً بعظمة الله ﴿مَّهِينٍ﴾ أي فاجر حقير ﴿هَمَّازٍ﴾ أي مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو النمام، وفي الحديث الصحيح «لا يدخل الجنة نمام»[4] ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي ظالم متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام، وجمعت الأوصاف «حلاف، همّاز، مشّاء، منّاع» بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة ﴿عُتُلٍّ﴾ أي جاف غليظ، قاسي القلب عديم الفهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ﴿زَنِيمٍ﴾ أي ابن زنا، وهذه أشد معايبه، فتبيّن أنه لصيق دعي ليس له نسب صحيح، قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعيّاً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب - قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذمّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد، وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيّ أعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيناً - أي لا يستطيع مباشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي فأنت من ذلك الراعي. فلم يعرف أن

---

(1) تفسير القرطبي ١٨/٢٢٩.
(2) تفسير الفخر الرازي ٣٠/٨٣.
(3) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٣٨.
(4) أخرجه مسلم.

شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي فطرقها طارق من عذاب الله، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نيامًا، قال الكلبي: أرسل الله عليها نارًا من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيمًا يابسًا، قال ابن عباس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم ﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي نادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى ثماركم وزروعكم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفًا من أن يشعر بهم المساكين قائلين ﴿أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي لا تدخلوا في هذا اليوم أحدًا من الفقراء إلى البستان ولا تمكنوه من الدخول ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ أي ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم، قال ابن عباس: ﴿على حرد﴾ على قدرة وقصد، وقال السدي: على حنق وغضب، وقال الحسن: على فاقة وحاجة(١)، وقول ابن عباس أظهر ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ أي فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها وليست هذه حديقتنا قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا بعد ذلك(٢) ﴿بل نحن محرومون﴾ أي لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حرمنا ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا ﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾؟ أي قال أعقلهم وأفضلهم رأيًا: هلا تسبحون الله فتقولون «سبحان الله» و«إن شاء الله» قال في البحر: لامهم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله(٣) وقال الرازي: إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسط لهم توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول، فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد خراب البصرة(٤) ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي فقالوا حينئذ: تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا يقول: هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت، ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا

---

(١) قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: غدوا على أمر قد قصدوه، واعتمدوه، واستسروه بينهم قادرين عليه وهو ترجيح لقول ابن عباس وهو الذي اخترناه.
(٢) البحر المحيط (٨/٣١٣). (٣) التفسير الكبير (٣٠/٩٠).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/٩٠).

الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم[1] ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغين في منع الفقراء، وعدم التوكل على الله، قال الرازي: والمراد أنهم استعظموا جرمهم[2] ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ أي لعل الله يعوضنا أفضل منها بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي فنحن راجون لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله. ساق تعالى هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف، وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوبًا بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش، والعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان عندهم فهم وعلم، قال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر، وحلفوا ألا يرجعوا إلى مكة حتى يقتلوا محمدًا ﷺ وأصحابه، ويشربوا الخمور، وتضرب القينات - المغنيات - على رؤوسهم، فأخلف الله ظنهم، فقتلوا وأسروا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا[3]. ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين المتقين بعد أن ذكر حال المجرمين من كفار مكة فقال ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي إن للمتقين في الآخرة حدائق وبساتين ليس فيها إلا النعيم الخالص، الذي لا يشوبه كدر ولا منغص كما هو حال الدنيا ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾؟ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أنساوي بين المطيع والعاصي، والمحسن والمجرم؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ تعجب منهم حيث إنهم يسوّون المطيع بالعاصي، والمؤمن بالكافر، فإن مثل هذا لا يصدر عن عاقل ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أي هل عندكم كتاب منزل من السماء تقرءون وتدرسون فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة مفعول لتدرسون أي تدرسون في هذا الكتاب أن لكم ما تشتهون وتطلبون؟ وهذا توبيخ آخر للمشركين فيما كانوا يزعمونه من الباطل حيث قالوا: إن كان ثمة بعث وجزاء، فسنعطى خيرًا من المؤمنين كما أعطينا في الدنيا. قال الطبري: وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة[4] ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي هل لكم عهود ومواثيق مؤكدة من جهتنا ثابتة إلى يوم القيامة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ هذا جوابه أي إن لكم الذي تريدونه وتحكمون به؟ قال ابن كثير: المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون[5] ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المكذبين أيهم كفيل وضامن بهذا الذي يزعمون؟ وفيه نوع من السخرية والتهكم بهم، حيث يحكمون بأمور خارجة عن العقول،

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٩١).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٩١).
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤٦).
(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٢٣).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٧).

مزاعمهم الممعنة في الكذب والسفاهة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكفلون لهم بذلك؟ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، قال في التسهيل: وهذا تعجيز للكفار، والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم وأحضروهم حتى نرى حالهم[1]. ولما أبطل مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك ذلك اليوم العصيب، الذي يكشف فيه عن أمر فظيع شديد في غاية الهول والشدة، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة[2] قال القرطبي: والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة[3] كقول الزاجر:

قد كشفت عن ساقها فشدُّوا ... وجدَّت الحرب بكم فجدُّوا

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ويدعى الكفار إلى السجود إهانة لهم فلا يستطيعون، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، وفي الحديث «يسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[4] ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء الجسم معافون فيأبون، قال الإمام الفخر: لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل[5] ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه! وهذا منتهى الوعيد ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون، قال الحسن: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه[6] قال الرازي: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنباً جدد الله لهم نعمة، وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم[7] ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أمهلهم وأطيل في أعمارهم ليزدادوا إثماً ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي إن انتقامي من الكافرين قوي شديد، وفي الحديث «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/١٤١.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/٢٤٩.
(٣) مختصر ابن كثير ٣/٥٣٨.
(٤) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم.
(٥) التفسير الكبير ٣٠/٩٦.
(٦) تفسير القرطبي ١٨/٢٥١.
(٧) التفسير الكبير ٣٠/٩٦.

[illegible]: ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١] وإنما سمّى سبحانه إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود منه عقوبتهم وتعذيبهم به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال؟ والغرض توبيخهم في عدم الإيمان فإن الرسول لا يطلب منهم شيئًا من الأجر، قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجرًا فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم عن الإيمان؟[٢] ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب، فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي فاصبر يا محمد على أذاهم، وامضِ لما أمرت به من تبليغ رسالة ربك ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أي ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى عليه السلام، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا فتركهم وركب البحر ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غمًّا وغيظًا بقوله ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي لولا أن تداركته رحمة الله ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو مُلام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذمومًا ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فاصطفاه ربه واختاره لنفسه فجعله من المقربين، قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه[٣] ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم: نظر إليَّ نظرًا كاد يصرعني، قال ابن كثير: وفي الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ويؤيده حديث «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»[٤] ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك: إن محمدًا لمجنون، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون؟ ختم تعالى السورة ببيان عظمة القرآن، كما بدأها ببيان عظمة الرسول، فتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١- الجناس الناقص بين لفظي ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ و﴿مَمْنُونٍ﴾ لاختلاف الحرف الثاني.

٢- الوعيد والتهديد ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ وحذف المفعول للتهويل

(١) أخرجه البخاري. (٢) تفسير الخازن (٤/ ١٤٠).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٦).
(٤) الحديث رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

٣- صيغ المبالغة في ﴿حلاف﴾ ﴿هماز مشاء﴾ ﴿مناع﴾ وكذلك في ﴿أثيم﴾ ﴿زنيم﴾.

٤- الاستعارة اللطيفة ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ استعار الخرطوم للأنف لأن أصل الخرطوم للفيل، واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع لأن الغرض الاستهانة به والاستخفاف.

٥- الطباق بين ﴿المسلمين كالمجرمين﴾ وبين ﴿ضل﴾ و﴿بالمهتدين﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٦- جناس الاشتقاق ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾.

٧- التوبيخ والتقريع ﴿ما لكم كيف تحكمون ۝ أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ والجمل التي بعدها.

٨- التشبيه المقلوب بجعل المشبه به مشبهاً وبالعكس ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ لأن الأصل أفنجعل المجرمين كالمسلمين في الأجر والمثوبة؟ فقلب التشبيه ليكون أبلغ وأروع.

٩- الكناية الرائعة اللطيفة ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ كناية عن شدة الهول وتعاقب المصائب يوم القيامة.

١٠- السجع المرصع المحبوك، كأنه الدر، مثل الآيات الكريمة ﴿ن والقلم وما يسطرون ۝ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ۝ وإن لك لأجراً غير ممنون ...﴾ إلخ وتلك روعة القرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

قال الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ إلى قوله ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝﴾ من آية (١) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة.

اللغَة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة سميت حاقة لأنها حقٌّ مقطوع بوقوعها ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت والبرد ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع من الحسم وهو القطع قال الشاعر:

فدارت عليهم فكانت حسوماً[1]

﴿رَابِيَةً﴾ زائدة في الشدة والعذاب ﴿وَاهِيَةٌ﴾ ساقطة القوة، ضعيفة متراخية من قولهم: وهى البناء إذا ضعف وتداعى للسقوط ﴿هَاؤُمُ﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمر ويقطف ﴿غِسْلِينٍ﴾ صديد أهل النار، قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فهو ﴿غِسْلِينٍ﴾ فعلين من الغسل[2] ﴿الْوَتِينَ﴾ عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه ويسمى الأبهر وفي الحديث «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»[3] ﴿حَسْرَةٌ﴾ ندامة عظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

---

(1) البحر المحيط (٨/٣١٩).
(2) التفسير الكبير (٣٠/١٠٦).
(3) انظر المرجع السابق (٣٠/١١٩).

المقتضب. ﴿الحاقة﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ ثابت، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال ﴿ما الحاقة﴾ ؟ التكرار لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾؟ وما أعلمك يا محمد ما هي القيامة؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تر ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال[1] ، وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمر أتوا بصيغة الاستفهام يقولون: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع.. ثم بعد أن عظَّم أمرها وفخَّم شأنها، ذكر من كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لكفار مكة وتخويفًا لهم، فقال ﴿كذبت ثمود وعادٌ بالقارعة﴾ أي كذب قوم صالح، وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ أي فأما ثمود - قوم صالح - فأهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة، قال قتادة: هي الصيحة التي خرجت عن حدِّ كل صيحة[2] ﴿وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي وأما عاد - قوم هود - فأهلكوا بالريح العاصفة ذات الصوت الشديد وهي الدَّبور وفي الحديث «نُصرت بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»[3] ﴿عاتية﴾ أي متجاوزة الحدَّ في الهبوب والبرودة، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها[4] ، قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطُّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية﴾[5] ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا﴾ أي سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ أي فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، قال المفسرون: كانت الريح تقطع رءوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ ؟ أي فهل ترى أحدًا من بقاياهم؟ أو تجد لهم أثرًا؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى ﴿فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله﴾ أي وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من

---

(١) قال أبو السعود: والتكرار تأكيد لهولها وفظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه. اهـ.

(٢) وروي عن مجاهد أن معنى الآية: أهلكوا بطغيانهم، والأول أرجح لمقابلته بعذاب عاد. أبو السعود ٥/ ١٨٨.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) هذا قول علي وهو مروي عن الكلبي وابن عباس.

(٥) تفسير الطبري (٢٩/ ٣٦) وقد رجحه القرطبي والصحيح أنه موقوف على ابن عباس.

الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم - قرى قوم لوط - حيث جعل الله عاليها سافلها قال الصاوي: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط التي اقتلعها جبريل ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى[1] ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالفعلة الخاطئة المنكرة[2]، وهي الكفر والعصيان ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوط رسولهم لوطًا ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ أي فأخذهم الله أخذة زائدة في الشدة، على عقوبات من سبقهم، كما أن جرائمهم زادت في القبح والشناعة على سائر الكفار ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي لما تجاوز الماء حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل تلك الحادثة عظة للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذب رسله ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ[3]، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال قتادة: الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل[4]. ولما ذكر قصص المكذبين، أتبعه بذكر أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي فإذا نفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة لخراب العالم، قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرب بعضها ببعض حتى تندق وتتفتت وتصير كثيبًا مهيلًا ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي وتصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي والملائكة على أطرافها وجوانبها قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة، فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعًا مما داخلهم من هول ذلك اليوم، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رؤوسهم، وقال ابن عباس: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله[5] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحد، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العليم بالظواهر والسرائر والضمائر. ثم بيّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فقال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أعطي كتاب

---

(١) حاشية الصاوي (٤/ ٢٤٠).

(٢) وقال مجاهد ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب والخطايا التي كانوا يعملونها.

(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦٣). (٤) البحر المحيط (٨/ ٣٢٢).

(٥) القول الأول قول ابن زيد وهو الأظهر، ويؤيده حديث حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى فكانوا ثمانية، وانظر تفسير الطبري (٢٩/ ٣٨).

أعماله بيمينه لأنه من السعداء ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي يقول ابتهاجاً وسروراً: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَابِيَهْ﴾ هاء السكت وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ قال الرازي: ويدل قوله ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله[1] ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل[2] وقال الضحاك: كل ظنٍّ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك[3]. قال تعالى مبيناً جزاءه ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي في جنة رفيعة القدر، وقصور عالية شاهقة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي ثمارها قريبة، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع. قال في التسهيل: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، وروي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع[4] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي يقال لهم تفضلاً وإنعاماً: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، بعيداً عن كل أذى، سالماً من كل مكروه ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا.. ولما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء، فقال ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتابه بشماله وهذه علامة الشقاوة والخسران ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ أي فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي قال المفسرون: وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي يا ليت الموتة الأولى التي متُّها في الدنيا، كانت القاطعة لحياتي، فلم أُبعث بعدها ولم أُعذب. قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن شيء عنده أكره من الموت[5]، لأنه رأى تلك الحالة أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي زال عني ملكي وسلطاني، ونصيبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال، قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده إلى عنقه، فذلك قوله تعالى ﴿فَغُلُّوهُ﴾[6] ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة، ليصلى

---

(1) التفسير الكبير (٣٠/ ١١٠).
(2) انظر المرجع السابق والصفحة.
(3) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٠).
(4) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٣).
(5) تفسير الطبري (٢٩/ ٣٩).
(6) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٢).

قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدّقون بأن القرآن من الله، والمعنى: لا يؤمنون به أصلاً، والعرب تقول: قلَّما يأتينا، يريدون لا يأتينا [1] ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ أي وليس هو بقول كاهنٍ يدّعي معرفة الغيب، لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قلَّما تتذكرون وتتعظون ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي هو تنزيلٌ من ربّ العزة جلّ وعلا كقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ والغرضُ من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة، ثم أكَّد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فقال ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ أي لو اختلق محمد بعض الأقوال، ونسب إلينا ما لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا [2] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أي ثم لقطعنا نياط قلبه حتى يموت. قال القرطبي: والوتين عرقٌ يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه [3] والغرضُ أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئاً ولو قليلاً، فإن نسبة الأقوال بالأقاويل تستصغر وتستحقر ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي فما يقدر أحدٌ منكم أن يحجز بيننا وبينه: لو أردنا عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى إنَّ محمداً لا يتكلف الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلف لعاقبناه، ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه [4] ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين المتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ أي ونحن نعلم أن منكم من يكذّب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين، وفي الآية وعيدٌ لمن كذّب بالقرآن [5] ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وإنه لحسرة عظيمة في الآخرة، لأنهم يتندمون إذ رأوا ثواب من آمن به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي وإنه لحقٌّ يقينيٌّ لا يحوم حوله ريب، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي نزّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة التي من أعظمها نعمة القرآن.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الاسم للتهويل والتعظيم ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ إلخ.

٢ - التفصيل بعد الإجمال زيادة في البيان ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثم فصله بقوله ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ﴾ الآية وفيه لفٌّ ونشر مرتّب.

٣ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤ - الاستعارة اللطيفة الرائعة ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ الطغيان من صفات الإنسان، فشبه ارتفاع الماء وكثرته بطغيان الإنسان على الإنسان بطريق الاستعارة.

---

(١) التفسير الكبير (١١٧/٣٠).
(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد.
(٣) تفسير القرطبي (٢٧٦/١٨).
(٤) تفسير الخازن (١٤٨/٤).
(٥) الظاهر أن الضمير يعود إلى القرآن وقال الطبري: وإن التكذيب لحسرة وندامة على الكافرين وهو قول مقاتل.

٥- جناس الاشتقاق مثل ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ومثل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

٦- المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ الخ وهي من المحسنات البديعية.

٧- طباق السلب ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٨- الكناية ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لفظ اليمين كناية عن القوة والقدرة.

٩- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ومثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ويسمى في علم البديع السجع المرصَّع والله أعلم.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أُسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت في نفسي: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الخ السورة، قال: فوقع في قلبي الإسلام كل موقع، حتى هداني الله تعالى له.

تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة

***

بين يدي السورة

* سورة المعارج من السور المكية، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة، وراحة ونصب، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم البعث والنشور، واستهزائهم بدعوة الرسول ﷺ.

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ، واستهزائهم بالإنذار والعذاب الذي خوفوا به، وذكرت مثلاً لطغيانهم بعد طلب بعض صناديدهم وهو «النضر بن الحارث» حين دعا أن ينزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف المنفوش ألواناً غريبة ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾.

* ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان، فهو يجزع عند الشدة، ويبطر عند النعمة فيمنع حق الفقير والمسكين ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

* ثم تحدثت عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات، وفضائل الأخلاق، وبينت ما أعدَّ الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ..﴾ الآيات.

* ثم تناولت الحديث عن الكفرة المستهزئين بالرسول ﷺ، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

* وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيراً منهم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ..﴾ إلى قوله ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

□□□

الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي إن الإنسان جُبل على الضجر، لا يصبر على بلاء، ولا يشكر على نعماء، قال المفسرون: الهلع: شدة الحرص وقلة الصبر، يقال: جاع فهلع[1]، والمراد بالإنسان: العموم بدليل الاستثناء منه، والاستثناء معيار العموم، ثم فسّره تعالى بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ أي إذا نزل به مكروه من فقر، أو مرض، أو خوف، كان مبالغًا في الجزع مكثرًا منه، واستولى عليه اليأس والقنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي وإذا أصابه خيرٌ من غنى، وصحة وسعة رزق كان مبالغًا في المنع والإمساك، فهو إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أغناه الله لم ينفق، قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره، ويهرب مما يكرهه، ثم تعبّده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره[2] ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناهم من أفراد البشر الموصوفين بالهلع؛ لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أداء الصلاة، لا يشغلهم عنها شاغل؛ لأن نفوسهم صفت من أكدار الحياة، بتعرضهم لنفحات الله ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ معيَّن فرضه الله عليهم وهو الزكاة ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي للفقير الذي يسأل ويتكفف الناس، والمحروم الذي يتعفف عن السؤال، فيظن أنه غنيٌّ فيحرم كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، ويصدِّقون بمجيئه تصديقًا جازمًا لا يشوبه شك أو ارتياب فيستعدون له بالأعمال الصالحة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون على أنفسهم من عذاب الله، يرجون الثواب ويخافون العقاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي لأن عذاب الله لا ينبغي أن يأمنه إنسان، إلاَّ من أمّنه الرحمن والأمور بخواتيمها. إنَّ هؤلاء المصدقين المشفقين قلَّما تزدهيهم الدنيا، أو يبطرهم نعيمها، أو يجزعون على ما فاتهم من حطامها، فسواءٌ عليهم أخسروا حظوظ الدنيا أم غنموا، إذ إن لديهم من الفكر في جلال ربهم، وذكر صنائعهم -ما يشغلهم عن الجزع إذا مسّهم الشر، ويربأ بهم عن المنع إذا مسهم الخير، ثم ذكر تعالى الفريق الخامس من الموفقين للخيرات وفعل الطاعات فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ أي أعفاء لا يرتكبون المحارم، ولا يتلوثون بالمآثم، قد صانوا أنفسهم عن الزنى والفواحش ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي يقتصرون على ما أحلَّ الله لهم من الزوجات المنكوحات، والرقيقات المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين؛ لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات -حلال يؤجر عليه الإنسان، لما فيه من تكثير النسل والذرية ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فقد تعدّى حدود الله وعرّض نفسه لعذاب الله، قال الطبري: من التمس لفرجه منكحًا سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم إلى ما حرّمه عليهم،

---

(١) التفسير الكبير (١٢٨/٣٠).   (٢) تفسير الطبري (١٥١/٤).

إنكاري مع التقريع والتوبيخ أي أيطمع كل واحد من هؤلاء الكفار أن يدخله الله جنات النعيم، وقد كذب خاتم المرسلين؟ ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر، أي ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لا يدخلونها أبدًا، ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي خلقناهم من الأشياء المستقذرة، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة فمن أين يتشرفون بدعوى جنات النعيم قبل المؤمنين، وليس لهم فضل يستوجبون به دخول الجنة وإنما يستوجب دخول الجنة من أطاع الله قال القرطبي: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القذر فلا يليق بهم هذا التكبر[١] ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي قادرون على إهلاكهم، واستبدالهم بقوم أفضل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي اتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم، واشتغل أنت بما أُمرت به! وهو أمرٌ على جهة الوعيد والتهديد للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي لا ينفعهم فيه توبة ولا ندم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ أي يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها، شبّه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسابقهم في الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم، وفي هذا التشبيه تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، إذ عبدوا ما لا يستحق العبادة، وتركوا عبادة الواحد الأحد ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي خاضعة منكسرة أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها خجلًا من الله ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان، وعلى وجوههم آثار الذلة والانكسار ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي هذا هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم؟!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿بَعِيدًا ... قَرِيبًا﴾ وبين ﴿الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

٢- جناس الاشتقاق ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ وكذلك ﴿تَعْرُجُ ... الْمَعَارِجِ﴾.

٣- ذكر الخاص بعد العام تنبيهًا لفضله وتشريفًا له ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ الروح هو جبريل.

٤- التشبيه المرسل المجمل ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ لحذف وجه الشبه.

٥- ذكر العام بعد الخاص ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ... وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جاء بالعموم بعد الخصوص لبيان هول الموقف.

---

[١] تفسير القرطبي (١٨/ ٢٩٤)

٦- المقابلة اللطيفة ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ قابله بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

٧- الاستفهام الإنكاري للتقريع والتوبيخ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؟

٨- الكناية اللطيفة الرائعة ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كناية عن المني القذر، مع النزاهة التامة في التعبير، وحسن الإيقاظ والتذكير، بألطف عبارة وأبلغ إشارة.

٩- التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ وفي تشبيههم بذلك تهكم بهم، وتعريض بسخافة عقولهم، وتسجيل عليهم بالجهل المشين بالإسراع في عبادة غير من يستحق العبادة.

١٠- السجع المرصّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلخ.

تنبيه: نبه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا..﴾ الآيات إلى طبائع البشر، فبيّن أن الإنسان ينصرف إلى مشتهاه اتباعًا لهواه، وأنه مفرط في الهلع والجزع، فإذا مسه خير شحت به نفسه، وإن نزل به شر اشتد له قلقه، ثم استثنى من ذلك الخلق الذميم أصنافًا من البشر، وهم الذين جمعوا مع الإيمان صالح الأعمال.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

بين يدي السورة

* سورة نوح مكية، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة، وتثبيت قواعد الإيمان، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه، ولهذا سميت «سورة نوح»، وفي السورة بيانٌ سنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله، وبيان لعاقبة المرسلين، وعاقبة المجرمين، في شتى العصور والأزمان.

* ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* ثم ذكرت السورة جهاد نوح، وصبره، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة، فقد دعا قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم ينفعهم ذلك إلا إمعاناً في الضلال والعصيان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

* ثم تابعت السورة تذكرهم بإنعام الله وأفضاله على لسان نوح عليه السلام، ليجدّوا في طاعة الله، ويروا آثار قدرته ووحدانيته في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ !!

* ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ..﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله، فما لانت قلوبهم، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۞ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ... إلى ... وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة.

البسه ﴿وَاسْتَغْشَوْا﴾ غطوا بشاء أي غطاء، والغشاء الغطاء ﴿مِدْرَارًا﴾ غزيرًا متتابعًا ﴿أَطْوَارًا﴾ أحوالاً مختلفة طورًا بعد طور قال الشاعر:

. . . . والمرء يخلق طورًا بعد أطوار (١)

﴿فِجَاجًا﴾ واسعات جمع فج وهو الطريق الواسعة ﴿كُبَّارًا﴾ كبيرًا بالغ النهاية في الكبر ﴿دَيَّارًا﴾ أحدًا يدور أو يتحرك على ظهر الأرض ﴿تَبَارًا﴾ هلاكًا ودمارًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١) قال يا قوم إني لكم نذير مبين (٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤) قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦) وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧) ثم إني دعوتهم جهارا (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا (٩) فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا (١٠) يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢) ما لكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤) ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦) والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨) والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠) قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبارا (٢٢) وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤) مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥) وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٢٧) رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨)﴾.

التفسير: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: بعثنا شيخ الأنبياء نوحًا عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب، قال الألوسي: والمشهور أنه عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة وهناك أرسل (٢) ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بأن خوِّف قومك وحذرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فدعاهم إلى الله وقال لهم: إني لكم منذر، موضح لحقيقة الأمر، أُنذركم وأخوفكم عذاب الله، وأمري واضح ودعوتي ظاهرة، قال المفسرون: نوح عليه السلام أول نبي أُرسل، ويقال له: شيخ المرسلين؛ لأنه أطولهم عمرًا فقد مكث في قومه كما قص القرآن الكريم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يدعوهم إلى الله، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل، وقد أفرد القرآن قصته في هذه السورة الكريمة التي تسمى «سورة نوح» من بدء الدعوة إلى

(١) البحر المحيط ٨/٣٣٧. (٢) روح المعاني ٢٩/٦٩.

نبيِّنها، حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولي العزم وهم خمسة «نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد» صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، وأكثروا من البغي والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحًا عليه السلام وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه الله علينا في القرآن ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقال لهم: اعبدوا الله وحده، واتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله، وترك عبادة الأوثان والأصنام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي إنكم إن فعلتم ما أمرتكم به، يمحو الله عنكم ذنوبكم التي اقترفتموها، وإنما قال ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم التي حصلت قبل الإسلام، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الذنوب لا ما بعده ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ويمد في أعماركم إن آمنتم بربكم، إلى وقت مقدر ومقرر في علم الله تعالى، مع التمتع بالحياة السعيدة، والعيش الرغيد قال المفسرون: المراد بتأخير الأجل هو التأخير بلا عذاب، أي يمهلهم في الدنيا بدون عذاب إلى انتهاء آجالهم، وأما العمر فهو محدود لا يتقدم ولا يتأخر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ولهذا قال بعده ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أي إن عمر الإنسان عند الله محدود، لا يزيد ولا ينقص، وإنما أضيف الأجل إلى الله سبحانه لأنه هو الذي كتبه وأثبته[2] ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كنتم تعلمون ذلك لسارعتم إلى الإيمان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي قال نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة، في الليل والنهار، من غير فتور ولا توانٍ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هربًا، وشرودًا عن الحق، وإعراضًا عنه.. ثم وصف نفورهم وصور إعراضهم أبلغ تصوير فقال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته، ليكون سببًا في مغفرة ذنوبهم قال في التسهيل: ذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان، ليظهر قبح إعراضهم عنه، فإنهم أعرضوا عن سعادتهم[3] ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي غطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم، لئلا يسمعوا كلامي أو يروني قال في البحر: والظاهر أن ذلك حقيقة، سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه، وتغطوا بثيابهم حتى لا ينظروا إليه، كراهة وبغضًا من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عمّا دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سد سمعه، ومنع بصره[4] ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكبارًا

---

(١) هذا ما وجهه أبو حيان في البحر، واختار الطبري أن «من» ليست للتبعيض وإنما هي بمعنى «عن» أي يغفر لكم من ذنوبكم بمعنى يصفح لكم عن جميع الذنوب، والأول أرجح.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٤٩). (٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٤٩)

(٤) البحر المحيط (٨/ ٣٣٨)

عتواً، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وعلوهم في الضلال ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي دعوتهم علناً على رؤوس الأشهاد، مجاهراً بدعوتي لهم دون خوف أو تحفظ ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي أخبرتهم سراً وعلانية، خفية وجهراً، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك. قال المفسرون: والعطف بثُمَّ يشعر بأن الإعلان والإسرار الأخيرين، كانا طريقة ثالثة سلكها نوح في الدعوة، غير طريقة السر المحضة، وغير طريقة الجهر المحضة، فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة مرة حيث يصلح الإعلان، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الإسرار. ثم وضح ما وعظهم به سراً وعلانية فقال ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي آمنوا بالله وتوبوا عن الكفر والمعاصي، فإن ربكم تواب رحيم، يغفر الذنب ويقبل التوب ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي ينزل المطر عليكم غزيراً متتابعاً، شديد الانسكاب ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي يكثر أموالكم وأولادكم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي ويجعل لكم الحدائق الفسيحة ذات الأشجار النضرة المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها.. أطمعهم نوح عليه السلام بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض، إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وأتاهم من طريق مناسب لتحريك العواطف، وليبين أن ما هم فيه من انحباس الأمطار، وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع، ثم عاد فوبخهم مرةً، ودعاهم نحو الإيمان بأسلوب آخر من أساليب البيان فقال ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي ما لكم أيها القوم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، ولا ترجون له جانباً؟ قال ابن عباس: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته[1] ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي وقد خلقكم في أطوار مختلفة، وأدوار متباينة، طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، إلى سائر الأحوال العجيبة، فتبارك الله أحسن الخالقين.. ثم نبههم إلى دلائل القدرة والوحدانية، مبثوثة في هذا الكون الفسيح فقال ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار، وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء، متطابقة بعضها فوق بعض، وهي في غاية الإبداع والإتقان؟! ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي وجعل القمر في السماء الدنيا، منوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل قال الإمام الفخر: القمر في السماء الدنيا وليس في السموات بأسرها، وهذا كما يقال: السلطان في العراق ليس المراد أن ذاته حاصلة في كل أنحائها، بل إن ذاته في حيز من جملة أحياز العراق، فكذا هنا[2] وقال في البحر: والقمر في السماء الدنيا، وصح كون السموات ظرفاً للقمر، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، تقول: زيد في المدينة وهو في جزء منها[3]

---

(١) تفسير الطبري (٢٩/٥٩) (٢) التفسير الكبير للرازي (٣٠/١٤٠)

(٣) البحر المحيط (٨/٣٤٠) أقول: ليس ثمة نص صريح على أن القمر داخل السموات إلا عند الناس وقد عرفت

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي وجعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم، ولمَّا كان نور الشمس أشد، وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر، عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، وبهذا ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها، ونور القمر عرضي مكتسب من نورها، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بعد أن ذكر دليل الآفاق، ذكر هنا دليل الأنفس، وذلك لأن في ذكر هذه الأمور، دلالة واضحة على عظمة الله، وقدرته وبديع مصنوعاته والمعنى خلقكم وأنشأكم من الأرض كما يخرج النبات، ونشأكم من تراب الأرض كما ينبت النبات منها قال المفسرون، لما كان إخراجهم وإنشاؤهم إنما يتم بتناولهم عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستمدة من الأرض، كانوا من هذه الجهة مشابهين للنباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض، فلذا سمي خلقهم وإنشاؤهم إنباتًا، أو يكون ذلك إشارة إلى خلق آدم حيث خلق من تراب الأرض، ثم جاءت منه ذريته، فصح نسبتهم إلى أنهم أنبتوا من الأرض[1] ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها، ثم يخرجكم منها يوم البعث والحشر للحساب والجزاء، وأكده بالمصدر ﴿إِخْرَاجًا﴾ لبيان أن ذلك واقع لا محالة، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلها فسيحة ممتدة ممهدة لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه قال في التسهيل: شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها، وأخذ بعضهم من الآية أنها غير كروية، وفي ذلك نظر[2] وقال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا، ثم إن اعتقاد الكرية أو عدمها ليس بلازم في الشريعة، لكن كريتها كالأمر اليقيني، ومعنى جعلها بساطًا أي تتقلبون عليها كالبساط[3] ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي لتسلكوا في الأرض طرقًا واسعة في أسفاركم، وتتنقلوا في أرجائها. ولما أصروا على العصيان، وقابلوه بأقبح الأقوال والأفعال، حكى عنهم ما قصه القرآن ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي إنهم بالغوا في

بأوليه، وإذا كان القمر أقرب الكواكب إلى الأرض، وثبت بالنص القاطع أن الله تعالى جعل الكواكب زينة للسماء، وجعلها في السماء الدنيا ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فإنه لا يستبعد أن يصل البشر إلى القمر، لأنه دون السماء الأولى، كما وصلت إليه المركبة الفضائية في زماننا، وكما أثبت العلم الحديث إمكان ذلك، حتى ثمة تطور دائم في غزو الكواكب والفضاء، وأما الوصول إلى السماء واختراقها فذلك أمر مستحيل ودونه حرس الملائكة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

(١) انظر ما كتبه العلامة أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٠) وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص (١٣٤).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٦).

(٣) روح المعاني (٢٩/ ٧٦) وانظر ما كتبناه حول كروية الأرض في سورة الغاشية من هذا التفسير.

بين يدي السورة

* سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية "الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء" ومحور السورة يدور حول الجن، وما يتعلق بهم من أمور خاصة، بدءاً من استماعهم للقرآن، إلى دخولهم في الإيمان، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم، كاستراقهم للسمع، ورميهم بالشهب المحرقة، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان، حتى آمنوا به فور استماعه ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ...﴾ الآيات.

* ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا، وإفرادهم له بالعبادة، وتسفيههم لمن جعل له ولداً ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع، وعن حراسة السماء بالحرس من الملائكة، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ...﴾ الآيات.

* ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين: مؤمنين، وكافرين ومآل كل من الفريقين ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

* ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.

* ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله، ويفرده جل وعلا بإخلاص العمل، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾

* وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب، وإحاطته بعلم جميع ما في الكائنات ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ...﴾ الآيات إلى آخر السورة الكريمة.

قال الله تعالى: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن...﴾ إلى قوله: ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾ من آية (١) إلى آية (٢٨) نهاية السورة الكريمة.

اللغة: ﴿رشدا﴾ الحق والصواب ﴿جد﴾ الجد في اللغة: العظمة والجلال والسلطان، يقال: جد فلان في عيني أي عظم وجل، والجد: الحظ، وأبو الأب ﴿حرسا﴾ جمع حارس أو اسم جمع كخدم يقال: حرس وحراس، والحارس: الحافظ للشيء يرعاه ويرقبه ﴿قددا﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة قال الشاعر: "إذ هم طرائق في أهوائهم قدد"[1] ﴿غدقا﴾ كثيرا واسعا ﴿القاسطون﴾ الجائرون عن طريق الحق، يقال: قسط الرجل إذا جار ﴿رهقا﴾ شيئا يغمر الإنسان ويغالبه فلا يطيقه يقال: فلان في رهق من أمره أي في مشقة ﴿يسلكه﴾ يدخله ﴿لبدا﴾ متراكمين بعضهم فوق بعض يقال: تلبد الشيء أي تراكب بعضه فوق بعض ﴿ملتحدا﴾ ملجأ وحرزا يحتمي به الإنسان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ۝ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ۝ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ۝ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ۝ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ۝ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ۝ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ۝ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ۝ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ۝ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ۝ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ۝ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ۝ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ۝ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ۝ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ۝ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ۝ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ۝ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ۝ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ۝ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ۝ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا ۝ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ۝ إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ۝ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ۝ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ۝ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ۝ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ۝ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾

التفسير: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن﴾ أي قل يا محمد لقومك: إن الله أوحى إلي أن جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا ﴿فقالوا إنا سمعنا قرآنا﴾

---

(١) البحر المحيط (٨/٣٤٤).

عَجَبًا﴾ أي فقالوا لقومهم حين رجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، مؤثرًا في حسن نظمه، وبلاغة أسلوبه، وما حواه من بديع الحِكَم والعظات و ﴿عَجَبًا﴾ مصدر وصف به للمبالغة قال المفسرون: استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، ولم يشعر بهم ولا باستماعهم، وإنما أخبره به الرسول بواسطة الوحي[1] بدليل قوله ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويؤيده ما قصه الله على نبيه في سورة الأحقاف من خبرهم ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ والغرض من الإخبار عن استماع الجن، توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطئوا عن الإيمان، إذ كانت الجن خيرًا منهم وأسرع إلى الإيمان، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين، بخلاف العرب الذين نزل بلسانهم، فإنهم كذبوا واستهزءوا وهم يعلمون أنه كلام معجز، وأن محمدًا أمي لا يقرأ ولا يكتب، وشتان ما بين موقف الإنس والجن!! ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي يهدي هذا القرآن إلى الحق والرشاد والصواب فصدقنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك، ولن نجعل لله شريكًا بعد اليوم من خلقه قال الخازن: وفي الآية دليل على أن أولئك النفر كانوا مشركين[2] ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالت عظمة ربنا وجلاله ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي ليس له زوجة ولا ولد، لأن الزوجة تتخذ للحاجة، والولد للاستئناس، والله تعالى منزه عن النقائص ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي وأن الأحمق الجاهل منا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وقدسيته ويقول قولاً شططًا بعيدًا عن الحق وحدِّ الاعتدال قال مجاهد: السفيه هو إبليس دعاهم إلى عبادة غير الله[3] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي كنا نظن أن أحدًا لن يكذب على الله تعالى لا من الإنس، ولا من الجن في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك[4] قال الطبري: وإنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمت أن أحدًا يجترئ على الكذب على الله لما سمعت القرآن، لأنهم قبل أن يسمعوه وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذبًا في ذلك فسموه سفيهًا[5] ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي كان خلائق من الإنس يستجيرون برجال من الجن ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بهم إثمًا وطغيانًا، وعتوًّا وضلالاً قال أبو السعود: كان الرجل إذا أمسى في وادٍ قفر وخاف على نفسه

---

(١) هذا قول ابن عباس وجماعة عليه، وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم» الحديث وروي عن ابن مسعود خلافه.

(٢) تفسير الخازن ٤/١٥٨. (٣) تفسير القرطبي ١٩/٩.

(٤) هذا خلاصة رأي ابن كثير نقلناه مع شيء من التصرف.

(٥) تفسير الطبري ٢٩/٦٨.

قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه - يريد الجن وكبيرهم - فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدنا الإنس والجن، فزاد الرجالُ الجنَّ تكبراً وعتواً، فذلك قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[١] ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي وأن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن، أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم[٢] ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها، فوجدناها قد ملئت بالملائكة الكثيرين الذين يحرسونها، وبالشهب المحرقة التي تقذف من يحاول الاقتراب منها ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي كنا قبل بعثة محمد نطرق السماء لنستمع إلى أخبارها، ثم نلقيها إلى الكهان ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي فمن يحاول الآن استراق السمع، يجد شهاباً ينتظره بالمرصاد يحرقه ويهلكه ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نعلم نحن يا معشر الجن ما الله فاعل بسكان الأرض، ولا نعلم هل امتلاء السماء بالحرس والشهب لعذاب يريد الله أن ينزله بأهل الأرض؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي أم لخير يريده الله بهم، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق؟ وهذا من أدب الجن حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه فقالوا ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، وهذا هو الذي حملهم على تطلب السبب، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فرأوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمنوا به وحرصوا على سماع القرآن ثم أسلموا[٣] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منا قوم صالحون أبرار، عاملون بما يرضي الله، ومنا قوم ليسوا صالحين، قال في التسهيل: ومعنى ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي المقتصدون ليس صلاحهم كاملاً، أو الذين ليس لهم صلاح[٤] ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فرقاً شتى، ومذاهب مختلفة، فمنا الصالح ومنا الطالح، ومنا التقي والشقي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي علمنا وأيقنا أن الله قادر علينا، وأنا في قبضته وسلطانه أينما كنا، لن نعجزه بهرب، ولن نفلت من عقابه إذا أراد بنا سوءاً، قال القرطبي: أي علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله، أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره[٥]. ثم عادوا إلى شكر الله تعالى على نعمة الإيمان واهتدائهم بسماع آيات القرآن فقالوا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ أي لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٠٠).

(٢) هذا هو الظاهر من سياق الآيات أنه من كلام الجن لقومهم وهو اختيار الطبري، واختار بعض المفسرين أنه من الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله وأن المعنى: وأن الجن كانوا يظنون كما ظننتم يا معشر قريش، فلما سمعوا القرآن اهتدوا، فهلا اهتديتم؟

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٥٧).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٣).

(٥) تفسير القرطبي (١٩/ ١٠).

أنزله، وصدقنا محمدًا ﷺ في رسالته ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي فمن يؤمن بالله تعالى فلا يخشى نقصانًا من حسناته ولا ظلمًا بزيادة في سيئاته قال ابن عباس: لا يخاف أن ينقص من حسناته، ولا أن يزاد في سيئاته، لأن البخس النقصان، والرهق العدوان[1] ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي وأنا بعد سماعنا القرآن منا من أسلم، وصدق برسالة محمد ﷺ، ومنا من جار عن الحق وكفر بالله المعبود. يقال: قسط الرجل إذا جار، وأقسط إذا عدل، واسم الفاعل من الأول قاسط، ومن الثاني مقسط ومنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وأما القاسط فهو الظالم الجائر ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول عليه السلام، فأولئك الذين قصدوا الرشد، واهتدوا إلى طريق السعادة والنجاة ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان، فسيكونون وقودًا لجهنم، توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.. وإلى هنا انتهى كلام الجن[2]، مما يدل على قوة إيمانهم، وصدقهم وإخلاصهم، ثم قال تعالى مخبرًا عن أهل مكة ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي لو أن هؤلاء الكفار، واستقاموا على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي لوسعنا لهم في الرزق، ولبسطنا عليهم في الدنيا، زيادة على ما يحصل لهم في الآخرة من النعيم الدائم، وبذلك يحوزون خير الدنيا والآخرة قال في التسهيل: الماء الغدق: الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله، والمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم فهو كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[3] ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرهم به أيشكرون أم يكفرون؟ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي ومن يعرض عن طاعة الله وعبادته، يدخله ربه عذابًا شديدًا شاقًا لا راحة فيه قال قتادة: ﴿صَعَدًا﴾ عذابًا لا راحة فيه[4] وقال عكرمة: هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حُدر إلى جهنم[5] ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا من جملة الموحى به للرسول ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ والمعنى وأوحي إلي أن المساجد وبيوت العبادة هي مختصة بالله، فلا تعبدوا فيها غيره، وأخلصوا له العبادة فيها قال مجاهد: كان اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فيها، فأمر الله عز وجل نبيه والمؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها[6] ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي وأنه لما قام محمد ﷺ يعبد ربه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كاد الجن يركب بعضهم بعضًا من شدة الازدحام، حرصًا على سماع القرآن قال ابن عباس: كادوا يركبونه حرصًا عليه لاستماع القرآن[7]، وإنما وصفه تعالى بالعبودية، وبـ

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٦).

(٢) هذا هو قول الجمهور، وأن الكلام بعده من كلام الله تعالى الذي أوحاه لرسوله لا من كلام الجن

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٤).

(٤) تفسير الطبري (٢٩/ ٧٤).

(٥) البحر المحيط (٨/ ٣٥٢).

(٦) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١).

(٧) البحر المحيط (٨/ ٣٥٣).

بين يدي السورة

* سورة المزمل مكية ، وهي تتناول جانبًا من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، في تبتله ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا سميت «سورة المزمّل» .

* ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيقًا لطيفًا ، ينمُّ عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾

* ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

* وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجرًا جميلاً إلى أن ينتقم الله منهم ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾

* ثم توعد الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفزع ما يشيب له رءوس الولدان ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ...﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون الحياة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ...﴾ إلى قوله ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

□ □ □

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى .. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من آية (١) إلى آية (٢٠) نهاية السورة .

اللغَة : ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ المتلفف بثيابه يقال : تزمَّل بثوبه أي التف به وتغطَّى ، وزمَّل غيره إذا غطاه قال امرؤ القيس :

.... كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ[1]

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٦٠) .

﴿سَبْحًا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك، وأصل السَّبح المرّ على وجه الماء، واستعير للتصرف والتقلب في شئون الحياة ﴿أَنكَالًا﴾ جمع نِكْل وهو القيد الثقيل الذي يقيد به المجرم ﴿كَثِيبًا﴾ الكثيب: الرمل المجتمع ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلًا متناثرًا متهيلًا قال أهل اللغة: المهيل الذي إذا وطئته بالقدم زلّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله تهال، وأصله مهيول كمكيل أصله مكيول ﴿وَبِيلًا﴾ عظيمًا شديدًا وخيم العاقبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها المتلفف بثيابه، وأصله المتزمل وهو الذي تلفف وتغطى، وخطابه ﷺ بهذا الوصف ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ فيه تأنيس وملاطفة له عليه السلام قال السهيلي: إن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك معاتبته سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي - حين غاضب فاطمة وقد نام ولصق بجنبه التراب -: "قم أبا تراب"، إشعارًا بأنه ملاطفٌ له، وغير عاتب عليه، والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله، لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأن الاسم المشتق من الفعل، يشترك فيه المخاطب، وكل من اتصف بتلك الصفة [1]، وسبب هذا التزمل ما روي في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما جاءه جبريل وهو في غار حراء - في ابتداء الوحي - رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فقال: «زملوني، زملوني» لقد خشيت على نفسي، وأخبرها بما جرى [2]، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي يا أيها الذي تلفف بقطيفته، واضطجع في زاوية بيته، وقد أشبه من يؤثر الراحة والسكون، ويحاول التخفي

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٣).

(٢) راجع صحيح البخاري «باب: أول نزول الوحي».

مما كُلِّف به من مهمات الأمور ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي دع التزمل والتلفف، وانهض لصلاة الليل، والقيام فيه ساعات في عبادة ربك، لتستعد للأمر الجليل، والمهمة الشاقة ألا وهي تبليغ دعوة ربك للناس، وتبصيرهم بالدين الجديد. ثم وضّح المقدار الذي ينبغي أن يصرفه في عبادة الله فقال ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي قم للصلاة والعبادة نصف الليل، أو أقل من النصف قليلاً، أو أكثر من النصف، والمراد أن تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل، ولا تزيد على الثلثين قال ابن عباس: إن قيام الليل كان فريضة على رسول الله ﷺ لقوله ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وكان بين أول هذا الوجوب ونسخه سنة[1]، وهذه هي السورة التي نسخ آخرها أولها، حيث رحم الله المؤمنين فأنزل التخفيف عليهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ .. الآية ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبت وتؤدة وتمهل، ليكون عونًا لك على فهم القرآن وتدبره، قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فيستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل، إنما هو حضور القلب عند القراءة[2]. وقد كان رسول الله ﷺ يقطّع القراءة حرفًا حرفًا - أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة - لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ[3]. ثم بعد أن أمره تعالى باطراح النوم، وقيام الليل، وتدبر القرآن وتفهمه، انتقل إلى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة، ذات التكاليف الصعبة الشاقة فقال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي سننزل عليك يا محمد كلامًا عظيمًا جليلاً، له هيبة وروعة وجلال، لأنه كلام الملك العلّام قال الإمام الفخر: والمراد من كونه ثقيلاً هو عظم قدره، وجلالة خطره، وكل شيء نفُس وعظم خطره فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني كلامًا عظيمًا، وقيل المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، ووجه النظم عندي أنه لما أمره بصلاة الليل فكأنه قال: إنما أمرتك بصلاة الليل، لأنا سنلقي عليك قولاً

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/ ١٧١) وإنما كلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل ليكون ذلك حافزًا لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية الخلقية والروحية على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والمصاعب، ويتجنبوا الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية الكريمة ما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه التربية الروحية أن ملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله.

(٢) تفسير الخازن (٤/ ١٦٥).

(٣) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير عن تلاوة الرسول عليه السلام وعن فضائل تلاوة القرآن (٣/ ٤٦٢).

عظيمًا، ولا بد وأن تصير نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، وذلك بصلاة الليل؛ فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على ذكره والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق جلال الله فيها[1] أقول: وهذا المعنى لطيف في الربط بين قيام الليل، وتلاوة القرآن، فإن الله تعالى كلّف رسوله أن يدعو الناس إلى دين جديد، فيه تكاليف شاقة على النفس، وأن يكلفهم العمل بشرائعه وأحكامه، ولا شك أن مثل هذا التكليف، يحتاج إلى مجاهدة للنفس ومصابرة، لما فيه من حملهم على ترك ما ألفوه من العقائد، ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من العادات، فأنت يا محمد معرَّضٌ لمتاعب كثيرة، وأخطار جمة في سبيل هذه الدعوة، وحمل الناس على قبولها، فكيف يمكنك أن تقوم بهذه المهمة الكبيرة، وأنت على ما أنت عليه من التزمل والتلفف، والخلود إلى الراحة والسكون، والبعد عن المشاقّ، ومجاهدة النفس بطول العبادة وكثرة التهجد، ودراسة آيات القرآن دراسة تفهم وتدبر؟ فانشط من مضجعك إذًا، واسهر معظم ليلك في مناجاة ربك، استعدادًا لتحمل مشاق الدعوة، والتبشير بهذا الدين الجديد، ويا لها من لفتة كريمة، تيقظ لها قلب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فشمّر عن ساعد الجد والعمل، وقام بين يدي ربه حتى تشققت قدماه.. ثم بيّن تعالى فضل إحياء الليل بالعبادة فقال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي إن ساعات الليل وأوقاته التي فيها التضرع والبكاء، وما ينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة، بقيام لها من مضجعه بعد هدأة من الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي هي أشد على المصلي وأثقل من صلاة النهار، لأن الليل جعل للنوم والراحة، فقيامه على النفس أشد وأثقل، ومن شأن هذه الممارسة الصعبة أن تقوي النفوس، وتشد العزائم، وتصلب الأبدان، ولا ريب أن مصاولة المجاهدين أعداء الله تحتاج إلى نفوس قوية، وأبدان صلبة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أثبت وأبين قولاً، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع به الحركات، فتكون النفس أصفى، والذهن أجمع، فإن هدوء الصوت في الليل، وسكون البشر فيه، أعون للنفس على التدبر والتفكر، والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي إن لك في النهار تصرفًا وتقلبًا، واشتغالاً طويلاً في شؤونك، فاجعل ناشئة الليل لتهجدك وعبادتك قال في التسهيل: السبح هنا عبارة عن التصرف في الأعمال والأشغال والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرغ بالليل لعبادة ربك[2]. وبعد أن قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التي هي بمثابة تمهيد وبساط للدعوة، انتقل إلى أمر الرسول ﷺ بتبليغ الدعوة، وتعليمه كيفية السير فيها عملاً، بعد أن مهدها له نظرًا فقال ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي استمر على دعوتك بذكر الله ليلاً ونهارًا، وانقطع إليه انقطاعًا تامًا في عبادتك وتوكلك عليه، ولا تعتمد في شأن من شؤونك على غيره تعالى قال ابن كثير: أي أكثر من ذكره وانقطع إليه جل وعلا، وتفرغ لعبادته إذا

---

(1) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٤٦٧). (2) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٧).

فرغت من أشغالك مع إخلاص العبادة له[1] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي هو جلَّ وعلا الخالق المتصرف بتدبير شئون الخلق، وهو المالك لمشارق الأرض ومغاربها، لا إله غيره ولا ربَّ سواه، فاعتمد عليه وفوِّض أمورك إليه ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى هؤلاء السفهاء المكذبين فيما ينسبونه إليك من قولهم: ساحر، شاعر، مجنون، فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ أي اتركهم ولا تتعرض لهم بأذى ولا شتيمة، قال المفسرون: الهجر الجميل هو الذي لا عتاب معه[2]، ولا يشوبه أذى ولا شتم، وقد كان هذا قبل أن يؤمر بالقتال كما قال سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ثم أُمر ﷺ بقتالهم وقتلهم، والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بمكة قلة مستضعفين، فأُمروا بالصبر والمحاسنة الليِّنة، حتى يعدُّوا أنفسهم بهذه التعبئة الروحية على مناجزة الأعداء، وحتى يكثر عددهم فيقفوا في وجه الطغيان، أما قبل الوصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصبر والاقتصار على الدعوة باللسان. ثم قال تعالى متوعدًا ومتهددًا صناديد قريش ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي دعني يا محمد وهؤلاء المكذبين بآياتي، أصحاب الغنى، والتنعم في الدنيا، والترف والبطر فأنا أكفيك شرهم قال الصاوي: المعنى اتركني أنتقم منهم، ولا تشفع لهم، وهذا من مزيد التعظيم له ﷺ، وجلال قدره[3] ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي وأمهلهم زمنًا يسيرًا حتى ينالوا العذاب الشديد قال المفسرون: أمهلهم الله تعالى إلى أن هاجر رسول الله ﷺ من مكة، فلما خرج منها سلَّط عليهم السنين المجدبة وهو العذاب العام، ثم قتل صناديدهم ببدر وهو العذاب الخاص[4].

ثم وصف تعالى ما أعده لهم من العذاب في الآخرة فقال ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ أي إن لهم عندنا في الآخرة قيودًا عظيمة ثقيلة يقيدون بها، ونارًا مستعرة هي نار الجحيم يحرقون بها قال في التسهيل: الأنكال جمع نِكْل وهو القيد من الحديد، وروي أنها قيود سود من نار[5] ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أي وطعامًا كريهًا غير سائغ، يلتصق بالإنسان وهو الزقوم والضريع قال ابن عباس: شوك من نار يعترض في حلوقهم لا يخرج ولا ينزل[6] ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وعذابًا وجيعًا مؤلمًا، زيادة على ما ذكر من النكال والأغلال. ثم ذكر تعالى وقت هذا العذاب فقال ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي يوم تتزلزل الأرض وتهتز بمن عليها اهتزازًا عنيفًا شديدًا هي وسائر الجبال، وذلك يوم القيامة ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي وتصبح الجبال على صلابتها تلًّا من الرمل سائلة متناثرة بعد أن كانت صلبة جامدة قال ابن كثير: أي تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد ما كانت حجارة صمَّاء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب[7] كقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ﴾

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٤).
(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٦٠).
(٣) هذا قول ابن كثير (٣/ ٥٦٤).
(٤) حاشية الصاوي (٤/ ٢٦٠).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٥٨).
(٦) البحر المحيط (٨/ ٣٦٤).
(٧) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٦٥).

ينسفها ربي نسفا ۝ فيذرها قاعا صفصفا ۝ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾ أي لا ترى بها منخفضاً ولا ارتفاعاً. ذكر تعالى أهوال القيامة التي أعدها للمشركين، ومن جملتها الجحيم، والأغلال وهي القيود وطعام الزقوم، ثم ذكر ما هو عند اضطراب الأرض وزلزالها بمن عليها، والمراد بذلك تخويف المكذبين، وتهديدهم بأنه تعالى سيعاقبهم بذلك كله، إن بقوا مستمرين في تكذيبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم أعقبه بتذكيرهم بما حلّ بالأمم الباغية التي قد خلت من قبلهم، وكيف عصت وتمردت فنزل بها من أمر الله ما أنزل، وضرب لهم المثل بفرعون الجبار فقال ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم﴾ أي بعثنا لكم يا أهل مكة محمداً ﷺ شاهداً على أعمالكم، يشهد عليكم بما صدر منكم من الكفر والعصيان ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ أي كما بعثنا إلى ذلك الطاغية فرعون الجبار، رسولاً من أولئك الرسل العظام أولي العزم، وهو موسى بن عمران. قال الخازن: وإنما خصَّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الأمم والرسل، لأن محمداً ﷺ آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه وُلد فيهم، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه ربّاه(1) ﴿فعصى فرعون الرسول﴾ أي فكذب فرعون بموسى ولم يؤمن به، وعصى أمره كما عصيتم يا معشر قريش محمداً ﷺ وكذبتم برسالته ﴿فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ أي فأهلكناه إهلاكاً شديداً فظيعاً، خارجاً عن حدود التصور، وذلك بإغراقه في البحر مع قومه قال أبو السعود: وفي الآية التنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة، و«الوبيل» الثقيل الغليظ من قولهم كلأ وبيل أي وخيم لا يستمرأ لثقله(2).. وبعد أن ذكر الله أخذه لفرعون، وأن ملكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبين لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ أي كيف لا تحذرون وتخافون يا معشر قريش عذاب يوم هائل إن كفرتم بالله ولم تؤمنوا به؟ وكيف تأمنون ذلك اليوم الرهيب الذي يشيب فيه الوليد من شدة هوله، وفظاعة أمره؟ قال الطبري: وإنما تشيب الولدان من شدة هوله وكربه، وذلك حين يقول الله لآدم: أخرج من ذريتك بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فيشيب هنالك كل وليد(3).. ثم زاد في وصفه وهوله فقال ﴿السماء منفطر به﴾ أي السماء متشققة ومتصدعة من هول ذلك اليوم الرهيب العصيب ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كان وعده تعالى بمجيء ذلك اليوم واقعاً لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿إن هذه تذكرة﴾ أي إن هذه الآيات المخوفة، التي فيها القوارع والزواجر، عظة وعبرة للناس ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي فمن شاء من العاقلين الناجين، أن يستفيد من هذه التذكرة قبل فوات الأوان، فليسلك طريقاً موصلاً إلى الرحمن، بالإيمان والطاعة، فالأسباب ميسرة، والسبل ممهدة، قال المفسرون: والغرض الحضُّ على الإيمان وطاعة الله عز

---

(1) تفسير الخازن ٤/٣٢٤.
(2) تفسير أبي السعود ٥/٢٠٥.
(3) تفسير الطبري ٢٩/٨٦ ومختصر ابن كثير ٣/٥٦٥.

وجل، والترغيب في الأعمال الصالحة، لتبقى ذخرًا في الآخرة.. ثم عادت الآيات الكريمة للحديث عما بدأت به في أول السورة من قيام الليل فقال تعالى ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ أي إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم مع أصحابك[1] للتهجد والعبادة أقل من ثلثي الليل، وتارة تقومون نصفه، وتارة ثلثه كقوله تعالى ﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ۝ وبالأسحار هم يستغفرون﴾ ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ أي والله جل وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وأجزائهما وساعاتهما، لا يفوته علم ما تعملون من قيام هذه الساعات في جنح الظلام ابتغاء رضوانه، وهو تعالى المقدر لأمر الليل والنهار ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم﴾ أي علم تعالى أنكم لن تطيقوا قيام الليل كله ولا معظمه، فرحمكم ورجع عليكم بالتخفيف قال الطبري: أي علم ربكم أن لن تطيقوا قيامه، فتاب عليكم بالتخفيف عنكم[2] ﴿فاقرءوا ما تيسر من القرآن﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، وإنما عبّر عن الصلاة بالقراءة، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة قال ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله قيام الليل وصارت تطوعًا، وبقي ذلك فرضًا على رسول الله ﷺ[3].. ثم بيّن تعالى الحكمة من هذا التخفيف فقال ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ أي علم تعالى أنه سيوجد فيكم من يعجزه المرضُ عن قيام الليل، فخفف عنكم رحمة بكم ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ أي وقوم آخرون يسافرون في البلاد للتجارة، يطلبون الرزق وكسب المال الحلال ﴿وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ أي وقوم آخرون وهم الغزاة المجاهدون، يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر دينه، وكلٌّ من هذه الفرق الثلاثة يشقُّ عليهم قيام الليل، فلذلك خفف الله عنهم.. ذكر تعالى في هذه الآية الأعذار التي تكون للعباد تمنعهم من قيام الليل، فمنها المرض، ومنها السفر للتجارة، ومنها الجهاد في سبيل الله، ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن تأكيدًا للتخفيف عنهم، قال الإمام الفخر: أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، فلذلك خفف الله عنهم وصار وجوب التهجد منسوخًا في حقهم[4] ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، واقرءوا في صلاتكم ما تيسر من القرآن ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي وأدوا الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، والزكاة الواجبة عليكم إلى مستحقيها

---

(١) الآية نصٌّ صريح على أن قيام الليل كان واجبًا على الرسول وعلى أصحابه، وقد كلفوا أن يقوموا ساعات من الليل طويلة، لا تقل عن ثلثه، ولا تزيد على ثلثيه، وذلك بقيام الليل وإحيائه بأنواع الطاعات المختلفة، من ذكر، وصلاة، وتلاوة قرآن - يقوي أبدانهم، ويزكي أرواحهم، ويعودهم الخشونة في العيش، ويعدهم لما هم مقبلون عليه من الكفاح والمحاولة والانتصار في الدعوة، كأنما أراد الله تعالى بذلك أن يعدهم إعدادًا روحيًا وجسميًا للقيام بأعباء الدعوة الجديدة، وتحمل المشاق في سبيل نشر هذا الدين، وما لها من تربية كريمة فريدة، تنشئ الرجال والأبطال.

(٢) تفسير الطبري ٢٩/٨٨. (٣) التفسير الكبير للرازي ٣٠/١٨٧.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/١٨٧.

قال المفسرون: قلّما يُذكر الأمر بالصلاة في القرآن، إلا ويُقرن معه الأمر بالزكاة، فإن الصلاة عماد الدين بين العبد وربه، والزكاة كذلك عماد الدين بينه وبين إخوانه، والصلاة أعظم العبادات البدنية، والزكاة أعظم العبادات المالية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي تصدقوا في وجوه البر والإحسان ابتغاء وجه الله قال ابن عباس: يريد سائر الصدقات سوى الزكاة، من صلة الرحم، وقري الضيف وغيرهما[1] ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أيّ شيء تقدموه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيرًا لكم مما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي اطلبوا مغفرة الله في جميع أحوالكم، فإن الإنسان قلّما يخلو من تقصير أو تفريط ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة، واسع الرحمة.. ختم تعالى السورة بإرشاد المتقين المحسنين، إلى أن يطلبوا من الله الصفح والعفو، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق، أو لم يحسنوا العمل في الإقراض، فيضعوا النفقة في غير مواضعها، أو ينفقوها فيما لهم فيه غرض وشهوة، وهو ختم يتناسق مع موضوع الإنفاق، فسبحان منزل القرآن بأوضح بيان!!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿انْقُصْ مِنْهُ﴾ و﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وبين ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وبين ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

٢- جناس الاشتقاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾.

٣- تأكيد الفعل بالمصدر مثل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ زيادة في البيان والإيضاح.

٤- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ ولو جرى على الأصل لقال إنا أرسلنا إليهم، والغرض من الالتفات التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

٥- المجاز المرسل ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أراد به الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل، لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة.

٦- ذكر العام بعد الخاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ عمّم بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق ليعم جميع الصالحات.

٧- الاستعارة التبعية ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شبه الإحسان إلى الفقراء والمساكين بإقراض رب العالمين، وهو من لطيف الاستعارة.

٨- السجع المرصع مثل ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ إلخ.

تم بعونه تعالى تفسير سورة المزمل.

---

(١) تفسير الخازن (٤/١٧١).

بين يدي السورة

* سورة المدثر مكية، شأنها كسابقتها - سورة المزمل - تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ، ولهذا سميت سورة المدثر.

* ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

* ثم تناولت السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين، بيوم عصيب شديد لا راحة لهم فيه لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

* وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر «الوليد بن المغيرة» الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعلمه البشر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ .. إلى قوله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم، والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ الآيات.

* وأقسمت السورة بالقمر وضيائه، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

* ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخولهم الجحيم ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ..﴾ الآيات.

* وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ.. إلى.. هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ من آية (١) إلى آية (٥٦) نهاية السورة.

اللغَة: ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ المتغطي بثيابه، تدثر: لبس الدثار وهو الثوب الذي فوق الشعار، والشعار: الثوب الذي يلي الجسد، ومنه حديث «الأنصار شعار، والناس دثار» ﴿النَّاقُورِ﴾ الصور الذي ينفخ فيه، والنقر في كلام العرب: الصوت، سمي ناقوراً؛ لأنه يخرج منه صوت عظيم رهيب، يفزع الناس منه ويموتون ﴿عَبَسَ﴾ قطب بين عينيه ﴿بَسَرَ﴾ كلح وجهه وتغير لونه، قال الليث: عبس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبدى عن أسنانه في عبوسه قيل: كلح، فإن اهتم في الأمر وفكر فيه قيل: بسر، فإن غضب مع ذلك قيل: بسل[1] ﴿أَسْفَرَ﴾ أضاء وانكشف ﴿الْكُبَرِ﴾ الدواهي وعظائم المصائب والعقوبات، قال الراجز:

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر ... داهية الدهر وصماء الغير[2]

﴿قَسْوَرَةٍ﴾ أسد، من القسر وهو القهر، سمي بذلك لأنه يقهر السباع، وقيل: هو جماعة الرماة الذين يتصيدونه، قال الأزهري: هو اسم جمع للرماة لا واحد له من لفظه، قال لبيد:

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا ... أتانا الرجال العائدون القساور[3]

سَبَبُ النّزول: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة - يعني محمداً ﷺ - يتوعدكم ويخوفنا بجهنم، ويخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟! فقال أبو الأشد الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين!! فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.. الآية[4].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٠/٢٠١) . (٢) تفسير القرطبي (١٩/٨٣) .
(٣) البحر المحيط (٨/٣٦٩) .
(٤) التفسير الكبير (٣٠/٢٠٣) وتفسير الخازن (٤/٣٧٧) .

ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾

التفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي يا أيها المتدثر بقطيفته يريد النوم والراحة، قم من مضجعك قيام عزم وتصميم، وحذّر الناس من عذاب الله إن لم يؤمنوا، خوطب ﷺ بهذا اللفظ «المدثر» مؤانسة له ﷺ وتلطفًا، كما خوطب بلفظ «المزمل» في السورة السابقة، قال المفسرون: كان ﷺ يتعبد في غار حراء فجاءه جبريل بالآيات الكريمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ الآيات وهي أول ما نزل عليه من القرآن، فرجع يرجف فؤاده فقال لخديجة: زملوني، زملوني! فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآيات ثم فتر الوحي فحزن ﷺ فبينما هو يمشي إذ سمع صوتًا من السماء، فرفع رأسه فإذا الملك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فعرى ﷺ من رؤيته الرعب والفزع، فجاء إلى أهله فقال: دثروني، دثروني[1] فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قال القرطبي: وفي هذا النداء ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بوصفه ولم يقل: «يا محمد» ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله قول النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «قم يا نومان»[2] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظّم ربك، وخصه بالتمجيد والتقديس، وأفرده بالعظمة والكبرياء، فليس هناك من هو أكبر من الله. قال الألوسي: أي اختص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء والعظمة، اعتقادًا وقولاً[3]، وإنما ذكرت هذه الجملة بعد الأمر بالإنذار، تنبيهًا للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فإن نواصي الخلائق بيد الجبار، فلا ينبغي أن يبالي الرسول بأحد من الخلق، ولا أن يرهب سوى الله، فإن كل كبير مقهور تحت عظمته تعالى وكبريائه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي وثيابك فطهرها من النجاسات والمستقذرات، فإن المؤمن طيبٌ طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبيث. قال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه[4]. وقال ابن عباس: كنّى بالثياب عن القلب، والمعنى: وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي واستشهد بقول غيلان.

---

(١) هذه الرواية ذكرها الطبري عن جابر بن عبد الله، كذا في الطبري (٢٩/٩٠).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/٦٠). (٣) روح المعاني (٢٩/١١٦).
(٤) تفسير ابن كثير (٣/٥٦٨).

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع[1]

يقول العرب: فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب، يريدون وصفه بالنقاء من المعايب ومذميم الصفات، ويقولون: فلان دنس الثياب، إذا كان موصوفاً بالأخلاق الذميمة، قال الرازي: والسبب في حسن هذه الكناية، أن الثوب كالشيء الملازم للإنسان، فلهذا السبب جعلوا الثوب كناية عن الإنسان، فقالوا: المجد في ثوبه، والعفة في إزاره[2] ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي اترك عبادة الأصنام والأوثان ولا تقربها، قال ابن زيد: الرجز الآلهة التي كانوا يعبدونها، فأمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها[3] وقال الإمام الفخر: الرجز اسم للقبيح المستقذر كالرجس، قال تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ وقوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ كلام جامع لمكارم الأخلاق، كأنه قيل له: اهجر الجفاء والسفه، وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين، والمراد بالهجر الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما يقول المسلم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ليس معناه أنه ليس على الهداية بل المراد ثبتنا على هذه الهداية[4] ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي ولا تعط العطاء لتستكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطي وإن كان كثيراً[5]، وأعط عطاء من لا يخشى الفقر، وقال ابن عباس: لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها[6] بمعنى: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه، وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض تعففاً ونبلاً، فإن النبي ﷺ مأمور بأشرف الآداب، وأجلّ الأخلاق ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي اصبر على أذى قومك ابتغاء وجه ربك.. ثم أخبر تعالى عن أهوال القيامة وشدائدها فقال ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي فإذا نفخ في الصور نفخة البعث والنشور، وعبّر عن النفخ وعن الصور بالنقر في الناقور لبيان هول الأمر وشدته، فإن النقر في كلام العرب معناه الصوت، وإذا اشتد الصوت أصبح مزعجاً مخيفاً، يقول: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم هائل يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك، ولهذا قال بعده ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي فذلك اليوم يوم شديد هائل، يشتد فيه الهول، ويصعب الأمر ويعسر، والإشارة بالبعيد ﴿ذَلِكَ﴾ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة[7] ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي هو عسير على الكافرين، غير هين ولا يسير عليهم، لأنهم يناقشون الحساب، وتسود وجوههم، ويحشرون زرقاً، ويفتضحون على رؤوس الأشهاد، قال الصاوي: ودلت الآية على أنه يسير على المؤمنين، لأنه قيد عسره بالكافرين، وفيها زيادة وعيد وغيظ للكافرين، وبشرى وتسلية للمؤمنين[8].. ثم أخبر عن قصة ذلك الشقي الكافر «الوليد بن المغيرة» وقوله الشنيع في القرآن

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ١٤٦ واختار ابن جرير القول الأول وقال هو أظهر.
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٢).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٩٣).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٣).
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٦٠).
(٦) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨).
(٧) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٠٨).
(٨) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٦٥).

فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي دعني يا محمد وهذا الشقي، الذي خلقته في بطن أمه وحيدًا فريدًا، لا مال له ولا ولد، ولا حول له ولا عدد، ثم كفر بي وكذب بآياتي، قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» كان من أكابر قريش، ولذلك لقب «الوحيد» و«ريحانة قريش»، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر المتدفق، وكان له بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفًا ولا شتاء، فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وفيه نزل ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وهو أسلوب بليغ في التهديد، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة في سورة نون[1] ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ .. إلى ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ وهو الذي آذى رسول الله ﷺ وكاد له، فلما تحيرت قريش بما يرموا رسول الله، وضاقت عليهم الحيل في إسكاته، وإطفاء نور دعوته، لجأوا إلى الوليد فأشار عليهم بأن يلقبوه ﷺ بالساحر، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة، فصاروا ينادون: إن محمدًا ساحر! فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة في معرض تهديده وتخويفه، ليكون ذلك أدعى للكف من كبريائه، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ أي جعلت له المال الواسع المبسوط، من الإبل، والخيل، والغنم، والبساتين النضرة، قال البيضاوي: ﴿مَمْدُودًا﴾ أي مبسوطًا كثيرًا، وكان له الزرع والضرع والتجارة[2] قال ابن عباس: كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف، وقال مقاتل: كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفًا[3] ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي وأولادًا مقيمين معه في بلده، يحضرون معه المحافل والمجامع، يستأنس بهم ولا يتنغص عيشه بفراقهم، قال المفسرون: كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا، وكان مستأنسًا بهم وله بهم عز ومنعة، أسلم منهم ثلاثة «خالد، وهشام، والوليد»[4].

وبعد أن ذكر مظاهر النعم من المال والبنين عاد فعمم الخيرات الدنيوية التي أنعم بها الله عليه فقال: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت بين يديه الدنيا بسطًا، ويسرت له تكاليف الحياة، ومظاهر الجاه والعز والسيادة، فكان في قريش عزيزًا منيعًا، وسيدًا مطاعًا ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي ثم بعد هذا العطاء الجزيل يطمع أن أزيد له في ماله وولده وقد كفر بي؟! قال الفخر الرازي: لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب، كما تقول لصاحبك: أنزلتك داري، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمني[5] أي ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد، وبدل أن يشكر الوليد ربه هذا الإحسان، ويقابله بالطاعة والإيمان، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ﴿كَلَّا﴾ ردع

---

(١) انظر ما كتبناه في سورة «ن» حول قصة الوليد بن المغيرة من هذا التفسير.

(٢) تفسير البيضاوي (٦/٢٩٥).	(٣) التفسير الكبير (٣٠/١٩٨).

(٤) ذكر بعض المفسرين أنهم كانوا ثلاثة عشر، وأن الذين أسلموا خالد، وعمارة، وهشام، والصحيح أنه الوليد، أما عمارة فإنه مات كافرًا. وانظر حاشية الشهاب (٨/٢٦٤).

(٥) التفسير الكبير (٣٠/١٩٩).

وزجر أي ليرتدع هذا الفاجر الأثيم عن ذلك الطمع الفاسد، ثم علل ذلك بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أي لأنه معاند للحق، جاحد بآيات الله، مكذب لرسوله، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقي العنيد؟! ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي سأكلفه وألجئه إلى عذاب صعب شاق لا يطاق، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل. قال القرطبي ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يكلف صعودها، فإذا صار في أعلاها حدر في جهنم، فيهوي ألف عام قبل أن يبلغ قرارها[1] وفي الحديث «الصعود: جبل من نار يصعد فيه الكافر سبعين خريفًا، ثم يهوي فيه كذلك أبدًا»[2] ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي إنه فكر في شأن النبي والقرآن، وأجال رأيه وذهنه فتأمل، ثم رتب وهيأ كلامًا في نفسه، ماذا يقول في القرآن؟ وبماذا يطعن فيه؟ قال تعالى دعاء عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي قاتله الله وأخزاه على تلك الكلمة الحمقاء التي أجالها في نفسه، حيث قال عن القرآن، إنه سحر، وقال عن محمد، إنه ساحر، وفي الآية استهزاء به وتهكم، حيث قدر ما لا يصح تقديره، ولا يسوغ أن يقوله عاقل، قال في البحر: يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه قاتله الله، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حُسَّاده، والاستفهام في قوله ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ في معنى: ما أعجب تقديره وما أغربه! كقولهم: أي رجل هذا؟ أي ما أعظمه[3] ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا للذم وتقبيحًا لحاله، ولغاية التهكم به، كأنه قال: قاتله الله ما أروع تفكيره، وأبدع رأيه الحصيف[4] حيث قال عن القرآن: إنه سحر يؤثر! قال المفسرون: مر الوليد بالنبي ﷺ وهو يصلي ويقرأ القرآن، فاستمع لقراءته وتأثر بها، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه!! ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: لقد صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟! فقال: كيف لا أحزن وهذه قريش تجمع لك مالًا ليعينوك به على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد وصبأت لتصيب من فضل طعامه، وتنال من ماله!! فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالًا وولدًا؟! وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب، فهل

---

[1] تفسير القرطبي (١٩/ ٧٢).
[2] أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.
[3] البحر المحيط (٨/ ٣٧٤).
[4] هذا كما قال الزمخشري: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أنه أتى به في غاية الركاكة والسقوط

إِلَّا هُوَ﴾ أي وما يعلم عدد الملائكة، وقوتهم وضخامة خلقهم، وكثرتهم إلا الله رب العالمين، وفي الآية ردٌّ على أبي جهل حين قال: أما لربّ محمد أعوانٌ إلا تسعة عشر؟! ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ أي وما هذه النار التي وصفها لكم الجبار، إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر ثم أقسم تعالى بالقمر على أن سقر حق، والمعنى: ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحي والقرآن عن غيّهم وسوء صنيعهم، وأقسم بالقمر ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي وأُقسم بالليل حين ولّى بظلمته ذاهبًا ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي وبالصبح إذا تبلّج وأضاء، ونشر ضياءه على الأرجاء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي إن جهنم لإحدى الدواهي الكبيرة، والبلايا الخطيرة، فكيف يستهزئون بها ويكذبون؟! قال أبو حيان: أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفًا لها، وتنبيهًا على ما يظهر فيها من عجائب الله وقدرته، وقوام الوجود بإيجادها، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهي العظيمة التي لا نظير لها[1] وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله، وأنهما في حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما، ونشوء الليل والنهار عنهما مسخران لأمره تعالى، ساجدان بين يدي قدرته وقهره، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذي خلقهما؟! ثم قال تعالى عن جهنم: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ أي هي إنذار للخلق ليتقوا ربهم ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي لمن أراد من العباد أن يتقرب إلى ربه بفعل الخيرات أو يتأخر بفعل الموبقات، قال في البحر: والمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلى الخير والتخلف عنه كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] قال ابن عباس: من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته[3] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونةٌ عند الله بكسبها، ولا تُفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكّوا رقابهم وخلّصوها من السجن والعذاب بالإيمان وطاعة الرحمن ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هم في جنات وبساتين لا يُدرك وصفها، يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار، والسؤال لزيادة تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، يقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[4] ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي قال المجرمون مجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين،

الشام - يعني لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره؟! فقال له: ويحك، لعلك ظننت قضاءً لازمًا، وقدرًا حاتمًا، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، وإن الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا، وكلّف يسيرًا ولم يكلّف عسيرًا، ولم ينزل الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلًا ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ اهـ. ومن خبره هذا يفهم معنى الهداية والإضلال.

(١) البحر المحيط ٨/٣٧٨. (٢) البحر المحيط ٨/٣٧٩.

(٣) تفسير الطبري ٢٩/١٠٣. (٤) البحر ٨/٣٨٠.

قال ابن كثير : مرادهم في الآية : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا(1) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا يعنينا من الأباطيل، قال في التسهيل : والخوض : هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه(2) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وكنا نكذب بيوم القيامة، وبالجزاء والحساب، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي حتى جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات، قال تعالى معقبًا على اعترافهم بتلك الجرائم ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي ليس لهم شفيع ينقذهم من عذاب الله، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قبلت شفاعتهم فيهم، قال ابن كثير : من كان متصفًا بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافرًا فإنه مخلد في النار أبدًا(3). ولما ذكر تعالى قبائحهم وشناعتهم عاد بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ؟ أي ما لهؤلاء المشركين معرضون عن القرآن وآياته، وما فيه من المواعظ البالغة والنصائح والإرشادات ؟ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع، قال في البحر : شبههم تعالى بالحمر النافرة مذمة لهم وتهجينًا(4) وقال ابن عباس : الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا ﷺ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد، ثم قال : والقسورة : الأسد(5) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ أي بل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أنزل على محمد ﷺ، ويريد أن يتنزل عليه الوحي كما تنزل على الرسل والأنبياء، والغرض من الآية بيان إمعانهم في الضلالة وكأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغباوتهم ونفارهم نفور الحيوانات مما فيه خيرهم وسعادتهم، واستمع لما هو أعجب وأغرب، وذلك طمع كل فرد منهم أن يكون رسولاً يوحى إليه، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء، ثم قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي ليرتدعوا ولينزجروا عن مثل ذلك الطمع، بل الحقيقة أنهم قوم لا يصدقون بالله ولا بالحساب، ولا يؤمنون بالبعث والعذاب، وهذا هو الذي أصمهم وجعلهم معرضين عن مواعظ القرآن ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ كرر الردع والزجر لهم بقوله ﴿كَلَّا﴾ ثم قال : ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن هذا القرآن موعظة بليغة، كافية لاتعاظهم لو أرادوا لأنفسهم السعادة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي فمن شاء اتعظ بما فيه، وانتفع بهداه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما يتعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكروا ويتعظوا، وفيه تسلية للنبي ﷺ وترويح عن قلبه الشريف مما كان يساوره من إعراضهم وتكذيبهم له ﴿هُوَ

(1) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٧٣).
(2) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٦٢).
(3) مختصر ابن كثير (٣/٥٧٣).
(4) البحر المحيط (٨/٣٨٠).
(5) التفسير الكبير للرازي (٣٠/٢١٦).

أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو جلّ وعلا أهلٌ لأن يُتقى لشدة عقابه، وأهلٌ لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته، قال الألوسي: أي حقيقٌ بأن يتقى عذابه ويطاع، وحقيقٌ بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه[1] وفي الحديث عن النبي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ثم قال: «قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهلٌ أن أغفر له»[2].

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿عَسِيرٌ﴾ و﴿يَسِيرٍ﴾ كما أن بين اللفظين جناس الاشتقاق.

٢- المقابلة بين ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وبين ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾.

٣- الإطناب بتكرار الجملة ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ زيادة في التوبيخ والتشنيع.

٤- جناس الاشتقاق ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾.

٥- تقديم المفعول لإفادة الاختصاص ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

٦- الطباق بين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وبين ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

٧- أسلوب التقريع والتوبيخ بطريق الاستفهام ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾؟.

٨- التشبيه التمثيلي ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

٩- الإيجاز بحذف بعض الجمل ﴿يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ أي قائلين لهم: ما سلككم في سقر، فحذف اعتماداً على فهم المخاطبين.

١٠- الاستفهام للتهويل والتفخيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟

١١- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ خصّه بالذكر مع أنه داخل في الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب.

١٢- السجع المرصّع مثل ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ ومثل ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ إلخ.

«تمّ بعونه تعالى تفسير سورة المدثر»

---

(1) روح المعاني للألوسي ٢٩/١٣٥.

(2) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

اللغة: ﴿بَنَانَهُ﴾ البنان: أطراف الأصابع أو الأصابع نفسها جمع بنانة، قال النابغة:

بمخضَّبٍ رخْصٍ كأنَّ بنانَهُ ... عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقَدُ(١)

﴿بَرِقَ﴾ دَهِش وبُهت وتحيَّر، وأصله أن ينظر إلى البرق فيدهش البصر، قال ذو الرمة:

ولو أنَّ لقمانَ الحكيمَ تعرَّضتْ ... لعينيه ميٌّ سافرًا كاد يَبرَقُ(٢)

﴿وَزَرَ﴾ ملجأ وحصن يتحصن إليه ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مشرقة متهلِّلة، والنَّضرة: النعمة وجمال البشرة والإشراقة الجميلة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ شديدة الكلوحة والعبوس يقال: بسر وجهه إذا اشتد في عبوسه وكلاحته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ الفاقرة: الداهية والأمر العظيم يقال: فقرته الفاقرة أي كسرت فقار ظهره ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر في مشيته اختيالاً وكبرًا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾

التفسير: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ أي وأقسم بالنفس اللوامة المتقية، التي تلوم صاحبها على ترك الطاعات، وفعل الموبقات، قال المفسرون: «لا» لتأكيد القسم، وقد اشتهر في كلام العرب زيادة «لا» قبل القسم لتأكيد الكلام، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قسم، وجواب القسم محذوف تقديره «لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ» دل عليه قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾(٣)، أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله، وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وتستغفر وتنيب مع طاعتها وإحسانها، قال الحسن البصري: هي نفس المؤمن، إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه: ماذا أردتُ بكلامي؟ وماذا أردتُ بعملي؟ وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها(٤) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أيظن هذا

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٩٤). (٢) البحر المحيط (٨/ ٣٨٤).

(٣) انظر التسهيل (٤/ ١٦٣) والألوسي (٢٩/ ١٣٤) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٧٠).

(٤) تفسير الخازن (٤/ ١٨٩).

يقول قول الآيس، فنعلمه بأنه لا فرار حينئذ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ردعٌ له عن طلب الفرار، أي ليرتدع وينزجر عن ذلك القول، فلا ملجأ له، ولا مهرب من عذاب الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي إلى الله وحده المصير والمرجع للخلائق. قال الألوسي: إليه جلَّ وعلا وحده استقرار العباد، لا ملجأ ولا منجى لهم غيره[1]... والمقصود من الآيات بيان أهوال الآخرة، فالأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحار من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظيمة، والإنسان يطيش عقله، ويذهب رشده، ويبحث عن النجاة والمخلص، ولكن هيهات فقد جاءت القيامة وانتهت الحياة ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي يُخبر الإنسان في ذلك اليوم بجميع أعماله، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، ما قدَّمه منها في حياته، وما أخَّره بعد مماته، من سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيئة، ومن صنعة طيبة أو قبيحة[2]، وفي الحديث «من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[3] ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي بل هو شاهد على نفسه، وسوء عمله، وقبيح صنيعه، لا يحتاج إلى شاهد آخر كقوله ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ والهاء في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ للمبالغة كراوية وعلَّامة، قال ابن عباس: الإنسان شاهد على نفسه وحده، يشهد عليه سمعه، وبصره، ورجلاه، وجوارحه[4] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي ولو جاء بكل معذرة ليبرر إجرامه وفجوره، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهدٌ على نفسه، وحجةٌ بينة عليها، قال المفسرون: المعنى: أن الإنسان وإن اعتذر عن نفسه، وجادل عنها، وأتى بكل عذر وحجة، فإنه لا ينفعه ذلك لأنه شاهد على نفسه[5] بما جنت واقترفت من الموبقات.. وبعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل فقال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي عليك بواسطة جبريل، لأجل أن تتعجل بحفظه مخافة أن يتفلَّت منك ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي إن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد وأن تحفظه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي فإذا قرأه عليك جبريل، فأنصت لاستماعه حتى يفرغ، ولا تحرك شفتيك أثناء قراءته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي ثم إن علينا بيان ما أشكل عليك فهمه يا محمد من معانيه وأحكامه، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه، مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق واستمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل[6]، قال ابن

---

(1) روح المعاني (29/140).
(2) هذا معنى ما روي عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأرجح وقيل: بما قدم في أول عمره وما أخر في آخره.
(3) الحديث في الصحاح
(4) التفسير الكبير (30/222).
(5) تفسير الطبري (29/115).
(6) أخرجه الشيخان وأحمد

ويطلب ويشفي هذا المريض؟[1] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والمال، لمعاينته ملائكة الموت ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي والتفت إحدى ساقي المحتضر على الأخرى، من شدة كرب الموت وسكراته، قال الحسن: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن[2]. وروي عن ابن عباس أن المراد: اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة الموت وكربه، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم، حيث يجتمع عليه شدة كرب الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمّرت الحرب عن ساق، استعارة لشدتها[3] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي إلى الله جل وعلا مساق العباد، يجتمع عنده الأبرار والفجار، ثم يساقون إلى الجنة أو النار، قال الخازن: أي مرجع العباد إلى الله تعالى، يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم[4]. ثم أخبر تعالى عن حال الفاجر المكذب فقال ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي لم يصدق بالقرآن، ولم يصلّ للرحمن، قال أبو حيان: والجمهور على أنها نزلت في «أبي جهل» وكادت أن تصرح به في قوله ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم، وكان يكثر منها[5] ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكن كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ أي ذهب يتبختر في مشيته، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي ويلٌ لك يا أيها الشقي ثم ويل لك قال المفسرون: هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذير والتهديد، وأصلها أنها أفعل تفضيل من وليه الشيء إذا قاربه ودنا منه أي وليك الشر وتوشك أن يصيبك، فاحذر وانتبه لأمرك[6]. روي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل ثم قال له ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال أبو جهل: أتوعدني يا محمد وتهددني؟! والله لا تستطيع أنت وربك أن تفعلا بي شيئاً، والله إني لأعزّ أهل الوادي!! ثم لم يلبث أن قُتل ببدر شر قتلة ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كرره مبالغة في التهديد والوعيد، كأنه يقول: إني أكرر عليك التحذير والتخويف، فاحذر وانتبه لنفسك قبل نزول العقوبة بك. ولما ذكر في أول السورة إمكان البعث، ذكر في آخر السورة الأدلة على البعث والنشور فقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي أيظن الإنسان أن يُترك مهملاً، من غير بعث ولا حساب ولا جزاء؟ وبدون تكليف بحيث يبقى كالبهائم المرسلة؟ لا ينبغي له ولا يليق به هذا الحسبان ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الاستفهام للتقرير أي أما كان هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماءٍ مهين، يراق ويُصب في الأرحام؟ والغرض بيان حقارة حاله كأنه يقول: إنه مخلوق من المني الذي يجري مجرى البول ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي ثم أصبح بعد ذلك قطعة من دم غليظ متجمد تشبه العلقة، فخلقه الله بقدرته في أجمل صورة، وسوّى

(١) تفسير الطبري (٢٩/١٩٣).
(٢) تفسير الخازن (٤/٣٣٧).
(٣) انظر البحر المحيط (٨/٣٩٠).
(٤) البحر المحيط (٨/٣٨٩).
(٥) البحر المحيط (٨/٣٩١).
(٦) انظر التفسير الكبير (٣٠/٢٢٣) وتفسير القرطبي (١٩/١١٣).

صورته وأتقنها في أحسن تقويم ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي فجعل من هذا الإنسان صنفين: ذكراً وأنثى بقدرته تعالى، فهذا هو أصل الإنسان وتركيبه، فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي أليس ذلك الإله الخالق الحكيم، الذي أنشأ هذه الأشياء العجيبة، وأوجد الإنسان من ماء مهين بقادر على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه على كل شيء قدير روي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم بلى».

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين ﴿قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وكذلك بين ﴿صَدَّقَ﴾ و﴿كَذَّبَ﴾.

٢- الاستفهام الإنكاري بغرض التوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؟ لأن الغاية التوبيخ والتقريع.

٣- استبعاد تحقق الأمر ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ فالغرض من الاستفهام الاستبعاد والإنكار.

٤- الجناس غير التام بين ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و ﴿نَاظِرَةٌ﴾ لاختلاف بعض الحروف.

٥- المقابلة اللطيفة بين نضارة وجوه المؤمنين، وكلاحة وجوه المجرمين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وبين ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ .. الخ.

٦- الجناس الناقص بين لفظ ﴿السَّاقُ﴾ و ﴿الْمَسَاقُ﴾.

٧- المجاز المرسل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عبّر بالوجه عن الجملة فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٨- الالتفات ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، تقبيحاً له وتشنيعاً.

٩- توافق الفواصل ويسمى في علم البديع السجع المرصّع مثل ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ وهذا من خصائص القرآن، معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

تم بعونه تعالى تفسير سورة القيامة

أكرمتك، هل وعظتك؟ ومقصوده أن تقرره بأنك قد أكرمته ووعظته، والمراد بالإنسان: الجنس، وبالحين مدة لبثه في بطن أمه(١)، والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته، فقد كان شيئاً منسياً لا يفطن له، وكان في العدم مرتجماً في صلب أبيه، وماءً مهيناً لا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه، ومرَّ عليه حينٌ من الدهر كذلك، فكرة الأرضية خالية منه، ثم خلقه الله، وأبدع تكوينه وشخصه، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد.. وبعد أن قرر أن الإنسان مرّ عليه وقت لم يكن موجوداً، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متّعه بنعمة العقل والحواس فقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماءٍ مهين - وهو المنيُّ - الذي يتدفق من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة والبويضة الأنثوية، فيتكون منهما معاً المخلوق العجيب، قال ابن عباس ﴿أَمْشَاجٍ﴾ يعني: أخلاط، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعدُ من طورٍ إلى طور، ومن حالٍ إلى حال(٢) ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره بالتكاليف الشرعية، والأوامر الإلهية، لننظر أيشكر أم يكفر؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ؟ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمعٍ وبصر، ليسمع الآيات التنزيلية، ويبصر الدلائل الكونية، على وجود الخالق الحكيم، قال الإمام الفخر: أعطاه تعالى ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان، وخصّهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا للإنسان وعرّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشر، ببعثة الرسل وإنزال الكتب.. أخبر تعالى أنه بعد أن ركّبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة، بيّن له سبيل الهدى والضلال، ومنحه العقل، وترك له حرية الاختيار، ثم هو بعد ذلك إما أن يشكر، أو يكفر، ولهذا قال بعده ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي إما أن يكون مؤمناً شاكراً لنعمة الله، فيسلك سبيل الخير والطاعة، وإما أن يكون شقياً فاجراً، فيكفر بنعمة الله ويسلك سبيل الشر والفجور. قال المفسرون: المراد: هديناه السبيل ليكون إما شاكراً وإما كفوراً، فالله تعالى دلّ الإنسان على سبيل الشكر والكفر، وعلى الإنسان أن يختار سلوك هذا أو ذاك، وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادةً واختياراً هما مناط التكليف، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ إلى ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ وكقوله ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فلا إكراه لأحد ولا إجبار، وإنما هو بمحض الإرادة والاختيار(٤).. ثم بعد هذا البيان الواضح، بيّن ما أعدّه للأبرار والفجار في دار القرار فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ أي هيأنا للكافرين المجرمين قيوداً

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٣٠/٢٣٥. (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٨٨.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٣٠/٢٤٢. (٤) انظر التفسير الكبير للرازي ٣٠/٢٤٨.

يُشدّ بها أرجلهم، وأغلالاً تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم، ﴿وسعيرًا﴾ أي نارًا موقدة مستعرة يحرقون بها، كقوله تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون * في الحميم ثم في النار يُسجرون﴾ ﴿إن الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافورًا﴾ أي الذين كانوا في الدنيا أبرارًا بطاعتهم الجبار، فإنهم يشربون كأسًا من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكافور. قال المفسرون: الكافور: طيبٌ معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين، وهو من أنفس أنواع الطيب عند العرب، والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحانها كالكافور[1]. قال ابن عباس: الكافور اسم عين ماءٍ في الجنة يقال له عين الكافور تُمزج الكأس بماء هذه العين وتختم بالمسك فتكون ألذّ شراب، ولهذا قال تعالى: ﴿عينًا يشرب بها عباد الله﴾ أي هذا الكافور يتدفق من عينٍ جارية من عيون الجنة يشرب منها عباد الله الأبرار، ووصفهم بالعبودية تكريمًا لهم وتشريفًا بإضافتهم إليه تعالى ﴿عباد الله﴾ والمراد بهم المؤمنون المتقون ﴿يفجرونها تفجيرًا﴾ أي يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور. قال الصاوي: المراد أنها سهلة لا تمتنع عليهم، وورد أن الرجل منهم يمشي في بيوته، ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره[2]. ولما ذكر ثواب الأبرار بيّن صفاتهم الجليلة التي استحقوا بها ذلك الأجر الجزيل فقال: ﴿يوفون بالنذر﴾ أي يوفون بما قطعوه على أنفسهم من نذرٍ في طاعة الله، إذا نذروا طاعةً فعلوها، قال الطبري: النذرُ كلُّ ما أوجبه الإِنسان على نفسه من فعل، فإذا نذروا بروا بوفائهم لله، بالنذور التي في طاعة الله[3] من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة. قال المفسرون: وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه، كان بما أوجبه الله عليه أوفى[4] ﴿ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا﴾ أي ويخافون هول يومٍ عظيم كانت أهواله وشدائده - من تفطر السموات، وتناثر الكواكب، وتطاير الجبال، وغير ذلك من الأهوال - ممتدة منتشرة فاشيةً، بالغة أقصى حدود الشدة والفزع، قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض[5] ﴿ويطعمون الطعام على حبه﴾ أي ويطعمون الطعام مع شهوتهم له، وحاجتهم إليه ﴿مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا﴾ أي فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، ويتيمًا مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيرًا وهو من أُسر في الحرب من المشركين، قال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: أحسن إليه، فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه[6]. نبّه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام، في سدّ جوعتهم وجوعة عيالهم، يطيبون نفسًا عنه للبؤساء، ويؤثرونهم به على أنفسهم

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٢٣).
(٢) حاشية الصاوي (٤/٢٧٤).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/١٢٩).
(٤) انظر التفسير الكبير (٣٠/٢٤٤).
(٥) تفسير الطبري (٢٩/١٢٩).
(٦) روح المعاني (٢٩/١٥٥).

كقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله، وطلب ثوابه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نبتغي من وراء هذا الإحسان مكافأة، ولا نقصد حمدًا ولا ثناءً منكم، قال مجاهد: أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب[1] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله، وهو يوم قمطرير أي شديد عصيب[2] ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي حماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي وأعطاهم نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب، والتنكير في ﴿وَسُرُورًا﴾ للتعظيم والتفخيم ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي وأثابهم بسبب صبرهم على مرارة الطاعة والإيثار بالمال، جنةً واسعة، وألبسهم فيها الحرير، كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .. وفي الآية إيجاز أخاذ من روائع الإعجاز فقد أشار تعالى بقوله ﴿جَنَّةً﴾ إلى ما يتمتع به الأبرار في دار الكرامة من صنوف الفواكه والثمار، والمطاعم والمشارب الهنية، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها كل أسباب الراحة كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وأشار بقوله: ﴿وَحَرِيرًا﴾ إلى ما يتمتعون به من أنواع الزينة واللباس، التي من أنفسها وأغلاها ثمنًا ثوب الحرير، فقد جمع لهم أنواع الطعام والشراب واللباس، وهو قصارى ما تتطلع له نفوس الناس .. ولما ذكر طعامهم ولباسهم وصف نعيمهم ومساكنهم فقال: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي مضطجعين في الجنة على الأسرّة المزينة بفاخر الثياب والستور، قال المفسرون: الأرائك: جمع أريكة وهي السرير في الحجلة، والحجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور، وإنما خصّهم بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعم ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي لا يجدون فيها حرًا ولا بردًا، لأن هواءها معتدل فلا حرّ ولا قرّ، وإنما هي نسمات تهب من العرش تحيي الأنفاس ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي ظلال الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي أُدنيت ثمارها منهم، وسُهّل عليهم تناولها، قال ابن عباس: إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد[3] .. ولما وصف طعامهم ولباسهم ومساكنهم، وصف بعد ذلك شرابهم فقال ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي يدور عليهم الخدم بالأواني الفضية فيها الطعام والشراب على عادة أهل الترف والنعيم في الدنيا، فيناولون كل واحد منهم حاجته، وهذه الأواني من الصحاف بعضها من فضة وبعضها من ذهب كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ قال الرازي: ولا منافاة بين الآيتين، فتارة يسقون بهذه، وتارة بتلك[4] ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ أي وبأكواب – وهي

---

(١) مختصر ابن كثير (٣/٥٦٢).
(٢) قال الطبري: القمطرير هو الشديد، يقال: يوم قمطرير أي شديد عصيب. الطبري (٢٩/٢١٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٩/١٣٧).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/٢٤٩).

كالأقداح - رقيقة شفافة كالزجاج في صفائه، قال في البحر: ومعنى ﴿كَانَتْ﴾ أن الله تعالى أوجدها بقدرته، فيكون تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها، وشفيف القوارير وصفائها(١) ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي هي جامعة بين صفاء الزجاج، وحسن الفضة، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء - يعني أن ما في الجنة أسمى وأشرف وأعلى - ولو أخذت فضة من فضة الدنيا، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب، لم ير الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضة، مع صفاء القوارير(٢) ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّرها السقاة على مقدار حاجتهم، لا تزيد ولا تنقص، وذلك ألذ وأشهى، قال ابن عباس: أتوا بها على قدر الحاجة لا يفضلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا(٣) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي يسقى هؤلاء الأبرار في الجنة كأسًا من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، والعرب تستلذ من الشراب ما مزج بالزنجبيل لطيب رائحته، قال القرطبي: فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب(٤) قال قتادة: الزنجبيل اسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة(٥) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عين في الجنة تسمى السلسبيل، لسهولة مساغها وانحدارها في الحلق، قال المفسرون: السلسبيل: الماء العذب، السهل الجريان في الحلق لعذوبته وصفائه، وإنما وصف بأنه سلسبيل؛ لأن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل، ولكن ليس فيه لذعه، فيشعر الشاربون بطعمه، لكنهم لا يشعرون بحرافته، فيبقى الشراب سلسبيلًا، سهل المساغ في الحلق.. ثم وصف بعد ذلك خدم أهل الجنة فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ أي ويدور على هؤلاء الأبرار غلمانٌ ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء، قال القرطبي: أي باقون على ما هم عليه من الشباب، والنضارة، والغضاضة، والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مرّ الأزمنة(٦) ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي إذا نظرتهم منتشرين في الجنة لخدمة أهلها، خلتهم لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم، كأنهم اللؤلؤ المنثور، قال الرازي: هذا من التشبيه العجيب؛ لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقًا يكون أحسن في المنظر؛ لوقوع شعاع بعضه على بعض فيكون أروع وأبدع(٧) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رأيت هناك ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور، رأيت نعيمًا لا يكاد يوصف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، قال ابن كثير: وثبت في الصحيح أن أقل أهل الجنة منزلة

---

(١) البحر المحيط (٨/٣٩٧).
(٢) تفسير الألوسي (٢٩/١٥٩).
(٣) تفسير الألوسي (٢٩/١٦٠).
(٤) تفسير القرطبي (١٩/١٤٠).
(٥) تفسير البحر المحيط (٨/٣٩٨).
(٦) تفسير القرطبي (١٩/١٤١).
(٧) التفسير الكبير (٣٠/٢٥١).

اصبر يا محمد وانتظر لحكم ربك وقضائه ؛ فلا بدَّ أن ينتقم منهم ، ويقر عينك بإهلاكهم ، إن عاجلاً أو آجلاً ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾ أي ولا تطع من هؤلاء الفجرة من كان ﴿آثِمًا﴾ منغمسًا في الشهوات ، غارقًا في الموبقات ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أي ولا تطع من كان مبالغًا في الكفر والضلال ، لا ينزجر ولا يرعوي ، وصيغة «كفور» من صيغ المبالغة ومعناها : المبالغ في الكفر والجحود . قال المفسرون : نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة قالا للنبي ﷺ : إن كنت تريد النساء والمال فرجع عن هذا الأمر ونحن نكفيك ذلك ، فقال عتبة : أنا أزوجك ابنتي وأسوقها لك من غير مهر ، وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى ! فنزلت[1] ، والأحسنُ أنها على العموم لأن لفظها عام فهي تشمل كل فاسق وكافر ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي صلِّ لربك وأكثر من عبادته وطاعته ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي في أول النهار وآخره ، في الصباح والمساء ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي ومن الليل فصلِّ له ، متهجدًا مستغرقًا في مناجاته ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أي وأكثر من التهجد والقيام لربك في جنح الظلام والناس نيام ، كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ والمقصود أن يكون عابدًا لله ذاكرًا له في جميع الأوقات ، في الليل والنهار ، والصباح والمساء ، بقلبه ولسانه ؛ ليتقوى على مجابهة أعدائه .. وبعد تسلية النبي الكريم ، عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجرمين فقال : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي إن هؤلاء المشركين يفضلون الدنيا على الآخرة ، وينهمكون في لذائذها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ أي ويتركون أمامهم يومًا عسيرًا شديدًا ، عظيم الأهوال والشدائد ، وهو يوم القيامة ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي نحن بقدرتنا أوجدناهم من العدم ، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشداء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي ولو أردنا لأهلكناهم ، ثم أتينا بخيرٍ منهم يكونون أطوع لله وأتقى ، وفي الآية تهديدٌ ووعيد ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه الآيات الكريمة بمعانيها الدقيقة ، وألفاظها الرشيقة موعظة وذكرى ، يتذكر بها العاقل ، ويتزجر بها الجاهل ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي فمن أراد الانتفاع والاعتبار ، وسلوك طريق السعادة ، فليعتبر بآيات القرآن ، وليستنر بنوره وضيائه ، وليتخذ طريقًا موصلاً إلى ربه : بطاعته وطلب مرضاته ، فأسباب السعادة ميسورة ، وسبل النجاة ممهدة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي وما تقصدون أمرًا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته ، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلا بإذنه تعالى وإرادته ، قال ابن كثير : أي لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه ، ولا يدخل في الإيمان ، ولا يجر لنفسه نفعًا إلا بمشيئة الله تعالى[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عالم بأحوال خلقه ، حكيم في تدبيره وصنعه ، يعلم من يستحق الهداية فييسِّرها له ، ومن يستحق الضلالة فيهيئ له أسبابها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي يدخل من يشاء من

---

(١) انظر التفسير الكبير (٣٠/ ٢٥٨) وتفسير القرطبي (١٩/ ١٤٧) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٧٨).

(٢) مختصر ابن كثير (٣/ ٥٨٤) .

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عاليات مرتفعات، يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه تكبرًا ﴿فُرَاتًا﴾ عذبًا شديد الحلاوة ﴿بِشَرَرٍ﴾ الشرر: ما تطاير من النار وتفرق، جمع شررة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾.

التفسير: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي أُقسم بالرياح حين تهبُّ متتابعة، يقفو بعضها إثر بعض[1]، قال المفسرون: هي رياح العذاب التي يهلك الله بها الظالمين ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ أي وأقسم بالرياح الشديدة الهبوب، إذا أرسلت عاصفة شديدة، قلعت الأشجار، وخربت الديار، وغيرت الآثار ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ أي وأقسم بالملائكة الموكلين بالسحب ينشرونها حيث شاء الله، لتنشر رحمة الله - المطر - فتحيي به البلاد والعباد ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام[2] ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أي وأقسم بالملائكة تنزل بالوحي، وتلقي كتب الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي تلقي الوحي إعذارًا من الله للعباد لئلا يبقى لهم حجة عند الله، أو إنذارًا من الله للخلق بالنقمة والعذاب ﴿إِنَّمَا

---

(١) اختلف المفسرون اختلافًا كثيرًا في تفسير هذه الآيات الخمس: فبعضهم جعلها جميعًا في الرياح وبعضهم جعلها جميعًا في الملائكة، وبعضهم فصَّل، وتوقف الإمام ابن جرير، وما اخترناه هو ما ذهب إليه ابن كثير وما رجحه صاحب التسهيل حيث قال: والأظهر في المرسلات والعاصفات أنها الرياح، لأن وصف الريح بالعصف حقيقة، والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة لأن قوله ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ المذكور بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد إنها الرياح، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال: والمرسلات فالعاصفات، ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ ثم عطف بالفاء، وهذا قول جيد.

(٢) البحر المحيط ٨/٤٠١.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو جواب القسم أي إنَّ ما توعدون به من أمر القيامة، وأمر الحساب والجزاء - كائن لا محالة، قال المفسرون: أقسم تعالى بخمسة أشياء، تنبيهًا على جلالة قدر المقسم به، وتعظيمًا لشأن المقسم عليه: فأقسم بالرياح التي تحمل الرحمة والعذاب، وتسوق للعباد الخير أو الشر، وبالملائكة الأبرار، الذين ينزلون بالوحي للإعذار أو الإنذار، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه، وأن ما أوعد الله تعالى به المكذبين من مجيء الساعة والثواب والعقاب - كائن لا محالة، فلا ينبغي الشك والامتراء . . ثم بيَّن تعالى بعض وقت وقوع ذلك فقال ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي محيت النجوم وذهب نورها وضياؤها ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي شقت السماء وتصدعت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي تطايرت الجبال وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي جعل للرسل وقت وأجل للفصل بينهم وبين الأمم، وهو يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ وأصل ﴿أُقِّتَتْ﴾ وُقِّتت من الوقت أي جعل لها وقت محدد، قال الطبري: أي أُجِّلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة وقال مجاهد: هو الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ استفهام لتعظيم ذلك اليوم، والتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة أي لأي يوم عظيم أُخِّرت الرسل؟ ثم قال ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ أي ليوم القضاء والفصل بين الخلائق، يوم يفصل الله بين الأنبياء وأممهم المكذبين بحكمه العادل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؟ استفهام للتعظيم والتهويل أي وما أعلمك أيها الإنسان بيوم الفصل وشدته وهوله؟ فإن ذلك اليوم أعظم من أن يعرف أمره إنسان، أو يحيط به عقل أو وجدان، ووضع الظاهر ﴿مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ مكان الضمير لما هو زيادة تفظيع وتهويل أمره، قال الإمام الفخر: عجَّب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال: لأي يوم أُجِّلت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل، وهي تعذيب من كذبهم، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به، من الأهوال والعرض والحساب، ثم إنه تعالى بيَّن ذلك فقال: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم يفصل الرحمن بين الخلائق، ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ أي وما أعلمك ما هو يوم الفصل وشدته ومهابته؟ وجواب الشرط ﴿فَإِذَا النُّجُومُ﴾ إلخ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: وقع ما توعدون به، وجرى ما أخبركم به الرسل من مجيء القيامة، والحذف على هذه الصورة من أساليب الإيجاز السامي الذي امتاز به القرآن ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك عظيم وخسار كبير في ذلك اليوم لأولئك المكذبين بهذا اليوم الموعود، قال المفسرون: كرَّر هذه الجملة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترهيب والترعيب، وفي كل جملة وردت إخبارًا عن أشياء عن أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عقب كل جملة منها بالويل والدمار للكفرة

---

(١) انظر التفسير الكبير (٣٠/٢٦٥).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/٢٦٩).

المجاز، ولما كان - في سورة الإنسان السابقة - ذكر بعضًا من أحوال الكفار في الآخرة، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين هناك، جاء في هذه السورة بالإطناب في وصف الكفار، والإيجاز في وصف المؤمنين.. ثم بعد أن أكد الخبر بيوم القيامة، وأنه حق كائن لا محالة، وبعد أن خوَّف المكذبين من شدة هول ذلك اليوم، وفظاعة ما يقع فيه، عاد فخوَّفهم من بطش الله وانتقامه بأسلوب آخر فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ؟ أي ألم نهلك السابقين بتكذيبهم للرسل، كقوم نوح وعاد وثمود؟ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ ؟ أي ثم ألحقنا بهم المتأخرين ممن كانوا مثلهم في التكذيب والعصيان، كقوم لوط وشعيب وقوم موسى «فرعون وأتباعه» ومن على شاكلتهم ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع نفعل بهؤلاء المجرمين «كفار مكة» لتكذيبهم لسيد المرسلين ﷺ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار لكل مكذب بالتوحيد والنبوة، والبعث والحساب ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ تذكير للمكذبين وتعجيب من غفلتهم وذهولهم عن أبسط الأمور المشاهدة، وهي أن من خلقهم من النطفة الحقيرة الضعيفة كان قادرًا على إعادة خلقهم للبعث والحساب والمعنى: ألم نخلقكم يا معشر الكفار من ماءٍ ضعيف حقير هو مَنِيُّ الرجل؟ وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه»[1] الحديث ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي فجعلنا هذا الماء المهين في مكان حريز وهو رحم المرأة ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي إلى مقدار من الزمن محدَّد معيَّن، معلوم عند الله تعالى وهو وقت الولادة ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فقدرنا على خلقه من النطفة: فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الصور، وأجمل الأشكال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بقدرتنا قال الصاوي. هذه الآية تذكير من الله تعالى للكفار بعظيم إنعامه عليهم، وبقدرته على ابتداء خلقهم، والقادرُ على الابتداء قادر على الإعادة، ففيها ردٌّ على المنكرين للبعث[2].. ثم ذكَّرهم بنعمة إيجادهم على الأرض حال الحياة، ومواراتهم في باطنها بعد الموت فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ ؟ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم لكم، تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في باطنها؟ قال المفسرون: الكَفْت: الجمع والضم، فالأرض تجمع وتضم إليها جميع البشر، فهي كالأم لهم، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور، والأموات يسكنون في بطنها في القبور ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم[3] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي وجعلنا

---

[1] هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ورواه ابن ماجه في سننه، وتمامه أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «يقول الله عز وجل: ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة».

[2] حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢٨٠.

[3] مختصر ابن كثير ٣/٥٨٨.

فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، جمعناكم فيه مع من تقدمكم من الأمم لنحكم بينكم جميعاً ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا، وأنقذوا أنفسكم من بطش الله وانتقامه إن قدرتم، وهذا تعجيز لهم وتوبيخ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك يومئذ للمكذبين بيوم الدين. وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء المجرمين، أعقبه بذكر أحوال السعداء المتقين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ أي الذين خافوا ربهم في الدنيا واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة، وعيون الماء الجارية، يتنعمون في دار الخلود والإكرام، على عكس أولئك المجرمين المكذبين، الذين هم في ظلٍّ من يحموم - وهو دخان جهنم الأسود - الذي لا يغني من حر، ولا يدفع عطشاً، ولا يجد المستظل به مما يشبهه لراحته سوى شرر النار الهائل ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وفواكه كثيرة متنوعة مما يستلذون ويستطيبون ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ويقال لهم على سبيل الأنس والتكريم: كلوا أكلاً لذيذاً واشربوا شرباً هنيئاً، بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من أحسن عمله، وأخلص نيته، واتقى ربه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار للمكذبين بيوم الدين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي يقال للكفار على سبيل التهديد والوعيد: كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن البهائم التي همها ملء بطونها ونيل شهواتها زمناً قليلاً إلى منتهى آجالكم، فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بنعم الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المشركين: صلّوا لله، واخشعوا في صلاتكم لعظمته وجلاله، لا يخشعون ولا يصلّون، بل يظلون على استكبارهم ويصرون، قال مقاتل: نزلت هذه الآية في ثقيف، امتنعوا عن الصلاة وقالوا لرسول الله ﷺ: حُطّ عنا الصلاة فإنا لا ننحني، إنها مسبة علينا، فأبى وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»[1] ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي فبأي كتاب وكلام بعد هذا القرآن المعجز الواضح يصدقون إن لم يؤمنوا بالقرآن؟ فإذا كذبوا بالقرآن ولم يؤمنوا به، مع بلوغه الغاية في الإعجاز، وسطوع الحجة، وروعة البيان، فبأي شيء بعده يؤمنون؟ قال القرطبي: كرر قوله ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات للتخويف والوعيد، وقيل: إنه ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراده بالآخر، كأنه ذكر شيئاً فقال: ويل لمن يكذب بهذا، ثم ذكر شيئاً آخر فقال: ويل لمن يكذب بهذا، وهكذا إلى آخر السورة الكريمة[2].

---

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٤٠٨). (٢) تفسير القرطبي (١٩/١٦٧).

تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

التأكيد بذكر المصدر زيادة في البيان وتقوية للكلام مثل ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ وهو من المحسنات اللفظية.

الطباق بين ﴿عُذْرًا . . و . . نُذْرًا﴾ وبين ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ وبين ﴿الْأَوَّلِينَ . . و . . الْآخِرِينَ﴾ . وكلها من المحسنات البديعية.

وضع الظاهر مكان الضمير، والمجيء بصيغة الاستفهام ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ؟ لزيادة تفظيع الأمر وتهويله.

الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ ؟ ومثله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ؟

الجناس غير التام بين لفظي ﴿مَهِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾ .

التشبيه المرسل المجمل ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ والمرسل المفصل ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾

المقابلة بين نعيم الأبرار وعذاب الفجار ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قابل ذلك بقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ .

أسلوب التهكم ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ﴾ سمّى العذاب ظلاً تهكماً وسخرية بهم.

المجاز المرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أطلق الركوع وأراد به الصلاة فهو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل: أي: وإذا قيل لهم صلوا لا يصلّون.

توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ .. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلخ ويسمى بالسجع المرصع وهو من المحسنات البديعية.

بين يدي السورة

* سورة النبأ مكية وتسمى «سورة النبأ» لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور.
* ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

* ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصدّق ومكذب ﴿عمّ يتساءلون ۝ عن النبإ العظيم﴾ الآيات.

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه ﴿ألم نجعل الأرض مهادا ۝ والجبال أوتادا ۝ وخلقناكم أزواجا ۝ وجعلنا نومكم سباتا﴾ الآيات.

* ثم أعقب ذلك بذكر البعث، وحدّدت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا ۝ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ الآيات.

* ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من ألوان العذاب المهين ﴿إن جهنم كانت مرصادا ۝ للطاغين مآبا ۝ لابثين فيها أحقابا﴾ الآيات.

* وبعد الحديث عن الكافرين، تحدثت عن المتقين، وما أعدّ الله تعالى لهم من ضروب النعيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿إن للمتقين مفازا ۝ حدائق وأعنابا ۝ وكواعب أترابا ۝ وكأسا دهاقا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابا فلا يحشر ولا يحاسب ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾.

اللغة: ﴿سباتا﴾ السبت في اللغة: القطع، سمي النوم سباتاً لأنه يقطع العمل والحركة ﴿وهاجا﴾ الوهّاج: المتوقد المتلألئ، من قولهم: توهجت النار إذا أضاءت ﴿ثجاجا﴾ شديد الانصباب يقال: ثجّ الماء إذا سال بكثرة، وفي الحديث «أفضل الحج: العجّ والثجّ» العجّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجّ: إراقة الدماء وذبح الهدايا ﴿كواعب﴾ جمع كاعب وهي التي برز نهدها واستدار مع ارتفاع يسير ﴿دهاقا﴾ مملوءة يقال: أدهقت الكأس أي ملأتها، قال الشاعر:

أتانا عامرٌ يبغي قرانا ... فأترعنا له كأساً دهاقا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

التفسير: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ؟ أي عن أيِّ شيءٍ يسأل هؤلاء المشركون بعضهم بعضاً؟ وأصل ﴿عَمَّ﴾ عن ما، أدغمت الميم في النون وحذفت ألف «ما» الاستفهامية، وليس المراد هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه، وقد كان المشركون يتساءلون عن البعث فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً، وجاء اللفظ بصيغة الاستفهام للتفخيم والتهويل، وللتعجيب من أمر المشركين، ثم ذكر تعالى ذلك الأمر الخطير فقال ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن الخبر العظيم الهام وهو أمر البعث[1] ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي الذي اختلفوا فيه ما بين شاكٍّ في وقوعه، ومكذبٍ منكرٍ لحصوله ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ وزجر أي ليرتدع أولئك المكذبون عن التساؤل عن البعث، فسيعلمون حقيقة الحال، حين يرون البعث أمراً واقعاً، ويرون عاقبة استهزائهم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تأكيد للوعيد مع التهويل أي سيعلمون ما يحل بهم من العذاب والنكال. ثم أشار تعالى إلى الأدلة الدالة على قدرته تعالى، ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من أمر البعث، وكأنه يقول: إن الإله الذي قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظام قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهرها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات؟ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي

---

(1) البحر المحيط ٨/٤٠٤، والقرطبي ١٩/١٧١، وهذا هو الراجح أن المراد بالنبأ العظيم أمر البعث لأنه ذكر بعده الأدلة القاطعة على إمكان البعث من قوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ إلخ وذكر منها تسعة أمور، وقيل المراد بالنبأ القرآن أو النبوة وما ذكرناه هو الراجح وهو اختيار العلامة أبي السعود.

وجعلت الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد، قال في التسهيل: شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد[1] ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي وجعلناكم أيها الناس أصنافًا ذكورًا وإناثًا؛ ليتنظم أمر النكاح والتناسل، ولا تنقطع الحياة عن ظهر هذا الكوكب الأرضي ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي وجعلنا النوم راحة لأبدانكم، قاطعًا لأشغالكم، تتخلصون به من مشاق العمل بالنهار ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي جعلنا الليل كاللباس يغشاكم ويستركم بظلامه كما يستركم اللباس، ويغطيكم ظلمته كما يغطي الثوب لابسه، قال في التسهيل: شبهه بالثياب التي تُلبس لأنه سترٌ عن العيون[2] ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي وجعلنا النهار سببًا لتحصيل المعاش، تتصرفون فيه لقضاء حوائجكم قال ابن كثير: جعلناه مشرقًا مضيئًا ليتمكن الناس من التصرف فيه، بالذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك[3] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي وبنينا فوقكم أيها الناس سبع سموات محكمة الخلق بديعة الصنع، متينة في إحكامها وإتقانها، لا تتأثر بمرور العصور والأزمان، جعلناها بقدرتنا لتكون كالسقف للأرض، كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وقوله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وأنشأنا لكم شمسًا منيرة ساطعة، يتوهج ضوؤها ويتوقد لأهل الأرض كلهم، دائمة الحرارة والتوقد، قال المفسرون: الوهّاج: المتوقد الشديد الإضاءة الذي يضطرم ويلتهب من شدة لهبه، وقال ابن عباس: المنير المتلألئ[4] ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي وأنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقًا منهمرًا بشدة وغزارة، قال في التسهيل: المعصرات هي السحب، مأخوذة من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء[5]، شبهت السحابة التي حان وقت إمطارها بالجارية التي قد دنا حيضها ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والزروع، التي تنبت في الأرض غذاء للإنسان والحيوان ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي وحدائق وبساتين كثيرة الأشجار والأغصان، ملتفة بعضها على بعض لكثرة أغصانها وتقارب أشجارها.. ذكر تعالى هذه الأدلة الناصعة على قدرته تعالى، كبرهان واضح على إمكان البعث والنشور، فإن من قدر على هذه الأشياء قادرٌ على البعث والإحياء ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي إن يوم الحساب والجزاء، ويوم الفصل بين الخلائق، له وقت محدد معلوم في علمه تعالى وقضائه، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ قال القرطبي: سمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه، وقد جعله وقتًا

---

(1) التسهيل لعلوم التنزيل (4/173).
(2) التسهيل لعلوم التنزيل (4/173).
(3) مختصر تفسير ابن كثير (3/590).
(4) تفسير القرطبي (19/170).
(5) التسهيل لعلوم التنزيل (4/173).

العذاب أتبعوا بأشد منه . ولما ذكر تعالى أحوال الأشقياء أهل النار، ذكر بعدها أحوال السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي إن للمؤمنين الأبرار الذين أطاعوا ربهم في الدنيا - موضع ظفر وفوز بجنات النعيم، وخلاص من عذاب الجحيم، ثم فسَّر هذا الفوز فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ أي بساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار، وفيها كروم الأعناب الطيبة المتنوعة من كل ما تشتهيه النفوس ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أي ونساء عذارى نواهد قد برزت أثداؤهن، وهنَّ في سن واحدة، قال في التسهيل: الكواعب: جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي وكأسًا من الخمر ممتلئة صافية، قال القرطبي: المرادُ بالكأس: الخمرُ كأنه قال: وخمرًا ذات دهاق أي ممتلئة قد عُصرت وصُفِّيت ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلامًا فارغًا لا فائدة فيه، ولا كذبًا من القول لأن الجنة دار السلام، وكل ما فيها سالمٌ من الباطل والنقص ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي جازاهم الله بذلك الجزاء العظيم، تفضلاً منه وإحسانًا كافيًا على حسب أعمالهم ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ أي هذا الجزاء صادرٌ من الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحدٌ أن يخاطبه في دفع بلاء، أو رفع عذاب في ذلك اليوم، هيبةً وجلالاً ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن الله له بالكلام والشفاعة ونطق بالصواب، قال الصاوي: وإذا كان الملائكة الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله لا يقدرون أن يشفعوا إلا بإذنه، فكيف يملك غيرهم؟ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي ذلك هو اليوم الكائن الواقع لا محالة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي فمن شاء أن يسلك إلى ربه مرجعًا كريمًا بالإيمان والعمل الصالح فليفعل، وهو حثٌّ وترغيب ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ الخطاب للكفار قريش المنكرين للبعث أي إنا حذرناكم وخوفناكم عذابًا قريبًا وقوعه وهو عذاب الآخرة، سمَّاه قريبًا لأن كل ما هو آتٍ قريب ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي يوم يرى كل إنسان ما قدَّم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي ويتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يكلَّف ويقول: يا ليتني كنت ترابًا حتى لا أحاسب ولا أعاقب، قال المفسرون: وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة فيقتصُّ للجماء من القرناء، وبعد ذلك يصيِّرها ترابًا، فيتمنى الكافر أن لو كان كذلك حتى لا يعذب.

انظر القرطبي (١٩/ ١٨٠) وحاشية الصاوي (٤/ ٢٨٥) .

التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٧٤) . تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٦) .

حاشية الصاوي على الجلالين (٤/ ٢٨٦)

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

٢ - الإيجاز بحذف الفعل لدلالة المتقدم عليه ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي يتساءلون عن النبأ العظيم

٣ - التشبيه البليغ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ؟ أصل الكلام جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، تحذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا، ومثله ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي كاللباس في الستر والخفاء.

٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

٥ - التشبيه البليغ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

٦ - الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وفيه أيضًا التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ - الطباق بين ﴿بَرْدًا﴾ و ﴿حَمِيمًا﴾.

٨ - ذكر العام بعد الخاص ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الروح وهو جبريل داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين مرة استقلالاً، ومرة ضمن الملائكة؛ تنبيهًا على جلالة قدره.

٩ - السجع المرصَّع مثل ﴿أَلْفَافًا﴾ ﴿أَمْوَاجًا﴾ ﴿أَتْرَابًا﴾ ﴿دِهَاقًا﴾ ﴿أَحْقَابًا﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النبأ»

□□□

بين يدي السُّورة

* سورة النازعات مكية، شأنها كشأن سائر السور المكية، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء» ومحورُ السورة يدور حول القيامة وأحوالها، والساعة وأهوالها، وعن مآل المتقين، ومآل المجرمين.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطف ولين، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الآيات

* ثم تحدثت عن المشركين المنكرين للبعث والنشور، فصورت حالتهم في ذلك اليوم العصيب ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ الآيات.

* ثم تناولت السورة قصة فرعون الطاغية، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ...﴾ الآيات.

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ، وذكّرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ الآيات.

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة التي استبعدها المشركون وأنكروها وكذبوا بحدوثها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝٤٤ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

اللغَة: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ خائفة فزعة يقال: وجف القلب وجيفاً إذا خفق واضطرب من شدة الفزع ﴿الْحَافِرَةِ﴾ الرجوع إلى الحالة التي كان عليها يقال: رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء، قال الشاعر:

أحافرةً على صلعٍ وشيبٍ ... معاذ الله من سفهٍ وعارِ(1)

﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ وجه الأرض، والعرب تسمي وجه الأرض والفلاة ساهرة؛ لأنه يُسهر عليها ﴿سَمْكَهَا﴾ السمك: العلو والارتفاع، وبناء مسموك أي عالٍ مرتفع ﴿أَغْطَشَ﴾ أظلم يقال: غطش الليل وأغطشه الله أي صار مظلماً وأظلمه الله ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها ووسعها، قال زيد بن عمرو:

دحاها فلما استوت شدها ... بأيدٍ وأرسى عليها الجبالا(2)

﴿الطَّامَّةُ﴾ الداهية العظمى التي لا تستطاع، قال الشاعر:

إنَّ بعض الحب يعمي ويُصم ... وكذاك البغض أدهى وأطم(3)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى

---

(1) أنشده ابن الأعرابي والمراد: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت؟!
(2) البحر المحيط ٨/٤١٤. (3) تفسير القرطبي ١٩/٢٠٤.

رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ۝ فَحَشَرَ فَنَادَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ۝ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ أي أُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بالغًا أقصى الغاية في الشدة والعسر ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ أي وأُقسمُ بالملائكة التي تنزع أرواح المؤمنين بسهولة ويسر، وتسلُّها سلاًّ رفيقًا، قال ابن مسعود: إن ملك الموت وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السَّفُّود - سيخ الحديد - الكثير الشُّعب من الصوف المبتل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء، وينزع روح المؤمن برفق ولين، ويقبضها كما ينشط العقال من يد البعير(1). قال ابن كثير: أقسم سبحانه بالملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلَّته من نشاط(2) ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ أي وأقسم بالملائكة التي تنزل بأمر الله ووحيه من السماء كالذي يسبح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ أي الملائكة التي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة تدبِّر شئون الكون بأمره تعالى، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من شئون الدنيا، أقسم سبحانه بهذه الأصناف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتُبعثُنَّ ولتحاسبُنَّ، وقد دلَّ عليه قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى التي يرتجف ويتزلزل لها كل شيء، تتبعها النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور، قال ابن عباس: الراجفة والرادفة هما النفختان الأولى والثانية، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحيي كل شيء بإذن الله تعالى(3). ثم ذكر تعالى حالة المكذبين وما يلقونه من الشدائد والأهوال فقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة وجلة مضطربة ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي يقولون في الدنيا استهزاءً واستبعادًا للبعث: أنُرَدُّ بعد الموت فنصير أحياء بعد فنائنا ونرجع كما كنا أول مرة؟ قال القرطبي: إذا قيل لهم: إنكم تبعثون، قالوا منكرين متعجبين: أنُردُّ بعد موتنا إلى أول الأمر، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت؟

(1) تفسير الخازن ٤/ ٤٠٢.
(2) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٩٥ ثم قال: وهذا هو الصحيح وعليه الأكثرون.
(3) تفسير القرطبي ١٩/ ١٩٣.

الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ .. إلى .. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ من آية (١) إلى (٤٢) نهاية السورة.

اللغة: ﴿عَبَسَ﴾ كلح وجهه وقطّب ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له وتصغي لكلامه ﴿سَفَرَةٍ﴾ السفرة: الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد جمع سافر مثل كاتب كتبة ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ جعل له قبرًا وأمر أن يُقبر ﴿وَقَضْبًا﴾ القضب: كل ما يقطع من البقول فينبت أصله كالقت والبرسيم والفصفصة والقثاء والكُرّاث وغيرها ﴿غُلْبًا﴾ كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، جمع غلباء ﴿وَأَبًّا﴾ الأبّ: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب ﴿الصَّاخَّةُ﴾ الصيحة التي تصمّ الآذان لشدتها ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار ودخان ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد وظلمة.

سبب النزول: روي أن النبي ﷺ كان مشغولاً مع صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، وكان يطمع في إسلامهم رجاء أن يسلم أتباعهم، فبينما رسول الله ﷺ مشتغل ببعض من عنده من وجوه قريش، جاء إليه عبد الله بن أم مكتوم، وهو أعمى، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع هؤلاء المشركين. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه وقال في نفسه: يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس وجهه وأقبل على القوم يكلمهم فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات (١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

(١) حاشية الصاوي (٤/ ٢٩٢) وتفسير القرطبي (١٩/ ٢١٠).

التفسير: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ أي كلح وجهه وقطّبه وأعرض عنه كارهاً، لأنْ جاءه الأعمى يسأل عن أمور دينه قال الصاوي: وإنما أتى بضمائر الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ تلطفاً به ﷺ وإجلالاً له، لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة، واسم الأعمى «عبد الله بن أم مكتوم» وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويبسط له رداءه(1) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ أي وما يُعلمك ويُخبرك يا محمد لعلّ هذا الأعمى الذي عبست في وجهه، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة!! ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك!! ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ أي أما من استغنى عن الله وعن الإيمان، بماله من الثروة والمال ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ أي فأنت تتعرض له وتصغي لكلامه، وتهتم بتبليغه دعوتك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ أي ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان، فلست مطالباً بهدايته، إنما عليك البلاغ، قال الألوسي: وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخلٌّ بالمروءة كما قال القائل:

ونلو لم كرمت كفي مصاحبي ... يوماً نأت لها عن صحبتي نبي(2)

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أي وأمّا من جاءك يسرع ويمشي في طلب العلم لله ويحرص على طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ أي وهو يخاف الله تعالى ويتقي محارمه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ أي فأنت يا محمد تتشاغل عنه، وتتلهى بالانصراف عنه إلى رؤساء الكفر والضلال!! ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي لا تفعل بعد اليوم مثل ذلك، فهذه الآيات موعظة وتبصرة للخلق، يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها العقلاء ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ثم بعد هذا البيان أخبر عن جلالة قدر القرآن فقال ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي هو في صحف مكرمة عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي عالية القدر والمكانة، منزهة عن أيدي الشياطين، وعن كل دنس ونقص ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي مكرمين معظمين عند الله، أتقياء صلحاء ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ثم ذكر تعالى قبيح جريمة الكافر، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه فقال ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي لُعن الكافر وطُرد من رحمة الله، ما أشدّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده!! قال الألوسي: والآية دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجب من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان(3) ﴿مِنْ أَيِّ

---

(1) حاشية الصاوي على الجلالين (٤/٢٩٤).

(2) روح المعاني للألوسي ٣٠/٤٠.

(3) روح المعاني للألوسي ٣٠/٤٣.

أقسم تعالى على صدق القرآن، وصحة رسالة محمد عليه السلام فقال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ أي فأقسم قسمًا مؤكدًا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل[1] ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ أي التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ثم تستتر وقت غروبها، كما تستتر الظباء في كناسها - مغاراتها - قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتكنس وقت غروبها أي تستتر، كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس[2] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه حتى عمَّ المخلوق[3] ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي وبالصبح إذا أضاء وتبلَّج، وانتشر ضوؤه حتى صار نهارًا واضحًا ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي إن هذا القرآن الكريم لكلام الله المنزَّل بواسطة ملك عزيز على الله هو جبريل، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ قال المفسرون: أراد بالرسول جبريل، وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى، ومما يدل على أن المراد به جبريل قوله بعده ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي شديد القوة، صاحب مكانة رفيعة، ومنزلة سامية عند الله جل وعلا ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي مطاع هناك في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة الأبرار، مؤتمن على الوحي الذي ينزل به على الأنبياء ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ أي وليس محمد الذي صاحبتموه يا معشر قريش، وعرفتم صدقه وأمانته ورجاحة عقله بمجنون كما زعمتم. قال الخازن: أقسم تعالى على أن القرآن نزل به جبريل الأمين، وأن محمدًا ﷺ ليس بمجنون كما يزعم أهل مكة، فنفى تعالى عنه الجنون، وكون القرآن من عند نفسه[4] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي وأقسم لقد رأى محمد ﷺ جبريل في صورته الملكية التي خلقه الله عليها بجهة الأفق الأعلى البيّن من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس، قال في التسهيل: وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء، حين رأى جبريل على كرسي بين السماء والأرض، في صورته له ستمائة جناح قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب[5] ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما محمد على الوحي ببخيل يقصّر في تبليغه وتعليمه، بل يبلغ رسالة ربه بكل أمانة وصدق ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان ملعون كما يقول المشركون ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأي طريق تسلكون في تكذيبكم بالقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر، مع وضوح آياته وسطوع براهينه؟ وهذا كما تقول لمن ترك الطريق المستقيم: هذا الطريق الواضح فأين تذهب؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا موعظة وتذكرة للخلق أجمعين ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي لمن شاء منكم أن يتبع الحق، ويستقيم على شريعة الله،

---

(١) هذا قول علي وابن عباس ومجاهد والحسن، كما في الطبري (٣٠/ ٤٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٣٥).
(٣) هذا القول أرجح لمقابلته بالصبح فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه، وهو اختيار ابن كثير.
(٤) تفسير الخازن (٤/ ٢٠٦).
(٥) التسهيل (٤/ ١٧٤).

يسجلون عليه أعماله، ويتعقبون أفعاله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين: أبرار، وفجار، وبيَّنت مآل كل من الفريقين ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ الآيات

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

اللغة: ﴿انْفَطَرَتْ﴾ انشقت، والفطر: الشق ومنه فطر ناب البعير ﴿انْتَثَرَتْ﴾ تساقطت وتهاوت ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قُلبت يقال: بعثرت المتاع أي قلبته ظهرًا لبطن ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿فَسَوَّاكَ﴾ جعل أعضاءك سليمة سوية ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويذوقون لهبها وحرَّها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

التفسير: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي وإذا النجوم تساقطت وتناثرت، وزالت عن بروجها وأماكنها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي وإذا البحار فتح بعضها إلى بعض، فاختلط عذبها بمالحها، وأصبحت بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي وإذا القبور قلبت، ونبش ما فيها من الموتى، وصار ما في باطنها ظاهرًا على وجهها ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هذا هو الجواب أي علمت عندئذٍ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر، وما قدمت من صالح أو طالح، قال الطبري: ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من شيء سنةً تعمل به بعدها[1] ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي أيُّ شيء خدعك بربك الحليم الكريم، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره، مع إحسانه إليك وعطفه عليك؟[2] وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال: كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿الَّذِي

[1] تفسير الطبري ٣٠/٥٤.

[2] هذه الآية واردة على سبيل التوبيخ والتعجيب من حال الإنسان الجاحد لنعم ربه، وليست واردة على سبيل تلقين الحجة كما قال البعض حتى قالوا: يلقنه أن يقول: غرني كرمك. ويؤيد ما ذكرناه قول عمر: غرَّه حمقه وجهله.

أي ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل، فليس القرآن أساطير الأولين، بل غطّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي، قال المفسرون: الرَّان: هو الذنب على الذنب حتى يسودَّ القلب ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي ليرتدع هؤلاء المكذبون عن غيهم وضلالهم، فهم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولى جل وعلا فلا يرونه، قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل، وقال مالك: لما حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتى رأوه ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ أي ثم إنهم مع الحرمان عن رؤية الرحمن لداخلو الجحيم وذائقو عذابها الأليم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ثم تقول لهم خزنة جهنم على وجه التقريع والتوبيخ: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ؟. وبعد الحديث عن حال الفجار، ذكر تعالى نعيم الأبرار فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر أي ليس الأمر كما يزعمون من مساواة الفجار بالأبرار، بل كتابهم في سجّين، وكتاب الأبرار في عليين، وهو مكان عالٍ مشرّف في أعالي الجنة. قال في التسهيل: وجمع ﴿عِلِّيِّينَ﴾ للمبالغة، وهو مشتق من العلوّ؛ لأنه سببٌ في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه في مكانٍ عليٍّ رفيع فقد روي أنه تحت العرش ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تفخيمٌ وتعظيم لشأنه أي وما أعلمك يا محمد ما هو عليون؟ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي كتاب الأبرار كتابٌ مسطَّر، مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعالي درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة. قال المفسرون: إن روح المؤمن إذا قُبضت صُعد بها إلى السماء، وفتحت لها أبواب السماء، وتلقتها الملائكة بالبشرى، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لهم رقٌّ فيكتب فيه ويختم عليه بالنجاة من الحساب والعذاب ويشهده المقربون ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممدودة ينعمون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي يُسقون من خمرٍ في الجنة، بيضاء طيبة صافية، لم تكدرها الأيدي، قد ختم على تلك الأواني فلا يفك ختمها إلا الأبرار ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي وفي هذا النعيم والشراب الهنيء، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله، وليتسابق المتسابقون. قال الطبري:

وفي الحديث: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقل قلبه، فإن عاد زِيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» رواه الترمذي.

تفسير القرطبي (١٩/٢٥٩).

التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٥).

ذكره القرطبي عن كعب (١٩/٢٦٠).

التنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي يحرص عليه الناس ، ويشتهيه ويطلبه نفوسهم والمعنى ، فليستبقوا في طلب هذا النعيم ، ولتحرص عليه نفوسهم [1] ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي يمزج ذلك الرحيق من عين عالية رفيعة ، هي أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه تسمى «التسنيم» ولهذا قال بعده ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي هي عينٌ في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا ، وتمزج لسائر أهل الجنة ، قال في التسهيل : تسنيم ، اسمٌ لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفًا ، ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار ، فدلَّ ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار.

ولما ذكر تعالى نعيم الأبرار ، أعقبه بذكر مآل الفجار ، تسليةً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي أن المجرمين الذين من طبيعتهم الإجرام وارتكاب الآثام ، كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين استهزاءً بهم ، قال في التسهيل : نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره ، مرَّ بهم علي بن أبي طالب وجماعة من المؤمنين ، فضحكوا منهم واستهزءوا بهم [2] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي وإذا مرَّ هؤلاء المؤمنون بالكفار ، غمز بعضهم بعضًا بأعينهم سخرية واستهزاءً بهم قال المفسرون ، كان المشركون إذا مرَّ بهم أصحاب رسول الله ، تغامزوا بأعينهم عليهم احتقارًا لهم وازدراءً يقولون : جاءكم ملوك الدنيا ! يسخرون منهم لإيثارهم واستمساكهم بالدين ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي وإذا انصرف المشركون ورجعوا إلى منازلهم وأهليهم ، رجعوا متلذذين يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم ، قال في البحر : أي رجعوا متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم استخفافًا بأهل الإيمان [3] ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أي وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة قال تعالى ردًّا عليهم ، ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم بحفظ أعمال عبادي المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلمَ يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم؟ ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم القيامة - يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، جزاءً وفاقًا ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي والمؤمنون على أسرَّة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون منهم ، قال القرطبي : يقال لأهل النار وهم في النار اخرجوا ، فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم ، فيضحك منهم المؤمنون [5] ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي هل جوزي الكفار في الآخرة بما كانوا يفعلونه

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٦٨.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٦).
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٤).
(٤) البحر المحيط (٨/٤٤٣).
(٥) تفسير القرطبي (١٩/٢٦٨).

القرطبي: أخرجت أمواتها وتخلت عنهم، وألقت ما في بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقي الحامل ما في بطنها من الحمل، وذلك يؤذن بعظم الهول [1] ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحُقَّ لها أن تسمع وتطيع.. وجواب «إذا» محذوف ليكون أبلغ في التهويل أي إذا حدث كل ما تقدم، لقي الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الخيال.. ثم أخبر تعالى عن كدِّ الإنسان وتعبه في هذه الحياة، وأنه سيلقى جزاءه عند الله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الخطاب عام لكل إنسان أي يا ابن آدم إنك جاهد ومجدٌّ بأعمالك التي عاقبتها الموت، والزمان يطير وأنت في كل لحظة تقطع شوطاً من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرعٌ إلى الموت، ثم تلاقي ربك فيكافئك على عملك، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرٌ، قال في البحر: كادحٌ أي جاهد في عملك من خير وشر طول حياتك إلى لقاء ربك، فملاقٍ جزاء كدحك من ثواب وعقاب [2].. ثم ذكر تعالى انقسام الناس إلى سعداء وأشقياء وإلى من يأخذ كتابه بيمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهذه علامة السعادة ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ أي فسوف يكون حسابه سهلاً هيناً، يُجازى على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وهذا هو العرضُ كما جاء في الحديث الصحيح [3] ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة مبتهجاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنى الهلاك والموت ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي ويدخل ناراً مستعرة، يقاسي عذابها وحرها ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي لأنه كان في الدنيا مسروراً مع أهله، غافلاً لاهياً، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة، قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل [4] ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي إنه ظنَّ أن لن يرجع إلى ربه، ولن يعيده الله بعد موته للحساب والجزاء، فلذلك كفر وفجر ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي بلى سيعيده الله بعد موته، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها، فإنه تعالى مطلع على العباد، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ «لا» لتأكيد القسم أي فأقسم قسماً مؤكداً

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢٦٨. (٢) البحر المحيط ٨/٤٤٦.

(٣) المراد بالحساب اليسير في الآية هو العرض، لما روي أن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب» فقالت عائشة: أوليس الله عز وجل يقول ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب» رواه البخاري ومسلم. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه، فيقول له: فعلت كذا وكذا، ويعدد عليه ذنوبه، ثم يقول له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» فهذا هو المراد من الحساب اليسير.

(٤) تفسير القرطبي ١٩/٢٧١.

بحمرة الأفق بعد غروب الشمس ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي وبالليل وما جمع وضمَّ إليه، وما لفَّ في ظلمته من الناس والدواب والهوام، قال المفسرون: الليل يسكن فيه كل الخلق، ويجمع ما كان منتشرًا في النهار من الخلق والدواب والأنعام، فكلٌّ يأوي إلى مكانه وسربه، ولهذا امتن تعالى على العباد بقوله: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ فإذا جاء النهار انتشروا، وإذا جاء الليل أوى كل شيء إلى مأواه ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي وأُقسمُ بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره، وصار بدرًا ساطعًا مضيئًا ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي لتلاقُنَّ يا معشر الناس أهوالاً وشدائد في الآخرة عصيبة، قال الألوسي: يعني لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها[1] وقال الطبري: المراد أنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً[2] ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استفهام يقصد به التوبيخ أي فما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بالبعث بعد الموت، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على وقوعه؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي وإذا سمعوا آيات القرآن لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن؟ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي والله أعلم بما يضمرون في صدورهم من الكفر والتكذيب، قال ابن عباس: ﴿يُوعُونَ﴾ أي يضمرون من عداوة الرسول والمؤمنين[3] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي فبشرهم على كفرهم وضلالهم بعذاب مؤلم موجع، واجعل ذلك بمنزلة البشرى لهم، قال في التسهيل: ووضع البشارة في موضع الإنذار تهكم بالكفار[4] ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي لكن الذين صدقوا الله ورسوله، وجمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب في الآخرة غير منقوص ولا مقطوع، بل هو دائم مستمر. ختم تعالى السورة الكريمة ببيان نعيم الأبرار، بعد أن ذكر مآل الفجار، وهو توضيح لما أجمله في أول السورة من ملاقاة كل عامل لجزاء عمله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين لفظ ﴿السَّمَاءُ﴾ و ﴿الْأَرْضُ﴾.

٢- المقابلة بين ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.

٣- الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ كنى به عن الشدائد والأهوال التي يلقاها الإنسان.

٤- الجناس الناقص بين كلمتي ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿اتَّسَقَ﴾.

٥- الأسلوب التهكمي ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعمال البشارة في موضع الإنذار تهكمًا وسخرية بالكفار.

---

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠/٨٢).
(٢) تفسير الطبري (٣٠/٨٠).
(٣) البحر المحيط (٨/٤٤٨).
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٨٨).

أشدُّ اللعن ﴿فَتَنُوا﴾ عذَّبوا وأحرقوا ﴿بَطْشَ﴾ البطش: الأخذ بشدة ﴿يُبْدِئُ﴾ يخلق ابتداءً بقدرته «المَجِيدُ» العظيم الجليل المتعالي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

التفسير: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي وأُقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها، قال المفسرون: سميت هذه المنازل بروجاً لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها؛ لأنها منازل للكواكب السيارة ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي وأُقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، الذي وعد الله به الخلائق بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي وأُقسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ وقيل: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم، ودليله ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ هذا هو جواب القسم، والجملة دعائية أي قاتل الله ولعن أصحاب الأخدود، الذين شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين، قال القرطبي: الأخدود: الشقُّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد، ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي لُعن، قال ابن عباس: كل شيء في القرآن «قُتل» فهو لُعن[2]. ثم فصَّل تعالى المراد من الأخدود فقال: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ أي النار العظيمة المتأججة، ذات الحطب واللهب، التي أضرمها الكفار في تلك الأخاديد لإحراق المؤمنين، قال أبو السعود: وهذا وصف لها بغاية العظم، وارتفاع اللهب، وكثرة ما فيها من الحطب[3]، والقصدُ وصف النار بالشدة والهول.

---

(١) اختلف المفسرون في تفسير «الشاهد» و«المشهود» اختلافاً كبيراً حتى ذكر بعضهم فيهما ستة عشر قولاً: فقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو عيسى والمشهود هو يوم القيامة، وقيل: الشاهد هو جوارح الإنسان والمشهود عليه هو ابن آدم.. إلخ قال الصاوي: والأحسن أن يراد ما هو أعم ولعلك تكره ما لتعم كل شاهد ومشهود.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٨٤).   (٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٥٢).

ثم بالغ تعالى في وصف المجرمين فقال ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي حين هم جلوس حول النار، يتشفون بإحراق المؤمنين فيها، ويشهدون ذلك العمل الشنيع والغرضُ تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة "أصحاب الأخدود" وعيدًا للكفار، وتسليةً للمؤمنين المعذبين، ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي وما كان لهم ذنب ولا انتقموا منهم إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الغالب الذي لا يُضام من لاذ بجنابه، المحمود في جميع أقواله وأفعاله، والغرضُ أن سبب البطش بهم، وتحريقهم بالنار، لم يكن إلا إيمانهم بالله الواحد الأحد، وهذا ليس بذنب يستحقون به العقوبة، ولكنه الطغيان والإجرام ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذا الإله القادر المالك لجميع الكائنات، المستحق للحمد والثناء، قال في البحر: وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه تعالى ﴿عَزِيزًا﴾ أي غالبًا قادرًا يُخشى عقابه ﴿حَمِيدًا﴾ أي منعمًا يجب له الحمد على نعمه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، وإنما ذكر ذلك تقريرًا؛ لأن ما نقموه منهم هو الحقُّ الذي لا ينقمه إلا مبطلٌ منهمك في الغي[2] ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي هو تعالى مطلع على أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية من شئونهم، وفيه وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للمجرمين.. ثم شدد تعالى النكير على المجرمين الذين عذبوا المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم، ولهم العذاب المحرق بإحراقهم المؤمنين.. ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لهم البساتين والحدائق الزاهرة، التي تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، قال الطبري: هي أنهار الخمر واللبن والعسل[3] ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم بغاية المطلوب، الذي لا سعادة ولا فوز بعده.. ثم أخبر تعالى عن انتقامه الشديد من أعداء رسله وأوليائه فقال ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي إن انتقام الله وأخذه الجبابرة والظلمة - بالغ الغاية في الشدة، قال أبو السعود: البطش: الأخذ بعنف، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة

---

(١) خلاصة القصة أن ملكًا طاغيًا كافرًا أسلم أهل بلده، فأمر بالأخدود فشُق في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران، ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار، فمن لم يرجع عن دينه طلقوه فيها ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق، انظر تفصيل القصة في صحيح مسلم.

(٢) البحر المحيط ٨/٤٥٦. (٣) تفسير الطبري ٣٠/٨٨.

صيغة المبالغة مثل ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وأمثال ذلك.

توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ .. إلخ وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع والله أعلم.

تم بعونه تعالى تفسير سورة البروج

بين يدي السورة

هذه السورة الكريمة من السور المكية، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، على أن كل إنسان قد وكّل به من يحرسه، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ثم ساقت الأدلة والبراهين على قدرة رب العالمين على إعادة الإنسان بعد فنائه ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

ثم أخبرت عن كشف الأسرار، وهتك الأستار في الآخرة، حيث لا معين للإنسان ولا نصير ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين، وبيّنت صدق هذا القرآن، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

اللغَة: ﴿الطَّارِقِ﴾ مأخوذ من الطَّرْق بمعنى الضرب بشدة ومنه المطرقة، وكل ما جاء بليل يسمى طارقاً ﴿دَافِقٍ﴾ مصبوب بقوة وشدة يقال: دفق الماء دفقاً إذا انصب بدفع وشدة ﴿التَّرَائِبِ﴾ عظام الصدر جمع تريبة مثل فصيلة وفصائل قال امرؤ القيس:

ترائبها مصقولة كالسجنجل

(١) روح المعاني للألوسي (٣٠/٩٧).

المبالغ في الشقاوة ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي الذي يدخل نار جهنم المستعرة، العظيمة الفظيعة، قال الحسن: النار الكبرى نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا[1] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة، بل هو دائم في العذاب والشقاء[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي قد فاز من طهَّر نفسه بالإيمان، وأخلص عمله للرحمن ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي وذكر عظمة ربه وجلاله، فصلى خشوعًا وامتثالاً لأمره ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فتشتغلون لها وتنسون الآخرة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي والحال أن الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى؛ لأن الدنيا فانية، والآخرة باقية، والباقي خيرٌ من الفاني، فكيف يؤثر عاقلٌ ما يفنى على ما يبقى؟ وكيف يهتم بدار الغرور، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود؟ قرأ ابن مسعود هذه الآية فقال لأصحابه: أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قالوا: لا، قال: لأن الدنيا أُحضرت وعُجلت لنا طعامها، وشرابها، ونساؤها، ولذاتها، وبهجتها، وإن الآخرة غُيِّبت وزُويت عنا، فأحببنا العاجل، وتركنا الآجل[3] ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ أي إن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت فيه الشرائع، وسطرته الكتب السماوية، كما سطره هذا الكتاب المجيد.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق ﴿لَا يَمُوتُ﴾ ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ وكذلك ﴿الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ و﴿النَّارَ ... الْكُبْرَى﴾

٣ - المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾.

٤ - حذف المفعول ليفيد العموم في قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ وفي ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ لأن المراد خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

٥ - السجع غير المتكلف وهو كثير في القرآن مثل ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ وهو من المحسنات البديعية

تَنْبِيه: صحف موسى غير التوراة، وقد ورد أنه أعطي عشر صحف وكانت كلها عِبَرًا: قال أبو ذر: سألت رسول الله ﷺ عن صحف موسى ما كانت؟ قال: «كانت عِبَرًا كلها «عجبتُ لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل!!»».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعلى»

---

(١) البحر المحيط (٨/٤٥٩).

(٢) قال الطبري: العرب إذا وصفت الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا: لا هو حي ولا هو ميت فخاطبهم الله بما يعرفون. الطبري (٣٠/١٥٩).

(٣) تفسير الخازن (٤/٣٢٦).

والآخرة[1] ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أي ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- أسلوب التشويق ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾؟

٢- المجاز المرسل بإطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ المراد أصحابها.

٣- الطباق في الحرف بين ﴿إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ .. ﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

٤- جناس الاشتقاق «فذكر .. مذكر» وبين «يعذبه .. العذاب».

٥- المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾

٦- السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ الخ.

تنبيه: روي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما قدم الشام، أتاه راهب شيخ كبير عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقال له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين إنه نصراني؟ فقال: ذكرتُ قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ فبكيت رحمة عليه[2].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الغاشية»

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي:

١- ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله كقوم «عاد، وثمود، وقوم فرعون» وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ...﴾ الآيات.

٢- بيان سُنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر، والغنى والفقر، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ...﴾ الآيات.

٣- الآخرة وأهوالها وشدائدها، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، وبيان مآل النفس الشريرة، والنفس الكريمة الخيِّرة ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ إلى نهاية السورة الكريمة.

---

(١) تفسير القرطبي (٣٧/١٩).

(٢) انظر مختصر ابن كثير (٣/٦٣٦).

قال الله تعالى: ﴿والفجر * وليال عشر﴾ .. إلى .. ﴿فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾ من آية (١) إلى آية (٣٠) نهاية السورة الكريمة.

اللغة: ﴿حجر﴾ عقل ولب، قال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر، إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، وأصل الحجر: المنع، وسمي العقل حجرًا لأنه يمنع عن السفه، قال الشاعر:

وكيف يرجى أن تتوب وإنما ... يرجى من الفتيان من كان ذا حجر

﴿جابوا﴾ قطعوا ومنه قولهم: فلان يجوب البلاد أي يقطعها ﴿التراث﴾ الميراث ﴿لمًّا﴾ شديدًا وأصله: الجمع ومنه قولهم: لمّ الله شعثه ﴿جمًّا﴾ كثيرًا عظيمًا كبيرًا[1]، قال الشاعر:

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا ... وأي عبد لك ما ألمّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد * فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلا لما * وتحبون المال حبا جما * كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدمت لحياتي * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد * يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾.

التفسير: ﴿والفجر * وليال عشر﴾ هذا قسمٌ أي أُقسم بضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج[2] قال المفسرون: أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الرب، وبالليالي الفاضلة المباركة وهي عشر ذي الحجة؛ لأنها أفضل أيام السنة، كما ثبت في صحيح البخاري «ما من أيام العمل الصالح أحبُّ إلى الله فيهن من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهادُ في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» ﴿والشفع والوتر﴾ أي وأُقسم بالزوج والفرد من كل شيء، فكأنه تعالى أقسم بكل شيء، لأن الأشياء إما زوجٌ وإما فردٌ، أو هو قسمٌ بالخلق والخالق، فإن الله تعالى واحد «وتر»

---

[1] القرطبي (٢٠/٤٣).

[2] هذا قول الجمهور وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: هي العشر الأخير من رمضان لأن فيها ليلة القدر، وهي رواية أيضًا عن ابن عباس، والأول أرجح.

ذمٌّ لهم لتكالبهم على المال، وبخلهم بإنفاقه ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، ﴿كَلَّا﴾ للردع أي ارتدعوا أيها الغافلون وانزجروا عن ذلك، فأمامكم أهوال عظيمة في ذلك اليوم العصيب، وذلك حين تزلزل الأرض وتحرك تحريكًا متتابعًا. قال الجلال: أي زلزلت حتى ينهدم كل بناء عليها وينعدم[1] ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد، وجاءت الملائكة صفوفًا متتابعة صفًا بعد صف، قال في التسهيل: قال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييف ولا تمثيل[2]. وقال ابن كثير: تقوم الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم محمد ﷺ فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا[3] ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وأحضرت جهنم ليراها المجرمون، كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ وفي الحديث «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها»[4] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب، والموقف العصيب يتذكر الإنسان عمله، ويندم على تفريطه وعصيانه، ويريد أن يقلع ويتوب ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي ومن أين يكون له الانتفاع بالذكرى وقد فات أوانها؟! ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي يقول نادمًا متحسرًا: يا ليتني قدمت عملًا صالحًا ينفعني في آخرتي، لحياتي الباقية قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي ففي ذلك اليوم ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي ولا يقيد أحدٌ بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر الفاجر، وهذا في حق المجرمين من الخلائق، فأما النفس الزكية المطمئنة فيقال لها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي يا أيتها النفس الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله، التي لا يلحقها اليوم خوفٌ ولا فزع ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضيةً بما أعطاك الله من النعم، مرضيةً عنده بما قدمت من عمل، قال المفسرون: هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت، فيقال للمؤمن عند احتضاره تلك المقالة ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي فادخلي في زمرة عبادي الصالحين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ أي وادخلي جنتي دار الأبرار الصالحين.

البَلَاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام التقريري ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟

٢- الطباق بين «الشفع.. والوتر».

٣- جناس الاشتقاق ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ.. الذِّكْرَى﴾.

٤- المقابلة ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ

---

(١) تفسير الجلالين (٢/ ٣١٨).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٩٨).

(٣) مختصر ابن كثير (٣/ ٦٣٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

اللغة: ﴿كَبَدٍ﴾ الكبدُ: الشدة والمشقة، وأصله من كبد الرجل كبدًا إذا وجعته كبده، ثم استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه المكابدة لمقاساة الشدائد ﴿اقْتَحَمَ﴾ الاقتحام: الدخول بسرعة وشدة، يقال: اقتحم الأمر، واقتحم الحصن إذا رمى نفسه فيه بدون روية ﴿الْعَقَبَةَ﴾ الطريق الوعر في الجبل ﴿فَكُّ﴾ الفك: تخليص الشيء من الشيء، يقال: فككت الحبل، وفككت الأسير أي خلصته من الأسر ﴿مَسْغَبَةٍ﴾ مجاعة يقال: سغب الرجل إذا جاع، وقال الراغب: هو الجوع من التعب[1] ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ افتقار يقال: ترب الرجل إذا افتقر ولصق بالتراب، وأترب إذا استغنى وكذلك أثرى[2] ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة، من أوصد الباب إذا أغلقه وأطبقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾

التفسير: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ هذا قسمٌ، أقسم سبحانه بالبلد الحرام «مكة» التي شرّفها الله تعالى بالبيت العتيق - قبلة أهل الشرق والغرب - وجعلها مهبط الرحمات، وإليها تجبى ثمرات كل شيء، وجعلها حرمًا آمنًا، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض[3]، فلما استجمعت تلك المزايا والفضائل أقسم الله تعالى بها، قال في التسهيل: أراد بالبلد «مكة» باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها[4] ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ أي وأنت يا محمد ساكنٌ ومقيم بمكة بلد الله الأمين، قال البيضاوي: أقسم بالبلد الحرام وقيّده بحلوله عليه السلام فيه - أي بإقامته فيه - إظهارًا لمزيد فضله، وإشعارًا بأن شرف المكان بشرف أهله[5] ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي وأقسم بآدم وذريته الصالحين، قال مجاهد: الوالد آدم عليه السلام ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ جميع ذريته قال ابن كثير: وما ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن وهو «آدم» أبو البشر وولده[6] وقال الخازن: أقسم الله تعالى بمكة لشرفها وحرمتها، وبآدم وبالأنبياء والصالحين من ذريته؛ لأن الكافر - وإن كان من ذريته - لا حرمة له حتى يقسم به[7] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لقد خلقنا الإنسان في تعب ومشقة،

---

[1] روح المعاني (٣٠/١٣٨). [2] البحر المحيط (٨/٤٧٣).

[3] في الحديث الذي رواه الشيخان «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار» الحديث.

[4] التسهيل لعلوم التنزيل (٤/١٩٩). [5] تفسير البيضاوي (٢/٦٦٠).

[6] مختصر تفسير ابن كثير (٣/٦٤٠). [7] تفسير الخازن (٤/٤٤٨).

اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.. ثم فسرها تعالى بقوله ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي هي عتق الرقبة في سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأسر والرق، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي أو أن يطعم الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. قال الصاوي: وقيَّد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس[1] ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي أطعم اليتيم الذي بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو المسكين الفقير العاجز الذي قد لصق بالتراب من فقره وضره، وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس، قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان، قال المفسرون: وفي الآية إشارة إلى أن هذه القُرَب والطاعات لا تنفع إلا مع الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ قرن بين الأبرار والفجار على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب، لبيان المفارقة الهائلة بين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء أي والذين جحدوا نبوة محمد وكذبوا بالقرآن هم أهل الشمال وأهل النار، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، وعبّر عنهم بضمير الغائب إشارة إلى أنهم غائبون عن حضرة قدسه، وكرامة أنسه ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي عليهم نار مطبقة مغلقة، لا يدخل فيها روح ولا ريحان، ولا يخرجون منها أبد الآباد[2]. اللهم لا تفتنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، ونجنا من ذلك يارب.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - زيادة ﴿لا﴾ لتأكيد الكلام، وهو مستفيض في كلام العرب ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي أقسم بهذا البلد، وفائدتها تأكيد القسم كقولك: لا والله ما ذاك كما تقول أي والله، قال امرؤ القيس: «لا وأبيك ابنة العامري».

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ فكلٌّ من الوالد والولد مشتق من الولادة.

٣ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ؟ ومثله ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ؟

٤ - الاستفهام التقريري للتذكير بالنعم ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ؟

٥ - الاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ؟ لأن الغرض تعظيم شأنها.

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر، وأصل النجد: الطريق المرتفع، استعير لكلٍّ منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٣٢٢.

(٢) انظر هذا التفسير من الطبري والقرطبي والبحر المحيط وتفسير ابن كثير وغيرها من أمهات كتب التفـ

٧- الاستعارة كذلك في قوله ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ لأن أصل العقبة: الطريق الوعر في الجبل، واستعيرت هنا للأعمال الصالحة لأنها تصعب وتشق على النفوس، ففيه استعارة تبعية.

٨- الجناس الناقص بين ﴿مَقْرَبَةٍ﴾ و ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ لتغير بعض الحروف.

٩- المقابلة اللطيفة بين ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وبين ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.

١٠- مراعاة الفواصل ورؤوس الآيات مثل ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ومثل ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البلد»

□ □ □
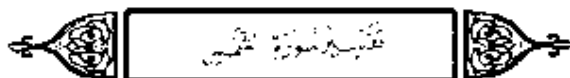
بين يدي السورة

* سورة الشمس مكية، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما:

١- موضوع النفس الإنسانية، وما جبلها الله عليه من الخير والشر، والهدى والضلال.

٢- وموضوع الطغيان ممثلاً في «ثمود» الذين عقروا الناقة فأهلكهم الله ودمرهم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا: فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض التي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* ثم ذكر تعالى قصة ثمود قوم صالح حين كذبوا رسولهم، وطغوا وبغوا في الأرض، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزة لرسوله صالح عليه السلام، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقي عبرة لمن يعتبر، وهو نموذج لكل كافر فاجر مكذب لرسل الله.

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، لأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

اللغة: ﴿وَضُحَاهَا﴾ ضوءها، والضحى: وقت ارتفاع الشمس أول النهار، قال المبرد: الضحى مشتق من الضِّح وهو نور الشمس[١] ﴿طَحَاهَا﴾ بسطها ومدها، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٣٠/١٤٠.

أن وهبها العقل الذي تميز به بين الخير والشر، والتقوى والفجور، ولهذا قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي وعرَّفها الفجور والتقوى، وما تميز به بين رشدها وضلالها، قال ابن عباس: بيَّن لها الخير والشر، والطاعة والمعصية، وعرَّفها ما تأتي وما تتقي. قال المفسرون: أقسم سبحانه بسبعة أشياء: «الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، والنفس البشرية» إظهاراً لعظمة قدرته، وانفراده بالألوهية، وإشارةً إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعظم نفعها وأنها لا بد لها من صانع ومدبر لحركاتها وسكناتها. وقال الإمام الفخر: لما كانت الشمس أعظم المحسوسات، ذكرها تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها، ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة، ووصفها - جلَّ وعلا - بصفات ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته، كما يليق به جلَّ جلاله، فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جلَّ شأنه[1] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ هذا هو جواب القسم أي لقد فاز وأفلح من زكَّى نفسه بطاعة الله، وطهَّرها من دنس المعاصي والآثام ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي وقد خسر وخاب من حقَّر نفسه بالكفر والمعاصي، وأوردها موارد الهلاك؛ فإنَّ من طاوع هواه، وعصى أمر مولاه، فقد نقص من عداد العقلاء، والتحق بالجهلة الأغبياء. ثم ضرب تعالى مثلاً لمن طغى وبغى، ولم يطهر نفسه من دنس الكفر والعصيان، فذكر «ثمود» قوم صالح عليه السلام فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي كذَّبت ثمود نبيها بسبب طغيانها ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي حين انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط يعقر الناقة، قال ابن كثير: وهو «قدار بن سالف» الذي قال الله فيه: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ وكان عزيزاً شريفاً في قومه، ورئيساً مطاعاً فيهم، وهو أشقى القبيلة[2] ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي فقال لهم صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سُقياها أي شربها ونصيبها من الماء، كما قال تعالى ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي فكذبوا نبيهم صالحاً وقتلوا الناقة، ولم يلتفتوا إلى تحذيره ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أي فأهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم، قال الخازن: والدمدمة: هلاك باستئصال، والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقاً فلم يفلت منهم أحد[3] ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي فسوَّى بين القبيلة في العقوبة فلم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي ولا يخاف تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون؛ لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «الشمس والقمر»، «الليل والنهار» وبين «فجورها وتقواها».

---

[1] التفسير الكبير للرازي. [2] مختصر تفسير ابن كثير (٣/٦٤٥).
[3] الخازن (٤/٣٦٥).

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وبين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وبين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وبين ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وكلٌّ من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية.

٣ - الإضافة للتكريم والتشريف ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نسبت إلى الله تشريفًا لأنها خرجت من صخرٍ أصم معجزةً لصالح عليه السلام.

٤ - التهويل والتفظيع ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ فإن التعبير بالدمدمة يدل على هول العذاب.

٥ - السجع المرصّع مراعاة للفواصل ورؤوس الآيات وهو ظاهر جليٌّ في السورة الكريمة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الشمس»

بين يدي السورة
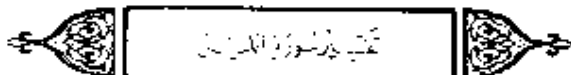
* سورة الليل مكية، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذ يغشى الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم تعالى أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

* ثم وضحت سبيل السعادة وسبيل الشقاء، ورسمت المنهج القرآني لطالب السعادة ونجاته، وأوصاف الأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها، وثروتهم التي كدسوها، وهي لا تنفعهم في الآخرة شيئًا، وذكّرتهم بحكمة الله في توضيح معالم طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾.

* ثم حذّرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ممن كذّب بآياته ورسوله، وأنذرتهم من نارٍ حامية تتوهج من شدة حرّها، لا يدخلها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي، المعرض عن هداية الله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح، الذي ينفق ماله في وجوه الخير، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى

عليها، لا شعور لها فإن الأجزاء الأصلية في المنيّ متساوية، فتكوين المولود من عناصر واحدة تارة ذكرًا، وتارة أنثى - دليلٌ على أن واضع هذا النظام عالم بما يعمل، محكم لما يصنع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو جواب القسم أي إن عملكم لمختلف، فمنكم تقي ومنكم شقي، ومنكم صالح ومنكم طالح، ثم فسّره بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي فأما من أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتقى ربه فكفّ عن محارم الله، قال ابن كثير: أعطى ما أُمر بإخراجه، واتقى الله في أموره[1] ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وصدَّق بالجنة التي أعدَّها الله للأبرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه لعمل الخير، ونسهل عليه الخصلة المؤدية لليسر، وهي فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي وأمَّا من بخل بإنفاق ماله، واستغنى عن عبادة ذي الجلال، قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه عزَّ وجل ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي وكذَّب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي فسنهيئه للخصلة المؤدية للعسر، وهي الحياة السيئة في الدنيا والآخرة وهي طريق الشر، قال المفسرون: سمَّى طريقة الخير بيسرى لأن عاقبتها اليسر وهي دخول الجنة دار النعيم، وسمَّى طريقة الشرّ عسرى لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ استفهام إنكاري أي أيّ شيء ينفعه ماله إذا هلك وهوى في نار جهنم؟ هل ينقذه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إنَّ علينا أن نبيِّن للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضّح سبيل الرشد من سبيل الغي، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي إن لنا ما في الدنيا والآخرة، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي فحذرتكم يا أهل مكة نارًا تتوقد وتتوهج من شدة حرارتها ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي لا يدخلها للخلود فيها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي .. ثم فسّره تعالى بقوله: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي وسيبعد عن النار التقيُّ النقيُّ المبالغ في اجتناب الشرك والمعاصي .. ثم فسَّره تعالى بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليزكي نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي وليس لأحدٍ عنده نعمة حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق لوجه الله، قال المفسرون: نزلت الآيات في حق أبي بكر الصدّيق حين اشترى بلالًا وأعتقه في سبيل الله، فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليدٍ كانت له عنده! فنزلت ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي ولسوف يعطيه الله في الآخرة ما يرضيه، وهو وعدٌ كريم من ربٍّ رحيم.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الطباق بين لفظ ﴿الْأَشْقَى﴾ و ﴿الْأَتْقَى﴾ وبين «اليسرى» و «العسرى».

٢- المقابلة اللطيفة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ وبين ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ الآيات.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٦٤٦/٣).

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لأن اليسرى من التيسير فبينهما مجانسة.

٤ - حذف المفعول للتعميم ليذهب ذهن السامع كل مذهب ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ الآيات.

٥ - السجع الرصين غير المتكلف كقوله ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ الخ.

كان عمر رضي الله عنه يقول: أعتق سيدُنا سيدَنا! يريد أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً، فما أروع هذه النفوس! اللهم ارزقنا محبة أصحاب الرسول جميعاً.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الليل»

□ □ □

تفسير سورة الضحى

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون، بل هو عند الله رفيع القدر، عظيم الشأن والمكانة ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة، وما أعدَّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات، ومنها الشفاعة العظمى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

* ثم ذكَّرته بما كان عليه في الصغر، من اليتم، والفقر، والفاقة، والضياع، فآواه ربه وأغناه، وأحاطه بكلئه وعنايته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

* وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث، مقابل تلك النعم الثلاث: بالعطف على اليتيم، وبرحم المحتاج، وبمسح دمعة البائس المسكين ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو ختمٌ يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان.

اللغَة: ﴿سَجَىٰ﴾ سكن الليل: اشتد ظلامه ﴿قَلَىٰ﴾ أبغض، قال الراغب: القلى: شدة البغض يقال: قلاه ويقليه أي أبغضه[1] ﴿فَآوَىٰ﴾ ضمه إلى من يرعاه ﴿عَائِلًا﴾ فقيراً معدماً، وهو من اشتد به الفقر، قال جرير:

الله نزَّل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل[2]

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني. (٢) البحر المحيط ٨/٤٨٦.

﴿فلا تقهر﴾ تذله وتحقره ﴿فلا تنهر﴾ تزجره وتغلظ عليه في الكلام.

سبب النزول: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا فجاءت امرأة - وهي أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك!! لم أره قربك ليلتين أو ثلاثًا! فنزل الله عز وجل ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

التفسير: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أقسم تعالى بوقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطى كل شيء في الوجود، قال ابن عباس: ﴿سجى﴾ أقبل بظلامه[2] قال ابن كثير: هذا قسمٌ منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، وبالليل إذا سكن فأظلم وادلهمّ، وذلك دليلٌ ظاهر على قدرته تعالى[3] ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌّ على المشركين حين قالوا: هجره ربه، وهو جواب القسم ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي وللدارُ الآخرة خيرٌ لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا؛ لأن الآخرة باقية، والدنيا فانية، ولهذا كان عليه السلام يقول: «اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة» ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي سوف يعطيك ربك في الآخرة من الثواب، والكرامة، والشفاعة، وغير ذلك إلى أن ترضى، قال ابن عباس: هي الشفاعة في أمته حتى يرضى؛ لما روي أن النبي ﷺ ذكر أمته فقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك؟ - وهو أعلم - فأتى جبريل رسول الله ﷺ وسأله فأخبره رسول الله بما قال، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[4]، وفي الحديث «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[5] الحديث، قال الخازن: والأولى حملُ الآية على ظاهرها ليشمل خيري الدنيا والآخرة معًا، فقد أعطاه الله تعالى في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم، وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة، والمقام المحمود، وغير ذلك من خيري الدنيا والآخرة[6].. ثم لما وعده بهذا الوعد الجليل ذكّره بنعمه عليه في حال صغره ليشكر ربه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي ألم تكن يا محمد يتيمًا في صغرك، فآواك الله إلى عمك أبي طالب وضمّك إليه؟ قال ابن كثير: وذلك أن أباه

---

(١) الحديث في الصحيحين بدون ذكر اسم المرأة. (٢) تفسير الخازن (٤/ ٣٦٨).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٩). (٤) أخرجه مسلم.
(٥) أخرجه الشيخان. (٦) تفسير الخازن (٤/ ٣٦٠).

بين يدي السورة

* سورة الانشراح مكية، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله تعالى، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ، وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وتطهيره من الذنوب والأوزار، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقاه من أذى الفجار، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

* وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فآنسه بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

* وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله بعد انتهائه من تبليغ الرسالة، شكرًا لله على ما أولاه من النعم الجليلة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾

التفسير: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير أي قد شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان، ونور القرآن، كقوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال ابن كثير: أي نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا، واسعًا، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحًا، سمحًا، سهلًا، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق[1]، قال أبو حيان: شرحُ الصدر: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهو قول الجمهور؛ وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره وهو مرويٌّ عن ابن عباس[2] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل ﴿الَّذِي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٢).

(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٨٧) والرواية التي أشار إليها ذكرت في صحيح مسلم، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل - وهو يلعب مع الغلمان - فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره المرضعة - فقالوا: إن محمدًا قد قُتل! فاستقبلوه وهو منتقع اللون. أخرجه مسلم قال أنس: وكنت أرى أثر المخيط في صدره.

من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطًا فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة"[1].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الاستفهام التقريري للامتنان والتذكير بنعم الرحمن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلخ.

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ شبه الذنوب بحمل ثقيل يرهق كاهل الإنسان ويعجز عن حمله بطريق الاستعارة التمثيلية.

٣ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ نكر اليسر للتعظيم كأنه قال يسرًا كبيرًا.

٤ - الطباق الناقص بين لفظ «اليسر» و «العسر».

٥ - تكرير الجملة لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ويسمى هذا بالإطناب.

٦ - السجع المرصع مراعاة لرءوس الآيات ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ ومثلها ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الانشراح
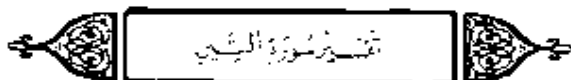
بين يدي السورة

* سورة التين مكية، وهي تعالج موضوعين بارزين هما:

الأول: تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

الثاني: موضوع الإيمان بالحساب والجزاء.

* ابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله وهي «بيت المقدس» و «جبل الطور» و «مكة المكرمة» على أن الله تعالى كرم الإنسان، فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل، وإذا لم يشكر نعمة ربه فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

* ثم وبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين في خلقه للإنسان في أحسن شكل، وأجمل صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

* وختمت ببيان عدل الله بإثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٣).

بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ ؟ وفيها تقرير للجزاء، وإثبات للمعاد.

اللغَة: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو جبل الطور الذي كلّم الله عليه موسى، ومعنى ﴿سِينِينَ﴾ المبارك ﴿تَقْوِيمٍ﴾ تعديل يقال: قوّم العود أي عدّله وجعله مستقيماً، وقوّمه الدهر جعله مرتاً حصيف الرأي وادعاً ﴿مَمْنُونٍ﴾ مقطوع ﴿الدِّينِ﴾ الجزاء مأخوذ من دان بمعنى جازى ومنه الحديث الشريف «كما تدين تُدان» أي كما تعمل تُجزى.

قال الله تعالى

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۞ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾

التفسِير: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ هذا قسمٌ أي أُقسم بالتين والزيتون لبركتهما وعظيم منفعتهما، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلونه، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت[1] وقال عكرمة: أقسم تعالى بمنابت التين والزيتون فإن التين يَنبُت كثيراً بدمشق، والزيتون ببيت المقدس[2] وهو الأظهر، ويدل عليه أن الله تعالى عطف عليه الأماكن «جبل الطور» و«البلد الأمين» فيكون قسماً بالبقاع المقدسة التي شرّفها الله تعالى بالوحي والرسالات السماوية ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي وأُقسم بالجبل المبارك الذي كلَّم الله عليه موسى وهو «طور سيناء» ذو الشجر الكثير، الحسن المبارك، قال الخازن: سمي «سينين» و«سيناء» لحسنه ولكونه مباركاً، وكلُّ جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء[3] ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي وأُقسم بالبلد الأمين «مكة المكرمة» التي يأمن فيها من دخلها على نفسه وماله كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ؟! قال الألوسي: هذه أقسام ببقاع مباركة شريفة، على ما ذهب إليه الكثيرون. فأما البلد الأمين فمكة المكرمة – حماها الله – بلا خلاف، وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويقال له: طور سيناء، وأما التين والزيتون فروي عن قتادة أن المراد بهما جبلان: أحدهما بدمشق، والثاني ببيت المقدس، وعبّر بالتين والزيتون عنهما، وقيل: المراد بهما الشجران المعروفان وهو قول ابن عباس ومجاهد، والغرض من القسم بتلك الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة ببعثة الأنبياء والمرسلين[4] وقال ابن كثير: ذهب بعض الأئمة إلى أن هذه محالُّ ثلاث، بعث الله في كلٍّ منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول: محلة التين والزيتون وهي «بيت المقدس» التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام، والثاني: طور سينين وهو «طور سيناء» الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران والثالث: البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل الله فيه محمداً ﷺ، وقد ذكر

---

(1) تفسير القرطبي ٢٠/١١٠.
(2) البحر المحيط ٨/٤٨٩.
(3) تفسير الخازن ٤/٢٦٦.
(4) روح المعاني ٣٠/١٧٣ بشيء من الإيجاز.

٦- السجع المرصَّع «البلد الأمين .. أسفل سافلين .. أحكم الحاكمين» والله أعلم.

لطيفة: ذكر الإمام القرطبي أن «عيسى الهاشمي» كان يحب زوجته حبًا شديدًا، فقال لها يومًا: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسن من القمر!! فاحتجبت منه وقالت: طلقتني، فحزن حزنًا شديدًا، وذهب إلى الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلِّقت، إلا رجلاً واحدًا من أصحاب «أبي حنيفة» فقد بقي ساكتًا، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت!! وردها إلى زوجها.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة التين»

بين يدي السورة

* سورة العلق وتسمى «سورة اقرأ» مكية وهي تعالج القضايا الآتية:
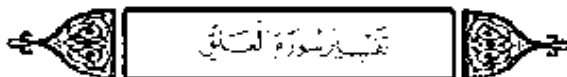
أولاً: موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ثانيًا: موضوع طغيان الإنسان بالمال وتمرده على أوامر الله.

ثالثًا: قصة الشقي «أبي جهل» ونهيه الرسول ﷺ عن الصلاة.

* ابتدأت السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم بإنزال هذا القرآن «المعجزة الخالدة» وتكريمه بأول النعماء وهو يتعبد ربه بغار حراء، حيث تنزّل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ إلى ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

* ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء، وتمرده على أوامر الله بسبب نعمة الغنى، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه على إحسانه، لا أن يجحد النعماء، وذكّرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى﴾.

* ثم تناولت قصة «أبي جهل» فرعون هذه الأمة، الذي كان يتوعد الرسول ويتهدده، وينهاه عن الصلاة، انتصارًا للأوثان والأصنام ﴿أرأيت الذي ينهى * عبدًا إذا صلى﴾ الآيات.

* وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر بأشد العقاب إن استمر على ضلاله وطغيانه، كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية﴾ إلى ختام السورة ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾.

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم، وختمت بالصلاة والعبادة، ليقترن العلم بالعمل، ويتناسق البدء مع الختام.

اللغة: ﴿عَلَقٍ﴾ جمع علقة وهي الدم الجامد، سميت علقة لأنها تعلق بالرحم ﴿لَنَسْفَعًا﴾ السفع: الجذب بشدة وقوة، قال أهل اللغة: سفعت بالشيء إذا قبضت عليه وجذبته جذبًا شديدًا، وسفع بناصية فرسه جذبها، قال الشاعر:

قومٌ إذا كثر الصياح رأيتهم ... ما بين ملجم مهره أو سافع[1]

والناصية: شعر مقدَّم الرأس ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ مأخوذ من الزَّبن وهو الدفع، والمراد بهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد، والعرب يطلقون هذا الاسم على من اشتد بطشه، قال الشاعر:

مطاعيم في القُصْوى، مطاعين في الوغى ... زبانيةٌ غُلْبٌ عظام حلومها[2]

سبب النزول: روي أن أبا جهل اللعين قال لأصحابه يومًا: هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ يريد هل يصلي ويسجد أمامكم - قالوا: نعم، فقال: واللاتِ والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأنَّ على رقبته، ولأعفرنَّ وجهه في التراب، فجاء يومًا فوجد رسول الله ﷺ يصلي، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه خندقًا من نار، وهولًا وأجنحة!! فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا» فأنزل الله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ...﴾ إلى آخر السورة[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۝١٩﴾.

التفسير: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هذا أول خطاب إلهي وجه إلى النبي ﷺ وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم، لأنه شعار دين الإسلام أي اقرأ يا محمد القرآن مبتدئًا ومستعينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق جميع المخلوقات، وأوجد جميع العوالم، ثم فسَّر الخلق تفخيمًا لشأن الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي خلق هذا الإنسان البديع الشكل، الذي هو أشرف المخلوقات من العلقة - وهي الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطبُّ الحديث أن المنيَّ الذي خلق منه الإنسان محتوٍ على حيوانات ودیدان صغيرة لا تُرى بالعين، وإنما ترى بالمجهر الدقيق "الميكرسكوب" وأن لها رأسًا وذنبًا، فتبارك الله أحسن الخالقين[4] قال القرطبي: خصَّ الإنسان بالذكر تشريفًا له، والعلقة قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمرُّ عليه[5]

---

(١) البحر المحيط (٨/٤٩١) (٢) روح المعاني (٣٠/١٨٨).
(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وانظر مختصر ابن كثير (٣/٦٥٨) والخازن (٤/٢٧٠).
(٤) انظر كتاب «الطب محراب الإيمان» ج ١ ص ٥٣
(٥) تفسير القرطبي (٢٠/١١٩).

٣- طباق السلب ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

٤- الكناية ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ كنى بالعبد عن رسول الله ﷺ ولم يقل: ينهاك تفخيمًا لشأنه وتعظيمًا لقدره.

٥- الاستفهام للتعجيب من شأن الناهي ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾؟

٦- المجاز العقلي ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي كاذب صاحبها خاطئ فأسند الكذب إليها مجازًا.

٧- السجع المرصع مثل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العلق»

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وعن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، لما فيها من الأنوار والتجليات القدسية، والنفحات الربانية، التي يفيضها البارئ جل وعلا على عباده المؤمنين، تكريمًا لنزول القرآن المبين، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، هي خير عند الله من ألف شهر![1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤﴾.

التفسير: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي نحن أنزلنا هذا القرآن المعجز في ليلة القدر والشرف، قال المفسرون: سميت ليلة القدر لعظمها وقدرها وشرفها، والمراد بإنزال القرآن: إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل إلى الأرض في مدة ثلاث وعشرين سنة، قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تعظيم وتفخيم لأمرها أي وما أعلمك يا محمد ما ليلة القدر والشرف؟ قال الخازن: وهذا على سبيل التعظيم لها والتشويق لخبرها كأنه قال: أي

---

(١) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٦٥٩، والقرطبي (٢٠/ ١٢٩).

وأما المندوبات: فإن تركها بدون نية خروج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها بنية وجه الله كان مأجورًا على تركها.

وأما المباحات: كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك، فإن فعلها بغير نية لم يكن له بها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفف عن الحرام.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البينة»

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان، كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا[1]، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد.

اللغة: ﴿زُلْزِلَتِ﴾ حركت تحريكًا عنيفًا ﴿أَثْقَالَهَا﴾ الموتى الذين في جوفها، جمع ثقل وهو الشيء يُحمل، ومنه ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ قال الأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ﴿يَصْدُرُ﴾ ينصرف ويخرج، والصدور ضد الورود، فالوارد الآتي، والصادر المنصرف ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين، جمع شت وشتات، جمعوا أشتاتًا أي متفرقين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

التفسير: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي إذا حركت الأرض تحريكًا عنيفًا، واضطربت اضطرابًا شديدًا، واهتزت بمن عليها اهتزازًا يقطع القلوب ويفزع الألباب، كقوله تعالى: ﴿إِذَا

(١) التفسير الكبير ٣٢/٥٩.

كنودٌ لنعماء الرجال ومن يكن ... كنودًا لنعماء الرجال يُبعّدِ

﴿بُعْثِرَ﴾ أي قُلِب، من بعثرت المتاع إذا جعلت أسفله أعلاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾

التفسير: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أي أقسمُ بخيل المجاهدين العاديات في الكرّ على العدو، يُسمع لأنفاسها صوتٌ جهير هو الضبح، قال ابن عباس: الخيل إذا عدت قالت: أحْ أحْ فذلك ضبحها[1]، قال أبو السعود: أقسم سبحانه بخيل الغزاة التي تعدو نحو العدو وتضبح ضبحًا وهو صوت أنفاسها عند عدوها[2] ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي فالخيل التي تخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها على الحجارة من شدة الجري ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ أي فالخيل التي تغير على العدو وقت الصبح قبل طلوع الشمس، قال الألوسي: هذا هو المعتاد في الغارات، كانوا يعدون ليلًا لئلا يشعر بهم العدو، ويهجمون صباحًا ليروا ما يأتون وما يذرون[3] ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو في الموضع الذي أغرن به ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي فتوسطن به جموع الأعداء، وأصبحن وسط المعركة.. أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة، تعظيمًا للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله، التي تعدو على أعداء الله، وتقدح النار بحوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح، فتثير الغبار، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع. أما الأمور التي أقسم عليها فهي قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ أي إن الإنسان لجاحد لنعم ربه، شديد الكفران، قال ابن عباس: جحودٌ لنعم الله، وقال الحسن: يذكر المصائب وينسى النعم[4] ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على كنوده، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي وإنه لشديد الحب للمال حريصٌ على جمعه، وهو عن عبادة الله وشكر نعمه لضعيفٌ متقاعس.. ثم بعد أن عدّد عليه قبائح أفعاله خوّفه فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي أفلا يعلم هذا الجاهل إذا أثير ما في القبور وأُخرج ما فيها من الأموات ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي وجُمع وأُبرز ما في الصدور من الأسرار والخفايا التي كانوا يسرونها ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي إن ربهم لعالم بجميع ما كانوا يصنعون، ويجازيهم عليه أوفر الجزاء، وإنما خص علمه بهم في ذلك اليوم - يوم القيامة - لأنه يوم الجزاء، بقصد الوعيد والتهديد، فهو تعالى عالم بهم في ذلك اليوم وغيره.

---

(١) القرطبي ٢٠/١٦٠. (٢) أبو السعود ٥/٢٨٠.
(٣) روح المعاني ٣٠/٢١٥. (٤) القرطبي ٢٠/١٦٠.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- التأكيد بإنّ واللام في مواضع مثل ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ زيادة في التقرير والبيان.

٢- الجناس غير التام بين ﴿لَشَهِيدٌ﴾ و ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وكذلك ﴿صُبْحًا﴾ و ﴿ضَبْحًا﴾.

٣- الاستفهام الإنكاري للتهديد والوعيد ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾؟

٤- التضمين ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ضمّن لفظ «خبير» معنى المجازاة أي يجازيهم على أعمالهم.

٥- توافق الفواصل مثل «شهيد، شديد» و «الصدور، القبور» إلخ ويسمى «السجع المرصّع» وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العاديات»
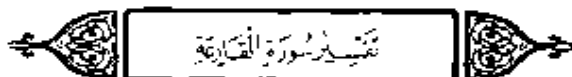
□ □ □

تفسير سورة القارعة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها، والآخرة وشدائدها، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام، كخروج الناس من القبور، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم.

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنتفش المتطاير في الهواء، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض، وقد قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالصوف المندوف، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب؟

* وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها، وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها.

اللغَة: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأصلُ القرع الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة، إذا وقع بهم أمر فظيع ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر المتفرق «العِهن» الصوف ذو الألوان أو المصبوغ «الهاوية» اسم لجهنم سميت بذلك لأن الناس يهوون بها أي يسقطون

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت موازين حسناته، وزادت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة، وهي الحياة السعيدة في جنان الخلد والنعيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي نقصت حسناته عن سيئاته، أو لم يكن له حسنات يعتدُّ بها ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوي في قعرها، سمَّاها أمًّا لأن الأم مأوى الولد ومفزعه، فنار جهنم تؤوي هؤلاء المجرمين، كما يأوي الأولاد إلى أمهم، وتضمهم إليها، كما تضم الأم الأولاد إليها، قاله أبو السعود. ﴿هَاوِيَةٌ﴾ اسم من أسماء النار، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها، روي أن أهل النار يهوون فيها سبعين خريفًا[1] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾؟ استفهام للتفخيم والتهويل أي وما أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسرها بقوله ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي هي نار شديدة الحرارة، قد خرجت عن الحد المعهود، فإن حرارة أي نار إذا سُعِّرت وأُلقي فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم، أجارنا الله منها بفضله وكرمه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام للتفخيم والتهويل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾؟

٢- وضع الظاهر مكان الضمير للتخويف والتهويل ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ﴾ والأصل أن يقال: القارعة ما هي؟

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، ومثله ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ أي في تفرقها وخفة سيرها فيسمى مرسلًا مجملًا.

٤- المقابلة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ثم قابلها بقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وهو من المحسنات البديعية.

٥- المجاز العقلي ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي يرضى بها صاحبها، ففيه إسناد مجازي.

٦- الاحتباك وهو أن يحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر فقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ حذف من الأولى فأمه الجنة وذكر فيها ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ وحذف من الآية الثانية فهو في عيشة ساخطة وذكر ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فحذف من كل نظير ما أثبته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية كذلك.

٧- توافق الفواصل في الحرف الأخير، وهو واضح في السورة الكريمة.

لطيفة: الجمهور على أن الميزان الحقيقي له كفتان ولسان، توزن به الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، وروي عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة،

---

(1) تفسير أبي السعود ٥/٢٩٤، وعن قتادة أن المراد بقوله ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسًا، والأول أظهر.

وبالأعمال السيئة على صور قبيحة، فتوضع في الميزان، فمن رجحت حسناته سعد، ومن رجحت سيئاته شقي، والله أعلم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القارعة»
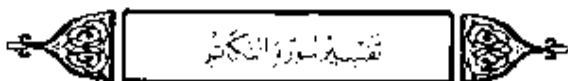
بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم، ويأتيهم فجأة وبغتة، فينقلهم من القصور إلى القبور.

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

* وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم باشتغالهم بالفانية عن الباقية ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾.

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة، والتي لا ينجو منها إلا المؤمن الذي قدّم صالح الأعمال.

اللغة: ﴿ألهاكم﴾ الإلهاء: الشغل والانصراف عن الشيء بما يدعو إليه الهوى، وأصل اللهو الغفلة ثم شاع في كل شاغل، قال الراغب: اللهو: ما يشغلك عما يعنيك ويهمك ﴿التكاثر﴾ التفاخر بكثرة المال والجاه وهو بمعنى المكاثرة ﴿المقابر﴾ القبور جمع مقبرة، والقبور جمع القبر، قال الشاعر:

أرى أهل القصور إذا أُميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور

أبوا إلا مباهاة وفخراً على الفقراء حتى في القبور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧) ثم لتسألن يومئذ عن النعيم (٨)﴾

التفسير: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ أي شغلكم أيها الناس التفاخر بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حتى زرتم المقابر﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودفنتم في المقابر، والجملة خبر يراد به الوعظ والتوبيخ، قال القرطبي: المعنى: شغلكم المباهاة بكثرة

بالمال والأولاد عن طاعة الله، حتى متُّم ودُفنتم في المقابر(١) ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي ارتدعوا أيها الناس وانزجروا عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، واشتغالكم بالفاني عن الباقي ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد أي سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده، قال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب(٢) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذي لا شك فيه ولا امتراء، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أي لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُدعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها كما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٣) الحديث، قال في التسهيل: وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة، وإنما حذف لقصد التهويل، فيقدِّر السامع أعظم ما يخطر بباله(٤) كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي أُقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عياناً ويقيناً، قال الألوسي: هذا جواب قسمٍ مضمر، أكَّد به الوعيد، وشدَّد به التهديد، وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً(٥) أي والله لترونَّ الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية، قال في البحر: زاد التوكيد بقوله ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى(٦) ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي ثم لتُسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأمن والصحة، وسائر ما يُتلذذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الوعظ والتوبيخ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقد خرج الخبر عن حقيقته إلى التذكير والتوبيخ.

٢- التكرار للتهديد والإِنذار ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول العظيم لعبده: أقول لك ثم أقول لك لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزِّل منزلة المغايرة فعطف بـ (ثم).

٣- حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للتهويل ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو رأيتم ما تشيب له الرءوس، وتفزع له النفوس من الشدائد والأهوال.

---

(١) القرطبي (٢٠/١٦٨) وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر وصرتم من أهلها

(٢) القرطبي (٢٠/١٧٤)

(٣) جزء من حديث رواه البخاري

(٤) التسهيل (٤/٢١٦)

(٥) الألوسي (٣٠/٢٢٥)

(٦) البحر المحيط (٨/٥٠٨)

٤- الإطناب بتكرار الفعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ لبيان شدة الهول.

٥- الكناية ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كنّى عن الموت بزيارة القبور، والمراد: حتى متُّم.

٦- المطابقة بين «النعيم» و«الجحيم».

٧- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الترمذي عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟».

لطيفة: روى مسلم عن أبي هريرة قال: «خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال ﷺ: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوعُ يا رسول الله، قال: وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما! قوموا، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني! فانطلق فجاءهم بعذق - عنقود - فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا، وأخذ المدية - السكين - فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب! فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التكاثر»

□ □ □

تفسير سورة العصر

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره.

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان، وما فيه من أصناف العجائب، والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهي «الإيمان» و«العمل الصالح» و«التواصي بالحق» و«الاعتصام بالصبر» وهي أسس الفضيلة، وأساس الدين، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

التفسير: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي أقسم بالدهر والزمان لما فيه من أصناف الغرائب والعجائب، والعبر والعظات، على أن الإنسان في خسران؛ لأنه يفضّل العاجلة على الآجلة، وتغلب عليه الأهواء والشهوات، قال ابن عباس: العصر: هو الدهر أقسم تعالى به لاشتماله على أصناف العجائب، وقال قتادة: العصرُ: هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة الباهرة، والعظة البالغة[1].. وإنما أقسم تعالى بالزمان لأنه رأس عمر الإنسان، فكل لحظة تمضي فإنها من عمرك ونقص من أجلك، كما قال القائل:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكلُّ يوم مضى نقصٌ من الأجلِ

قال القرطبي: أقسم الله عز وجل بالعصر - وهو الدهر - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع، وقيل: هو قسمٌ بصلاة العصر لأنها أفضل الصلوات[2] ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال، فهؤلاء هم الفائزون لأنهم باعوا الخسيس بالنفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات عوضًا عن الشهوات العاجلات ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو الخير كله: من الإيمان، والتصديق، وعبادة الرحمن ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب، وعلى فعل الطاعات، وترك المحرمات.. حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكمَّل غيره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة.

البَلاغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- إطلاق البعض وإرادة الكل ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾ أي الناس بدليل الاستثناء.

٢- التنكير للتعظيم ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في خسرٍ عظيم ودمار شديد

٣- الإطناب بتكرار الفعل ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لإبراز كمال العناية به.

٤- ذكر الخاص بعد العام ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ بعد قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ فإن الصبر داخل في عموم الحق إلا أنه، افرده بالذكر إشادة بفضيلة الصبر.

---

(١) البحر (٨/٥٠٩). (٢) القرطبي (٢٠/١٧٩).

٥- السجع غير المتكلف مثل «العصر، الصبر، خسر» وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: أخرج البيهقي في الشعب عن «أبي حذيفة» - وكانت له صحبة - قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العصر»

□ □ □

بين يدي السورة

* سورة الهمزة مكية، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس، ويأكلون أعراضهم، بالطعن والانتقاص والازدراء، وبالسخرية والاستهزاء فعل السفهاء.

* كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال، وتكديس الثروات، كأنهم مخلدون في هذه الحياة، يظنون - لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم - أن المال سيخلدهم في الدنيا.

* وختمت بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، حيث يدخلون نارًا لا تخمد أبدًا، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر، لأنها الحطمة نار سقر!

اللغة: ﴿هُمَزَةٍ﴾ الهمَّاز: الذي يغتاب الناس ويطعن في أعراضهم، وبناء «فُعَلة» يدل على الاعتياد فلا يقال: لُعنة وضُحكة إلا للمكثر المعتاد ﴿لُمَزَةٍ﴾ اللماز: الذي يعيب الناس ويزدري منهم بالحاجب والعين ﴿الْحُطَمَةِ﴾ نار جهنم سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلقى فيها وتحطمه وتهشمه ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة مغلقة، من أوصد الباب إذا أغلقه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

التفسير: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ أي عذاب شديد وهلاك ودمار لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن في أعراضهم، أو يهمزهم سرًّا بعينه أو حاجبه، قال المفسرون: نزلت السورة في «الأخنس بن شريق» لأنه كان كثير الوقيعة في الناس، يلمزهم ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والحكم عامٌّ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ أي الذي

---

(١) انظر القرطبي (٢٠/١٨٣)، والرازي (٣١/٩١).

جمع مالاً كثيرًا وأحصاه، وحافظ على عدده لئلا ينقص فمنعه من الخيرات. قال الطبري: أي أحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حق الله فيه ولكنه جمعه فأوعاه وحفظه[1] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي يظن هذا الجاهل لفرط غفلته أن ماله سيتركه مخلدًا في الدنيا لايموت ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي ليرتدع عن هذا الظن فوالله ليطرحنَّ في النار التي تحطم كل ما يُلقى فيها وتلتهمه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تفخيمٌ وتهويلٌ لشأنها أي وما الذي أعلمك ما حقيقة هذه النار العظيمة؟ إنها الحطمة التي تحطم العظام وتأكل اللحوم، حتى تهجم على القلوب، ثم فسرها بقوله. ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي هي نار الله المسعَّرة بأمره تعالى وإرادته، ليست كسائر النيران فإنها لا تخمد أبدًا، وفي الحديث «أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرت، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أُوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة»[2] ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها، قال القرطبي: وخصَّ الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فهم إذًا أحياء في معنى الأموات[3] ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي إن جهنم مطبقة مغلقة عليهم، لا يدخل إليهم رَوْح ولا ريحان ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي وهم موثوقون في سلاسل وأغلال، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، بعد إطباق أبواب جهنم عليهم، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم، وتمدد العمد إيذانًا بالخلود إلى غير نهاية.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - صيغة المبالغة «همزة، لمزة» لأن بناء «فُعَلة» يدل على أنها عادة مستمرة.

٢ - التنكير للتفخيم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ أي مالاً كثيرًا لا يكاد يحصى.

٣ - التفخيم والتهويل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾؟ تهويلاً لشأن جهنم.

٤ - الجناس غير التام بين ﴿هُمَزَةٍ﴾ و ﴿لُمَزَةٍ﴾ ويسمى الجناس الناقص.

٥ - توافق الفواصل مثل «عدده، أخلده، الموقدة، ممددة» ويسمى بالسجع.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الهمزة»

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/١٨٩).

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، قال: والأصح أنه موقوف.

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/١٨٥).

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة «أصحاب الفيل» حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فردَّ الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل على جيش «أبرهة الأشرم» وجنوده أضعف مخلوقاته، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة، ولكنها أشدُّ فتكًا وتدميرًا من الرصاصات القاتلة، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم، وكان ذلك الحادث التاريخي الهام في عام ميلاد سيد الكائنات محمد بن عبد الله، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية، وكان من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

اللغة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعات جماعات بعضها في إثر بعض، قال الجوهري: وهو من الجمع الذي لا واحد له يقال: جاءت إبلك أبابيل أي فرقًا وجماعات، قال الشاعر:

كادت تهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل [1]

﴿عَصْفٍ﴾ تبن متحجر، العصف: ورق الزرع بعد الحصاد كالتبن وقشر الحنطة، سمي عصفًا لأن الريح تعصف به فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي ألم يبلغك يا محمد وتعلم علمًا يقينيًا كأنه مشاهد بالعين ماذا صنع الله العظيم الكبير بأصحاب الفيل الذين قصدوا الاعتداء على البيت الحرام؟ قال المفسرون: روي أن «أبرهة الأشرم» ملك اليمن، بنى كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحجيج، فجاء رجلٌ من كنانة وتغوَّط فيها ليلًا ولطخ جدرانها بالنجاسة احتقارًا لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبة، وجاء مكة بجيش كبير على أفيال، يتقدمهم فيل هو أعظم الفيلة، فلما وصل قريبًا من مكة فرَّ أهلها إلى الجبال خوفًا من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش أبرهة طيورًا سودًا، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر في منقاره وحجران في رجليه، ترميهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يدخل في رأس الرجل ويخرج من دبره فيترميه جثة هامدة، حتى أهلكهم الله ودمَّرهم عن آخرهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين [2] قال أبو السعود: وتعليق الرؤية بكيفية فعله جل وعلا ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ لا بنفسه بأن

---

(١) البحر المحيط ٨/٥١١.

(٢) انظر التفسير الكبير (٣٢/٩٦) والقرطبي (٢٠/١٨٧).

يقول: ﴿ألم تر ما فعل ربك﴾ إنما للتهويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة، وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وشرف رسوله ﷺ فإن ذلك من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي عليه الصلاة والسلام[1] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي ألم يهلكهم ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي وسلط عليهم من جنوده طيرًا أتتهم جماعات، متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات نافذة لا تنزل على أحد إلا قتلته ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي فجعلهم كورق الشجر الذي عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم راثته، وأهلكهم عن بكرة أبيهم، وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمائه، وفيها مع ذلك عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه. قال في البحر: كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، إرهاصًا بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم السلام، وقد أهلكهم الله تعالى بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[2].

البَلاَغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام للتقرير والتعجيب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ...﴾ الآية.

٢- الخطاب للنبي ﷺ بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تشريف للنبي العظيم، وإشادة بقدرة الله تعالى.

٣- التشبيه المرسل المجمل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤- توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل «الفيل، تضليل، سجيل، أبابيل» إلخ.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الفيل

(١) أبو السعود ٥/ ٢٨٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٢.

بين يدي السورة

* تحدثت هذه السورة عن نعم الله العظيمة على أهل مكة، حيث كانت لهم رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة، وقد أكرم الله تعالى قريشًا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما: نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار ﴿فليعبدوا رب هذا البيت ۝ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لإيلاف قريش ۝ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ۝ فليعبدوا رب هذا البيت ۝ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.

التفسير: ﴿لإيلاف قريش ۝ إيلافهم﴾ هذه اللام متعلقة بالفعل الذي بعده ﴿فليعبدوا﴾ ومعنى الإيلاف: الإلف والاعتياد يقال: ألف الرجل الأمر إلفًا وإلافًا، وآلفه غيره إيلافًا والمعنى: من أجل تسهيل الله على قريش وتيسيره لهم ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما قال تعالى: ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ أي في رحلتي الشتاء والصيف، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه، وهم أهل الله لأنهم ولاة الكعبة، فلا تؤذوهم ولا تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، وردّ كيدهم في نحورهم، ازداد وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليوحدوه ويشكروه ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أي فليعبدوا الله المعبود الجليل، رب هذا البيت العتيق، وليجعلوا عبادتهم شكرًا لهذه النعمة الجليلة التي خصهم بها. قال المفسرون: وإنما دخلت الفاء ﴿فليعبدوا﴾ لما في الكلام من معنى الشرط كأنه قال: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه من أجل إيلافهم الرحلتين التي هي من أعظم نعمه عليهم، لأنهم في بلاد لا زرع فيها ولا ضرع، ولهذا قال بعده ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ أي هذا الإله الذي أطعمهم بعد شدة جوع، وآمنهم بعد شدة خوف، فقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد، ولا يُغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم كما قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم﴾ وذلك ببركة دعوة أبيهم الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رب اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ ألا يجب على قريش أن يفردوا بعبادة هذا الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟!

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - الطباق بين «الشتاء والصيف» وبين الجوع والإِطعام ﴿أطعمهم من جوع﴾ وبين الأمن والخوف ﴿وآمنهم من خوف﴾.

٢ - الإِضافة للتكريم والتشريف ﴿رب هذا البيت﴾.

٣ - تقديم ما حقه التأخير ﴿لإِيلاف قريش﴾ والأصل «فليعبدوا رب هذا البيت لإِيلافهم رحلة الشتاء والصيف» فقدم الإِيلاف تذكيراً بالنعمة.

٤ - التنكير في لفظة ﴿جوع﴾ ولفظة ﴿خوف﴾ لبيان شدتهما أي جوع شديد، وخوف عظيم.

لطيفة: قال الإمام الفخر: اعلم أن الإِنعام على قسمين:

أحدهما: دفع ضر، وهو ما ذكره في سورة الفيل.

والثاني: جلب نفع وهو ما ذكره في هذه السورة.

ولما دفع الله عنهم الضر، وجلب لهم النفع، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية وأداء الشكر ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ الآيات.

تم بعونه تعالى تفسير سورة قريش

بين يدي السورة

هذه السورة مكية، وقد تحدثت بإِيجاز عن فريقين من الناس هما:

١ - الكافر الجاحد لنعم الله، المكذب بيوم الحساب والجزاء.

٢ - المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله، بل يرائي في أعماله وصلاته.

أما الفريق الأول فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة أنهم يهينون اليتيم، ويزجرونه بغلظة لا تأديباً، ولا يفعلون الخير حتى ولو بشيء يسير مع المسكين والفقير، فلا هم أحسنوا في عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه.

وأما الفريق الثاني فهم المنافقون، الغافلون عن صلاتهم، الذين لا يؤدونها في أوقاتها، والذين يقومون بها صورة لا معنى، يراءون بأعمالهم، وقد توعدت الفريقين بالويل والهلاك، وشنعت عليهم أعظم تشنيع، بأسلوب الاستغراب والتعجيب من ذلك الصنيع.

اللغة: ﴿يَدُعُّ﴾ يدفع بعنف وشدة، يقال: دعه دعاً أي دفعه دفعاً، ومنه ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾، ﴿يَحُضُّ﴾ الحض: الحث والترغيب ﴿سَاهُونَ﴾ جمع ساهي بمعنى لاهٍ، سها عن كذا يسهو سهواً إذا تركه عن غفلة ﴿الْمَاعُونَ﴾ الشيء القليل، من المعن وهو القلة بلغة العرب:

المشهورة وضرباه ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي ويمنعون الناس المنافع اليسيرة، من كل ما يستعان به كالإبرة، والفأس، والقدر، والملح، والماء وغيرها، قال مجاهد: الماعون: العارية للأمتعة وما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية، وقال الطبري: أي يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته[1]. وفي الآية زجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة، فإن البخل بها نهاية البخل وهو مُخلٌّ بالمروءة.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- الاستفهام الذي يراد به تشويق السامع إلى الخبر والتعجيب منه ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾؟

٢- الإيجاز بالحذف ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ حذف منه الشرط أي إن أردت أن تعرفه فذلك الذي يدعُّ اليتيم، وهذا من أساليب البلاغة.

٣- الذم والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ووضع الظاهر مكان الضمير فويلٌ لهم؛ زيادة في التقبيح لأنهم مع التكذيب ساهون عن الصلاة.

٤- الجناس الناقص ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

٥- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل «ساهون، يراءون، الماعون» إلخ.

تم بعونه تعالى تفسير سورة الماعون.

بين يدي السورة
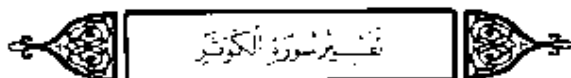
* سورة الكوثر مكية، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم بإعطائه الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها «نهر الكوثر» وغير ذلك من الخير العظيم العميم، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدي شكراً لله.

* وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصمت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذِكْرُ الرسول مرفوعٌ على المنابر والمساجد، واسمه الشريف على كل لسان، خالدٌ إلى آخر الدهر والزمان.

اللغَة: ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير وهو مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثراً، قال الشاعر:

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/٢٠٤).

وأنت كثيرٌ يا ابن مروان طيّبٌ ... وكان أبوك ابنُ العقائل كوثرا[1]

﴿وَانْحَرْ﴾ النحر خاصٌّ بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم ﴿شَانِئَكَ﴾ الشانئ: المبغض، من الشنآن بمعنى العداوة والبغض، ومنه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي بغض قوم ﴿الْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير، من البتر وهو القطع، يقال: بترتُ الشيء بترًا قطعته، والسيف الباتر: القاطع، ويقال للذي لا نسل له: أبتر؛ لأنه انقطع نسبه، وسميت خطبة زياد بالخطبة البتراء لأنه لم يحمد الله فيها ولم يصلّ على النبي الكريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

التفسير: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الخطاب للرسول تكريمًا لمقامه الرفيع وتشريفًا أي نحن أعطيناك يا محمد الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن هذا الخير نهر الكوثر، وهو كما ثبت في الصحيح «نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدُّر والياقوت، تربته أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا»[2] عن أنس قال: «بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه مبتسمًا فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أُنزلت عليَّ آنفًا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ..﴾ السورة ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم قال: «فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل، فيه خيرٌ كثير، هو حوضٌ ترد عليه أُمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد -أي ينتزع ويقتطع منهم فأقول: إنه من أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[3] قال أبو حيان: وذكر في الكوثر ستةٌ وعشرون قولاً، والصحيحُ هو ما فسره به رسول الله فقال: «هو نهرٌ في الجنة حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل» وعن ابن عباس: الكوثر: الخير الكثير[4] ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي فصلِّ لربك الذي أفاض عليك هذا الخير خالصًا لوجهه الكريم، وانحر الإبل التي هي خيار أموال العرب شكرًا له على ما أولاك ربك من الخيرات والكرامات، قال في التسهيل: كان المشركون يصلون مكاءً وتصدية، وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه: صلِّ لربك وحده، وانحر لوجهه لا لغيره، فيكون ذلك أمرٌ

[1] القرطبي (٢٠/٢١٦).
[2] رواه الترمذي.
[3] أخرجه مسلم والترمذي.
[4] البحر (٨/٥١٩)، ما ذهب إليه ابن عباس من أنه الخير الكثير جامع لأقوال المفسرين، فقد أعطي الرسول الفضائل الكثيرة العديدة، أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوحات... إلى غير ما هنالك من الخيرات صلوات الله وسلامه عليه

بالتوحيد والإخلاص ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي إن مبغضك يا محمد هو المنقطع عن كل خير. قال المفسرون: لما مات "القاسم" ابن النبي ﷺ قال العاص بن وائل: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له - أي لا نسل له - فإذا هلك انقطع ذكره!! فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأخبر تعالى أن عدو الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله - أي مقطوع عنها - ولأنه لا يُذكر إلا ذُكر باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المآذن والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهم كأولاده له صلوات الله وسلامه عليه.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- صيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: أنا أعطيتك.

٢- تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم ﴿إِنَّا﴾ لأن أصلها إنَّ ونحن.

٣- صيغة الماضي المفيدة للوقوع ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: سنعطيك؛ لأن الوعد لما كان محققًا عبَّر عنه بالماضي مبالغة كأنه حدث ووقع.

٤- المبالغة في لفظة الكوثر.

٥- الإضافة للتكريم والتشريف ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

٦- إفادة الحصر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

٧- المطابقة بين أول السورة وآخرها بين "الكوثر والأبتر" فالكوثر: الخير الكثير، والأبتر: المنقطع عن كل خير، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن!!

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكوثر»
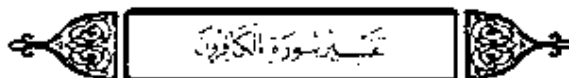
بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فنزلت السورة تقطع أطماع الكافرين، وتفصل النزاع بين الفريقين: أهل الإيمان، وعبدة الأوثان، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

المفسير. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا أعبد هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها، فأنا بريءٌ من آلهتكم ومعبوداتكم التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عن عابدها شيئًا، قال المفسرون: إن قريشًا طلبت من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئًا! فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك، فنزلت السورة فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا منه[1] وآذوه وآذوا أصحابه، وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله، وخطابه ﷺ لهم بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ونسبتهم إلى الكفر - وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنسبوا إلى ذلك - دليلٌ على أنه محروسٌ من عند الله، فهو لا يبالي بهم ولا بطواغيتهم ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولا أنتم يا معشر المشركين عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحقّ وهو الله ربُّ العالمين، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، وشتان بين عبادة الرحمن، وعبادة الهوى والأوثان!! ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ تأكيدٌ لما سبق من البراءة من عبادة الأحجار، وقطعٌ لأطماع الكفار كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبدًا ما عشتُ، لا أعبد أصنامكم الآن، ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلهي الحق الذي أعبده ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي لكم شرككم، ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ من عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار، قال المفسرون: معنى الجملتين الأوليين: الاختلاف التام في المعبود، فإله المشركين الأوثان، وإله محمد الرحمن، ومعنى الجملتين الأخريين: الاختلاف التام في العبادة، كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الخطاب بالوصف ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ للتوبيخ والتشنيع على أهل مكة.

٢ - طباق السلب ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فالأول نفيٌ والثاني إثبات.

٣ - المقابلة بين كلٍّ من الجملتين الأوليين ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي في الحال، والمقابلة بين الجملتين الأخريين ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي في الاستقبال، وفي هذه المقابلة نفيٌ لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال وهو من المحسنات البديعية.

٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

«انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الكافرون»

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٢٥٠). وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥)

﴿مَّسَدٍۭ﴾ ليف. قال الواحدي: المسد في كلام العرب: الفتل، يقال: مسد الحبل يمسده مسداً إذا أجاد فتله، وكل شيء فُتل من الليف والخوص فهو مسد[1].

سبب النزول:

١ - عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ونادى: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون من قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو الخبر، فاجتمعت قريش وجاء عمه «أبو لهب» فقالوا: ما وراءك؟ فقال ﷺ: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدِّقيَّ؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قط، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال له أبو لهب: تباً لك يا محمد سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[2]... السورة.

٢ - وعن طارق المحاربي قال: «بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب حديث السن يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه - مؤخر القدم - ويقول: يا أيها الناس إنه كذّاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه «أبو لهب» يزعم أنه كذاب»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

التفسير: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أي هلكت يدا ذلك الشقي أبي لهب، وخاب وخسر وضل عمله ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد هلك وخسر، الأول دعاء، والثاني إخبار كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. قال المفسرون: التباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد صاحبها، على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه، وأبو لهب هو «عبد العُزّى بن عبد المطلب» عم النبي ﷺ وامرأته العوراء «أم جميل» أخت أبي سفيان، وقد كان كلٌ منهما شديد العداوة للرسول ﷺ، فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه وفي يدها فِهْر - قطعة من الحجارة - فلما دنت من الرسول ﷺ أخذ الله ببصرها عنه فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه! ثم أنشدت تقول:

مذمماً عصينا
وأمره أبينا
ودينه قلينا

---

(١) التفسير الكبير (٣٢/ ١٦٧). (٢) روح المعاني (٣٠/ ٢٦٠). (٣) القرطبي (٢٠/ ٢٣٦).

لأعلقنها في عداوة محمد!! فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار[1].

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- المجاز المرسل ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي هلك أبو لهب.

٢- الجناس بين ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ وبين ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالأول كنية والثاني وصف للنار.

٣- الكناية للتحقير والتصغير ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ فليس المراد تكريمه بل تشهيره كأبي جهل.

٤- الاستعارة اللطيفة ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة قال الشاعر:

ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب

٥- النصب على الشتم والذم ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب.

٦- توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات وهو من المحسنات البديعية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المسد»

❑ ❑ ❑

بين يدي السورة
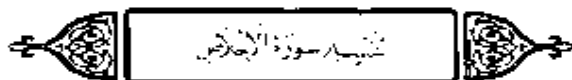
* سورة الإخلاص مكية، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردّت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

اللغة: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد المقصود في قضاء الحوائج، قال الشاعر:

ألا بكّر الناعي بخير بني أسد ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد[2]

﴿كُفُوًا﴾ الكفوء: النظير والشبيه، قال أبو عبيدة: يقال كُفُوٌ وكُفْءٌ وكِفاء كلها بمعنى واحد وهو المثل والنظير.

سبب النزول: روي أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من زبرجد، أم من ياقوت؟! فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .. السورة.

---

(١) القرطبي ٢٠/٢٤١. (٢) البحر المحيط ٨/٥٢٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

التفسير: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: إن ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير: لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد النصارى بالتثليث «الأب، والابن، وروح القدس» ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة، قال في التسهيل واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى: الأول: أنه واحد لا ثاني معه فهو نفيٌ للعدد، والثاني: أنه واحد لا نظير ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره أي لا نظير له، والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض، والمراد بالسورة نفي الشريك ردًّا على المشركين، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالى، وذلك كثيرًا جدًا، وأوضحها أربعة براهين: الأول: قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وهذا دليل الخلق والإيجاد، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحد منها شريكًا له، والثاني: قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهو دليل الإحكام والإبداع، الثالث: قوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ وهو دليل القهر والغلبة، الرابع: قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو دليل التنازع والاستعلاء ثم أكد تعالى وحدانيته واستغناءه عن الخلق فقال ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي هو جل وعلا المقصود في الحوائج على الدوام، يحتاج إليه الخلق وهو مستغنٍ عن العالمين، قال الألوسي: الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه - أي يلجأ إليه - الناس في حوائجهم وأمورهم ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، منزه عن النقائص، قال المفسرون: في الآية ردٌّ على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ والنصارى في قولهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وكمشركي العرب في زعمهم أن الملائكة بنات الله، فردَّ الله تعالى على الجميع في أنه ليس له ولد، لأن الولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى أزلي قديم، ليس كمثله شيء، فلا يمكن أن يكون له ولد، ولأن الولد لا

التسهيل لعلوم التنزيل (٤/٢٢٣)، وقد ذكر في التسهيل هذه النصوص من الكريمة دون بيان وجه الدلالة، وما ذكر بين المعترضين مثل: دليل الخلق والإيجاد، دليل الإحكام والإبداع فهو من كلامه.

روح المعاني (٣٠/٢٧٣).

يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم «الأب، والابن، وروح القدس» وهي عقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، ويزعمون أنهم موحدون، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظرًا لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مؤذ خلقه الله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولهذا قالوا في المثل «الليلُ أخفى للويل» قال الرازي: وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل؛ لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث[1] ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أي ومن شر السواحر اللواتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن - أي ينفخن - فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال في البحر: وسبب نزول المعوذتين: قصة لبيد بن الأعصم الذي سحر رسول الله ﷺ في مشط ومشاطة وجف - قشر الطلع - طلعة ذكر، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد في نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال[2] ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي ومن شر الحاسد الذي يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهًا من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١ - الجناس الناقص بين «فلق» و «خلق».

٢ - الإطناب بتكرار الاسم ﴿شَرِّ﴾ مرات في السورة ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ إلخ تنبيهًا على شناعة هذه الأوصاف.

٣ - ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بالمذكور ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فإنه عموم يدخل تحته شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد.

٤ - جناس الاشتقاق بين ﴿حَاسِدٍ﴾ و ﴿حَسَدَ﴾.

٥ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفلق»

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٣٢/١٩٥).
(٢) البحر المحيط (٨/٥٣٠).

بين يدي السورة

* سورة الناس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغراء.

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدئ بالفاتحة، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجئ إليه من بداية الأمر إلى نهايته.

اللغة: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ الشيطان الموسوس، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس، قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت

﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفي ويتأخر يقال: خنس الظبي إذا اختفى، وسمي الشيطان خناسا لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربه، وإذا غفل عن ذكر الله عاد فوسوس له. والخنوس: التأخر. ﴿الْجِنَّةِ﴾ (بكسر الجيم) الجن جمع جني، (وبضم الجيم) الوقاية، وفي الحديث «الصوم جُنَّة» (٢) أي وقاية من عذاب الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

التفسير: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي قل يا محمد أعتصم وألتجئ وأستجير ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي بخالق الناس ومربيهم ومدبر شئونهم، الذي أحياهم وأوجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم، قال المفسرون: إنما خص الناس بالذكر - وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق - تشريفاً وتكريماً لهم، من حيث إنه تعالى سخر لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكة قدسه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين، ملكاً تاماً شاملاً كاملاً، يحكمهم، ويضبط أعمالهم، ويدبر شئونهم، يعز ويذل، ويغني ويفقر ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أي معبودهم الذي لا رب لهم سواه، قال القرطبي: وإنما قال ﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم، وفي الناس

---

(١) القرطبي (٢٠/٢٦١).
(٢) جزء من حديث رواه الترمذي.

من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء [١]. وترتيب السورة بهذا الشكل في منتهى الإبداع، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له رباً لما يشاهده من أنواع التربية ﴿رب الناس﴾ ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرف في خلقه، غني عن خلقه فهو الملك لهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد، لأنه لا عبادة إلا للغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ وإنما كرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتف بالضمير، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم، كما حسن التكرار في قول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

قال ابن كثير: هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل «الربوبية، والملك، والإلهية» فهو ربُّ كل شيء ومليكه وإلهه، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات [٢] ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ أي من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس أي يختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن الله عاد فوسوس له، وفي الحديث «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس» [٣] ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي الذي يلقي بشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوساوس والأوهام، قال القرطبي: ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت [٤] ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان له أي هذا الذي يوسوس في صدور الناس، هو من شياطين الجن والإنس كقوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعاً، ولا شك أن شياطين الإنس أشدُّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن، فإن شيطان الجن يخنس بالاستعاذة، وشيطان الإنس يزين له الفواحش ويغريه بالمنكرات، ولا يثنيه عن عزمه شيء، والمعصوم من عصمه الله.

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي:

١- الإضافة للتشريف والتكريم ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وفي الآيتين بعدها.

٢- الإطناب بتكرار الاسم «رب الناس، ملك الناس، إله الناس» زيادة في التعظيم لهم، والاعتناء بشأنهم. ولو قال «ملكهم، إلههم» لما كان لهم هذا الشأن العظيم.

٣- الطباق بين ﴿الْجِنَّةِ﴾ و ﴿النَّاسِ﴾.

٤- جناس الاشتقاق «يوسوس ... الوسواس» كما في السورة من السجع الموسيقي، الذي يفصل الألحان بعذوبة البيان، وذلك من خصائص القرآن.

---

(١) القرطبي ٢٠/٢٦٠.
(٢) مختصر ابن كثير ٣/٦٩٦.
(٣) رواه الحافظ الموصلي.
(٤) القرطبي ٢٠/٢٦٣.

تنبيه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً»(١).

يقول راجي عفو ربه الجليل: الشيخ محمد علي الصابوني بن الشيخ جميل: إنه قد تم - بعون الله وتوفيقه - تفسير القرآن العظيم، في مهبط الوحي مكة المكرمة البلد الأمين.

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنين، وكان الفراغ منه في الثامن عشر من شهر جمادى الثانية ١٣٩٨هـ سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين،

ونسأل الله حسن القبول، وأن يمنحنا التوفيق والسداد، والحمد لله في البدء والختام،

وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة
والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة
الملك عبد العزيز

---

(١) رواه أهل السنن.

الفهرس